الغجرية اليهودية

* الكتاب: الغجرية اليهودية (روايـة)
* الكاتبة: جويس
* ترجمة: شرقاوي حافظ
* مراجعة لغوية: عبدالله الصياد
* تصميم الغلاف: صابرين عبد الهادي
* إخراج داخلي: سليل الفراعنــة
* رقم الإيداع: 2022 /11313
* الترقيم الدولي: 978-977-6914-85-8

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع











(روايـــــة)

الغجرية اليهودية

جويس

ترجمة

شرقاوي حافظ





كلمة المترجم

كثيرة هي القصص التي كتبت حول هجرة أسر بكاملها من موطنها الأصلي إلىٰ بلاد غريبة إثر اشتعال الحروب في بلادها أو انتشار العنصرية. من هذه الأسر أسرة هاجرت من بلادها في ألمانيا بسبب الحرب العالمية الثانية وما خلفته هذه الحرب من دمار وخراب في بلادها، بل وفي العالم بأثره، وبسبب العنصرية أيضا، فهذه الأسرة أسرة يهودية لاقت مثلها مثل الأسر الأخرىٰ ما لاقت من معاناة علىٰ يد النازية.

ولما كانت رواية (الغجرية اليهودية) تحكي لنا معاناة أسرة علىٰ مستويات متعددة سواء دينية أو اجتماعية أو سياسية أو عرقية، رأينا أن نقل هذه الصور المتعددة لهذه المعاناة لما فيها من إسقاطات إنسانية متنوعة.

ولعل أسلوب الكاتبة (جويس) يغري بترجمته لما تتميز به من مزج بين أساليب مختلفة، ولِما تتسم به من جرأة في الوصف والتعبير عما يدور في نفوس الشخصيات المرسومة بدقة.

والذي قد يهم القارئ العربي في هذه الرواية أكثر من منحىٰ؛ أبرزها هو الأسلوب السردي للكاتبة، ويليه المشاهد التي تصور مأساة أسرة عاشت حياة كريمة في موطنها لتذوق مرارة الغربة، وكيف يتجسد الهوان في غربة الإنسان مهما علا شأنه.



أتمنىٰ أن أحظىٰ برضا القارئ عن ترجمتي هذه لما لاقيت فيها من صعوبات تتمثل في الإسهاب في الأصل، ومن جرأة قد تخدش القارئ العربي، فحاولت تخفيفها بما لا يشوه الأصل أو ينحرف به بعيدا عن مقصده، ورغم هذه الصعوبات الفنية، فإني أتمنىٰ أن أكون قد وفقني الله لتقديم عمل أراه مهما في المكتبة العربية.



جلست جاثمة تفكر؛ إنها تكرهه! ربما كانت نكتة، أو مقلبا سخيفا، أو أن أحدا من زملائها الأوغاد صرخ في أذنها مثلما راحت أصابع شاب تداعب صدرها من تحت السترة أو تدغدغ منطقتها الحساسة، فظلت بلا حراك لا تستطيع أن تصرف انتباهها عن الحزام الذي يدور بسرعة أكثر مما تتوقع. إن النظارة الواقية التي يعلوها البخار تؤلم وجهها وتقفل عينيها وهي تتنفس من فمها الهواء الملبد بالغبار. يا لها من لحظات مشينة، روح مضنية، موقف قاتل، ما هذا الذي ينتابها أحيانا في لحظات الإرهاق أو الحزن؟ أخذت تبحث على الحزام عن هذا الشيء الذي لا اسم له في تلك الآونة ولا هوية ولا غرض، وجازفت بتعليق يدها في آلة الترقيم حتى انسحقت نصف أصابعها قبل أن تهز رأسها بعيدا عن هذا الذي تكلم في هدوء موقنا أن صوته سيسمع رغم قعقعة الآلة:

«يجب أن تخفي ضعفك يا ريبيكا».

كان وجهه قريبا من وجهها كما لو أنهما متآمران، ليسا كذلك، ولا شيء يجمع بينهما، وليسا متشابهين في أي شيء، لقد كرهت رائحة فمه المختمرة، هذا الوجه الذي بدا كالطماطم المسلوقة المتفتقة. إنها رأت ذلك الوجه المتفجر عن دم وغضاريف ودماغ، لقد مسحت هذا الوجه عن ذراعها العارية، لقد منحته من وجهها الملعون، لقد نزعت ذلك الوجه من شعرها. عشر سنوات، بل عشر وأربعة أشهر منذ ذلك اليوم، إنها لم تنس ذلك اليوم أبدا. إنها ليست منه، ليست منه على الإطلاق، ولا تنتمي لأمها. لا يمكن أن تستبين شبها بينهم. هي الآن امرأة ناضجة عمرها ثلاثة وعشرون عاما، وما أدهشها أنها عاشت



طـويلا، لقـد نجـت حتـىٰ وصـلت لتلـك السـن، فلـم تعـد الطفلـة المذعورة، إنها الآن زوجة لرجل بمعنىٰ الكلمة، ليس بالجبان المتذمر ولا بالقاتل، ولقد منحها هذا الرجل طفلا، ابنا، لـم يـره أبوهـا المتـوفي قط. من سعادتها أنه لم يره، ولـم ينفث في أذنه كلماته المسـمومة. ومـع ذلك كان يقترب منها، فهو يعرف نقطة ضـعفها، عنـدما تكـون مرهقـة، وتـنكمش ذاتهـا لحجـم عنبـة ضـامرة. في هـذا المكـان المـبهج حيـث اكتسبت كلماته إيقاع وسيطرة آلة قوية أخضعتها تماما.



«في عالم الحيوان سرعان ما يتم التخلص من الحيوانات الضعيفة، لذا يجب أن تخفي ضعفك يا ريبيكا، يجب علينا ذلك».

الشلالات، نيويورك

في يوم ما -بعد الظهر- من أيام سبتمبر ١٩٥٩، بينما كانت امرأة صغيرة السن عاملة في مصنع تمشي عائدة للمنزل في ممر بمحاذاة القناة، شرق مدينة الشلالات؛ لمحت خلفها رجلا يرتدي قبعة يتبعها علىٰ بعد ثلاثين قدما. قبعة قش، وملابس زاهية الألوان، غير مألوفة في الشلالات. أخذت تفكر وقد بدأت تسرع في مشيتها: «يجب ألا يتبعني، زوجي لا يحب ذلك».

ولكي لا تشجع الرجل ذا القبعة علىٰ اللحاق بها والحديث معها كما يفعل الرجال أحيانا، ليس غالبا ولكن أحيانا، أخذت ريبيكا تضرب في الأرض بكعب حذاء العمل علىٰ نحو فظ. علىٰ أية حال كانت جسورة، ومتوترة كحصان يضايقه بعض الذباب، لقد هرست يدها في المكبس في ذلك اليوم، يا للعنة لقد كانت شاردة الذهن، والآن هذا الشاب! لقد نظرت إليه شذرا من فوق كتفها حتىٰ لا يتشجع، إنها لا تعرفه، يبدو أنه ليس من هنا. أحيانا الرجال في الشلالات يتبعونها، علىٰ الأقل بعيونهم، وريبيكا في معظم الأحيان تحاول أن تتجاهل ذلك، لقد عاشت مع إخوة، فهي تعرف الرجال، وليست من هذا النوع من الفتيات الخجلات الخائفات، إنها قوية، سمينة، عندها إرادة أن تشعر بأنها قادرة علىٰ حماية نفسها.



لكنها في عصر ذلك اليوم شعرت بشيء مختلف إلىٰ حد ما، فاليوم من الأيام الشاحبة الكئيبة، يوم يبعث علىٰ البكاء. ليست ريبيكا من تبكي، أبدا. والممر في ذلك اليوم خاليا.

إنها تعرف طول الممر جيدا عن ظهر قلب، يستغرق خمسا وأربعين دقيقة مشيا للبيت، حوالي اثنين كيلو متر. إن ريبيكا تمشىٰ هذا المشوار خمس مرات في الأسبوع ذهابا وإيابا للشلالات بأقصىٰ سرعة ممكنة في حذاء العمل المتعب. كانت أحيانا تمر بارجة في القناة تنعش الوقت قليلا، تتبادل فيه التحايا والنوادر مع الشباب علىٰ البارجة، لقد تعرفت علىٰ بعضهم. لكن القناة في ذلك اليوم خالية في الاتجاهين. يا للعنة، إنها متوترة، تتصبب عرقا من رقبتها، وإبطها يرشح داخل ملابسها، وقلبها يدق علىٰ نحو مخيف وكأن شيئا ما ينغص في جنبها. لقد جاء بها تجنور لتعيش هنا في أواخر صيف ١٩٥٦ . أول شيء قرأته ريبيكا في صحف الشلالات كان شيئا فظيعا لم تصدقه عن رجل قتل زوجته. لقد ضربها وألقىٰ بها في مكان ما من هذا المجرىٰ الممتد المهجور وألقىٰ عليها بعض الصخور حتىٰ غرقت. صخور! قال الرجل للشرطة «ربما استغرق الأمر عشر دقائق» إنه لم يفتخر ولكنه لم يشعر بالأسف أيضا.

قال الرجل: «العاهر أرادت أن تتركني، أرادت أن تأخذ ابني»

ودت ريبيكا لو لم تقرأ هذه القصة البشعة.

يا للهول، بدأت ريبيكا تخاف هذا الرجل ذو القبعة، ربما كانت مصادفة، ربما لا يتبعها ولكنه يسير خلفها، ربما لم يكن متعمدا ذلك



بل هي محض صدفة، مع ذلك يجب أن يعرف هذا الوغد أنها علىٰ وعي به، رجل يخيف امرأة في مكان موحش كهذا، إنها تكره أن يتبعها أحد، تكره أن يتبعها أي رجل ولو حتىٰ بعينيه.

لقد زرعت فيها أمها الخوف من سنين مضت: «لا تسمحي لأي شيء يحدث لك، فالبنت فقط يا ريبيكا يتبعها الرجال، حتىٰ الأولاد، فلا تثقي بأي شخص». لدرجة أنها أخافتها من أخيها الأكبر هارشل فإنه يمكن أن يفعل أي شيء، يا للأم المسكينة، فلم يحدث أي شيء لريبيكا مع كل مخاوف أمها. علىٰ الأقل لا شيء يمكن أن تتذكره. لقد كانت الأم مخطئة في أشياء كثيرة.

كان بودها أن تصرخ في الرجل الذي يتبعها «أنت، لا تستطيع أن تلاحقني فأنا أقدر أن أدافع عن نفسي».

كان الأمر حقيقيا، فريبيكا لديها قطعة حديد خردة حادة تحت الجاكت، راحت تتحسسها بأصابعها: «لو أن هذا آخر شيء سأفعله فسأجعل لك عاهة مستديمة».

اعتادت ريبيكا أن تتشاجر عندما كانت في المدرسة، فهي ابنة عامل المدافن في المدينة، كان الأطفال الآخرون يغيظونها، وكانت تفعل ما في وسعها لتتجاهلهم. أمها تنصحها دائما: «يجب ألا تنزلي لمستواهم يا ريبيكا». ومع ذلك تتشاجر بالأيدي والأرجل بشراسة، كان عليها أن تدافع عن نفسها. لقد طردها الناظر الوغد ذات مرة.

آه! الحديدة الخردة مدببة جدا كقمة الجليد، سوف تطعنها في رقبة أو صدر الرجل بعمق. «هل تعتقد أني لا أستطيع ذلك يا أيها



الوغد؟ بل أستطيع!» وتساءلت ريبيكا إذا كان الرجل ذو القبعة، الذي لا تعرفه، يعرفه تجنور أو هو يعرف تجنور.

يعمل زوجها في مجال البيرة، فهو علىٰ سفر لعدة أيام، بل وأسابيع. عادة يبدو عليه الازدهار رغم أنه يشكو أحيانا من عدم وجود سيولة. وهو يتحدث عن صناعة التخمير والتسويق وتوزيع البيرة والجعة علىٰ تجار التجزئة في نيويورك كمنافس عنيف.

إن الطريقة التي يتحدث بها تجنور باستمتاع، تجعلك تفكر في التشريح والرقاب التي تنزف دما وكأنما المنافسة الدموية شيء حسن، لقد أخبر تجنور ريبيكا أنه سيقتل بيديه أي شخص يقترب من زوجته.

راحت ريبيكا تفكر في الرجل ذي القبعة، إنه لا يبدو كالرجال الذين يعملون في صناعة البيرة، فالقبعة الرياضية، والنظارة الملونة، والبنطلون الكريمي كلها تتناسب مع شاطئ بحيرة في الصيف لا مع عمل في أطراف الشلالات في الخريف. إن القميص ذا الأكمام الطويلة والذي يبدو من قطن أو كتان جودة عالية، والببيونة. ببيونة! لا أحد في الشلالات يرتدي كرافتة ببيونة، وبالتأكيد لا أحد من معارف تجنور. ليس بالرجل الذي يتبع امرأة في مكان مهجور.

من هو؟! «كانت ريبيكا تتمنىٰ لو أن الوقت لم يكن متأخرا بعد الظهر، لو كان في عز الظهر، فما كانت تشعر بالقلق.

السماء مكتظة بالسحاب، وكأنها مادة فيبر مضغوطة ثم انسابت، هناك حيوية ضارة مرتعشة لذلك، الشمس تطل من بين السحاب



وكأنها عين شرسة بجنون، تسطع فتجعل أوراق الأعشاب بطول الممر جلية، وتجعل عيونك أيضا تلمع، فإذا ما اختفت الشمس تشوش كل شيء جلي. هناك سحابة رعدية ثقيلة آتية من البحيرة، والرطوبة عالية، وقرصات الذباب في كل مكان، تطن حول رأس ريبيكا وهي تحاول أن تبعدها عنها.

العمل في أنابيب الشلالات مؤقتا، فيمكن لريبيكا أن تتحمله لعدة شهور أخرىٰ.

الحضور في الساعة التاسعة والانصراف في الساعة الخامسة؛ ثمان ساعات عمل، وخمسة أيام في الأسبوع. عليك أن ترتدي نظارة أمان وقفاز، وأحيانا مريلة أمان، يا له من ثقل وحر، علاوة علىٰ حذاء العمل بمقدمته القوية. وكبير العمال الذي يقوم بالتفتيش علىٰ كل هذا، وأحيانا تكون كبيرة عمال.

قبل المصنع، عملت ريبيكا في فندق عاملة غرف، ترتدي زيا خاصا. ثمان ساعات عمل مقابل ١٦ دولار قبل الضرائب. إنها تعمل كل هذا من أجل نيلي.

أعدت نفسها للجري تحسبا إذا ما فعل الذي خلفها شيئا، إنها تعرف مكانا خفيا علىٰ بعد خطوات في الجانب الآخر من جسر القناة؛ مجرور لمياه الصرف رائحته عفنة، لا يمكن رؤيته من الممر. تستطيع أن تتوارىٰ وتجري خلاله حتىٰ تصل للجهة الأخرىٰ، ما لم يكن مستنقعا، فالرجل ذو القبعة لن يراها وهي تذهب إلىٰ النفق، وإن رآها ربما لا يذهب وراءها. رغم أن ريبيكا فكرت في الهروب بهذه الطريقة، فإنها رفضت الفكرة، فالمجرور ينفتح علىٰ مستنقع نتن؛ مصرف



مجاري، فلو أنها جرت ربما تتعثر وتقع. الممر مكان مناسب لتتبع الضحية، لن تستطيع رؤية الجانب الآخر من الجسر، فالأفق معتم تماما. إذا أردت أن تري السماء فعليك أن ترفعي رأسك وتنصبي رقبتك وتنظري لأعلىٰ، وبغير ذلك لن تريها.

أحست ريبيكا بالظلم؛ فهو يتبعها في هذا المكان الذي تشعر فيه بالراحة بعد خروجها من المصنع. حيث تستمتع بمنظره رغم أنه مقفر وقذر. تفكر دائما في ابنها، إنه ينتظرها بلهفة.

تعلم ريبيكا أنها يجب ألا تضعف، يجب ألا تبين ضعفها.

لم تكن ريبيكا بالشابة الجبانة، ولا بالضعيفة، ليس من في جسمها ولا في فطنتها. لم تكن امرأة بمعنىٰ الأنوثة، فليس فيها شيء لدن أو طري أو لين، ولكنها مشدودة. لها وجه لافت للنظر، وعيون سوداء واسعة وغائرة، وحواجب سوداء كثيفة كالرجال، ولها مواقف كالرجال في مواجهة الآخرين. في الحقيقة هي تحتقر الأنوثة باستثناء علاقتها مع تجنور، لا تتمنىٰ ريبيكا أن تكون تجنور، ولكن تتمنىٰ أن يحبها. مع أن ريبيكا تمقت الضعف في داخلها فهي تشعر بالخزي والغضب، فهذا هو الضعف القديم فيهن، هو ضعف آنا شوارت أمها، ضعف النسل المنهزم.

لقد تركها الرجال في المصنع في حالها، فهم يعرفون أنها متزوجة، ولا تستجيب لرغباتهم، لم تلتق عيناها بعيونهم، ولا تهتم بماذا يفكرون فيها، مع ذلك فقد واجهت في الأسبوع الماضي هذا الأحمق المتصنع الذي يمر دائما من خلفها أثناء وقوفها في خط التجميع، الرجل الذي



ينظر إليها من رأسها حتىٰ أخمص قدميها لكي يحرجها، لقد طلبت منه أن يتركها في حالها وإلا ستشكو لكبير العمال، يا للعنة! أثناء اندفاعها في الكلام كتمت غيظها فتحشرج صوتها، فما كان من هذا الأحمق المتصنع إلا أن ابتسم لها: «إممم يا حلوة، أحبك».

مع ذلك لم تترك المصنع، ما أهول أن تتركه! إنها تعمل في أنابيب الشلالات منذ مارس الماضي، خط التجميع عمل لا يحتاج لمهارة. لكن المصانع لا زالت تعطي أجرا أكبر للمرأة من أي عمل آخر كالعمل في الكافتيريا أو بائعة أو عاملة تنظيف، فليس هناك حاجة لكي تبتسمي للزبائن، أو تكوني لطيفة معهم.

هذا العمل مؤقت فقط كما أخبرت صديقتها ريتا التي تعمل معها في أنابيب الشلالات في خط التجميع، ضحكت ريتا وهي تقول أنه بالتأكيد عمل مؤكد حتىٰ بالنسبة لها، وقد عملت سبع سنين فيه.

جسر المزرعة علىٰ بعد ميل علىٰ الأقل، كم يستغرق من الوقت؟ لا تستطيع التقدير، ربما عشرين دقيقة، وهي لا تستطيع أن تجري. كانت تتساءل ماذا يمكن أن يحدث في العشرين دقيقة هذه.

سطح القناة يتماوج كما لو أنه جلد لحيوان وحشي ضخم هاجع لا ترىٰ رأسه، ممتد لآخر الأفق، غير أنه لم يكن هناك في الحقيقة أفق، فالقناة تتلاشىٰ في ضباب كثيف علىٰ مدىٰ البصر كخط السكة الحديد؛ حيث تخدعك عيونك أنها تضيق وتنكمش وتتداخل في بعضها وتختفي كما لو أنها تخرج من الزمن الحاضر لمشارف المستقبل الذي لا تراه.



«اخفي ضعفك، لا تظلي هكذا طفلة للأبد».

إنها ليست طفلة، فهي متزوجة وأم، وتعمل في أنابيب الفيبر في الشلالات.

أثناء العمل تلم ريبيكا شعرها في ضفائر وتغطيه بإيشارب، ورغم ذلك إذا فردته تنبعث منه رائحة المصنع، شعرها هذا الجميل الأسود اللامع، الشعر الغجري كما يسميه تجنور، أصبح جافا، هشا، ويتقصف كالسلك الحديد. إنها تبلغ الثالثة والعشرين فقط، ومع هذا اكتشفت بعض الشعرات البيضاء. ورغم أنها ترتدي القفاز أثناء العمل فإن أصابعها تصلبت، وبهتت أظافرها. لقد تركت نظارة الأمان بصمات باهتة علىٰ وجهها وانبعاجات علىٰ جانبي أنفها.

إنها متزوجة، فلماذا يحدث لها كل هذا؟

لقد غضب منها تجنور ذات مرة لأنها لا تريد أن تعترف بأن الزمن يدور، لم يحب تجنور حملها، فالبطن كبر وانتفخ وأصبح مشدودا كالطبلة، والعروق الزرقاء الشاحبة نفرت من جلدها وكأنها ستنفجر، وأقدامها تورمت، وأصبحت تلهث في تنفسها، وحرارة جسمها غريبة جنسيا، فهي ساخنة تنفر الرجال. إنها فارعة الطول وقوية كالحصان كما يقول تجنور.

فكرت أن الرجل الذي خلفها ربما يعتقد أنها امرأة شرسة، تستطيع أن تتشاجر.

تتساءل، هل يعرف عنها أي شيء. ربما يعرف أنها تعيش بمفردها مع ابنها، تعيش في منزل ريفي قديم وبعيد في البلدة. لكنه إذا



كـان يعـرف ذلـك فهـو يعـرف أن ابنهـا ترعـاه إحـدىٰ الجـارات أثنـاء وجودها في العمل، ولو أن ريبيكا تأخرت ولـم تظهـر فستعتقد السيدة ميلتزر أن شيئا ما حدث لها.

لكن كم من الوقت قد يمر قبل أن تبلغ السيدة ميلتزر الشرطة؟ كم يستغرق هذا؟ ربما ساعات!

استدارت للخلف فجأة لترىٰ الرجل ذا القبعة لا زال علىٰ نفس المسافة، إنه لا يحاول علىٰ الأقل أن يلحق بها، ولكن يبدو أنـه يتبعهـا، ويراقبها.

«من الأفضل أن تتركني لحال سبيلي»

كـان صـوت ريبيكـا حـادا، وبنـبرة عاليـة، إنـه بـدا وكأنـه لـيس صـوتها بـالمرة، اعتـدلت وأسـرعت الخطـىٰ، هـل فعـلا ابتسـم؟ هـل كـان يبتسـم لهـا؟ قـد تكـون الابتسـامة سـاخرة، مثـل ابتسـامة المرحـوم أبيهـا، حمـاس زائـف، ورقـة زائفـة. تـذكرت الآن ريبيكـا أنها رأت ذلك الرجل بالأمس.

في نفس الوقت أخذت تستجمع بعض الملاحظات، كانت تـترك المصنع في نهاية الوردية الساعة الخامسة مساء مع زمـرة مـن العمـال، هل رأت الرجل ذا القبعـة، لـيس لـديها أي سـبب يجعلهـا تفـترض أنـه يهتم بها، اليـوم هـا هـو يتبعهـا، ربمـا دون قصـد، إنـه لا يعـرف اسـمها، أليس كذلك؟

قلبها يمتاز غيظا ولكنها لا تزال خائفة: «لـيس مـن الصـح، لـيس من الصح أن تتبعني أيها الأحمق». تحسست ريبيكـا قطعـة الحديـد في



جيبها الأيمن، لقد جاءها انطباع أن الرجل الغريب، أوحىٰ بأنه سيخلع قبعته. هل ابتسم؟

إن الممر طريق عام، وربما هو يأخذ نفس الطريق المختصر الذي تأخذه ريبيكا، إنها لم تره أبدا من قبل، عليه اللعنة! «أديري ظهرك وابدئي في الجري، إنه خلفك. للخوف رائحة يشمها الحيوان المفترس».

عندما رأت الرجل في اليوم السابق، لم يكن يرتدي قبعة. كان يقف عبر الشارع في مقابل بوابة المصنع، متكئا علىٰ حائط تحت سقيفة. في ذلك المكان مقهىٰ ومحل تصليح أحذية، وجزار وبقالة صغيرة. تنقل الرجل بين المقهىٰ ومحل تصليح الأحذية، كان هناك عدة رجال في المكان، فالوقت وقت زحام. لم تنتبه له ريبيكا إلا الآن، إنها مجبرة. تذكر الماضي سهل، ولكن لو أنك فكرت في المستقبل ستنقذين نفسك.

ثمان ساعات علىٰ خط التشغيل ولا تزال ريبيكا تشعر، أو بالأحرىٰ تريد أن تعطي انطباعا بأنها تشعر برغبة شديدة لو جاز من باب السخرية رغبة جنسية لرجل غريب.

- ألم تريه من قبل؟
- لا

لم تفعل ريبيكا أكثر من أنها نظرت إلىٰ الرجل، فهي لا تهتم بمن يكون

«إن لم يكن تجنور، فلا أحد»



في عصر هذا اليوم خرجت من المصنع لوحدها، ودون أن تبحث عن تجنور فهي تعلم أنه لن يكون هناك، ومع ذلك أخذت تنظر هنا وهناك، تحاول الإمساك بأي شبح لرجل، ولكنها شعرت بشيء من الارتياح لأنها لم تجده. لأنها بدأت تكرهه، فقد مزق قلبها هكذا وكبرياءها أيضا. وهي تعلم أنها يجب أن تتركه، تأخذ الطفل وترحل، ومع ذلك لم تمتلك القوة.

الحب! إنه كان قمة الضعف، والآن الطفل الذي أصبح رباطا بينهما للأبد، أمسكت المنديل المبلل بالعرق ودسته في جيبها. يسيل العرق علىٰ عنقها كحشرة تزحف. أسرعت الخطىٰ، فدخان المصنع يشعرها بالغثيان. «من هذا؟ ولماذا هو هنا؟!»

قفزت ريبيكا عابرة مصرف، واندفعت خلال سور من السلك الدائب. كانت ريبيكا دائما عند هذه النقطة، لما تقترب من القناة، وتخرج من نطاق المدينة، تشعر بالراحة. فالممر مهجور وهواؤه ألطف. أما رائحة القناة، ورائحة أوراق الشجر الترابية العفنة، فريبيكا بنت ريف، كبرت علىٰ التنقل بين الحقول، والغابات. ستصل لمنزل ميلزر، وهناك طفلها ينتظرها بصياحه «ماما» وهو يجري نحوها بحب يشوبه الألم، لم تكد تحتمله، قفزت عابرة مصرف آخر تنبعث منه رائحة كريهة كرائحة الكبريت. في منطقة السكك المجاورة توجد عربات قطار البضاعة منفصلة؛ والضوضاء كضربات السيف المعقوف. راحت تفكر، ليس تفكيرا تاما، دون تعمد ودون غرض، في أن الرجل ذا القبعة في ملابسه هذه سوف يرجع حالا، إن مثله ليس من يمشي هنا، فهذا الممر لا يستخدمه إلا الأولاد والمتشردون.



قطعة الحديد مدببة جيدا ولكن ينقصها مقبض، فهي كقطعة الجليد

إنها لو أرادت أن تستخدمها فسوف تجرح نفسها، ومع ذلك ابتسمت وهي تفكر: «علىٰ الأقل سوف أجرحه، لو لمسني سيندم»

بدأت السماء تعتم، وقت الغروب أزف. المساء كئيب ومتجهم. لا يوجد الآن أي جمال في القنال. لم يكن في الأفق إلا الشمس تكاد تظهر كلهب في رماد.

الطريق الزراعي البسيط علىٰ بعد ربع كيلو للأمام، إنها تستطيع أن ترىٰ الجسر الخشبي، قلبها يخفق بشدة في صدرها، تتوق لأن تصل إلىٰ الجسر، لتعبر الجسر للطريق، ثم للأمان، إنه يمكنها أن تجري في منتصف الطريق لبيت ميلتزر الذي علىٰ بعد نصف كيلو.

أخيرا، أخذ الرجل ذو القبعة خطوته، لقد سمعت من خلفها فجأة صوتا يشبه تكسير الزجاج، سير أقدام علىٰ العشب الجاف. ارتعبت في الحال، لم تنظر خلفها، بل استمرت نحو الجسر، أخذت تمسك بالأعشاب الشوكية الطويلة لتساعدها علىٰ التماسك. إنها مذعورة جدا، مر علىٰ خاطرها بسرعة محاولتها لتتماسك بالأسوار أو الأسطح، فإخوتها يفعلون ذلك بسهولة بينما تفشل هي في ذلك، لقد سمعت الرجل من خلفها وهو يتكلم، كان يناديها. بدأت تقع، فالمستوىٰ منحدر جدا، التوت قدمها، سقطت تماما. الألم شديد، تلقت صدمة الوقوع علىٰ يدها اليمنىٰ، لكنها الآن مطروحة، لاحول



ولا قوة. في هذه اللحظة غامت الرؤية، ككسوف الشمس. بالطبع هي امرأة، وهذا الرجل ينشدها امرأة. يمكن أن يكون فوقها الآن.

«انتظري يا آنسة، معذرة، لن أؤذيك»

كانت ريبيكا تستند على مؤخرتها، وهي تلهث. اقترب منها الرجل ذو القبعة، بأسلوب متألم، وبحرص كما لو أنه يدنو من كلب متزمجر.

«لا، لا تقترب مني، ابتعد»

تحسست ريبيكا قطعة الحديد في جيبها، ولكن يدها كانت تنزف، مخدرة، فلم تستطع أن تضعها في جيبها.

لما رأى الرجل ذو القبعة تعبيرات وجه ريبيكا تسمر في مكانه. فخلع نظارته الملونة وهو قلق لينظر إليها.

هناك شيء غريب في الرجل ستظل تذكره ريبيكا أبدا. عيونه المجردة الغريبة والحريصة والمتلهفة تبدو وكأنها بلا رموش. وهناك شيء ما في عينه اليمنى يبدو تالفا كسلك كهربي محترق في لمبة كهربية. بياض العينين يبدو شاحبا كالعاج القديم. إنه رجل صغير كبير، له تصرف صبياني على وجه مجعد، وسيم واهن، ومع ذلك هناك شيء تافه فيه، إنه لا قيمة له. رأت ريبيكا أن مثل هذا الرجل لا يمثل لها خطرا ما لم يكن معه سلاح، ولو أن معه سلاحا لأظهره.

لكم غمرتها الطمأنينة، فلكم هي غبية في سوء تقييمها لهذا الغريب، راح يقول بارتباك:



«أرجوك سامحيني، لم أقصد أن أخيفك، فعلا، هذا آخر شيء ممكن أقصده، هل أنت تتألمين يا عزيزتي؟».

عزيزتي! شعرت ريبيكا بشيء من التهكم.

- لا، لا أتألم.
- هل يمكنني المساعدة، أعتقد أن قدمك التوت.

ماذا لو أن شخصا ما رآها متكومة هكذا. لقد كرهت الوضع، الطريقة التي يحدق فيها الرجل الغريب بعيونه الشاذة التي لا رموش لها.

قال فجأة وهو لا يزال أسيفا: «هل أنت هازل، أليس كذلك؟ هازل جونز؟»

حدقت ريبيكا في الرجل وهي لا تعرف ماذا سمعت.

- هل أنت هازل جونز؟ ألست أنت؟
- هازل؟ من؟
- هازل جونز.
- لا.
- لكنك تشبهينها تماما، أكيد أنت هازل.
- قلت لا، أيا كانت هي، فلست أنا.

ابتسم الرجل ذو القبعة بارتباك، فقد كان منفعلا مثل ريبيكا، وأخذ يتصبب عرقا، لقد تكرمشت البيبونة المربعات، وابتل قميصه



الكم، مبينا طابعا لملابسه الداخلية غير جذاب. أسنانه هذه الممتازة من المؤكد أنها طقم:

«عزيزتي، إنك تشبهينها كل الشبه، هازل جونز، لا يمكن أصدق أنه من الممكن أن تكون شابتان، جميلتين جدا، متشابهتين تماما، ويسكنان في نفس المنطقة»

رجعت ريبيكا للممر وهي تعرج، وتلمست قدمها لترى إذا كانت تستطيع أن تمشي عليها أو تجري، كان وجهها محمرا من الخجل، أخذت تنظف ملابسها من القاذورات الهشة التي علقت بها والنباتات الشوكية، لكم كانت منزعجة! والرجل ذو القبعة القش لا زال يحدق فيها، إنه مقتنع بأنها شخص غيرها. لقد خلع القبعة القش، وأخذ يقلبها في يده بتوتر. شعره أصفر أشيب مجعد كأنه شعر مانيكان، مصمم بهذا الوضع، لا يتأثر بالقبعة.

- يجب أن أذهب يا سيدي، فلا تتبعني.
- أوه، ولكن، انتظري يا هازل.

وبدا الرجل الغريب كمن يعاتب بفطنة، كأنه يعرف، وأنها تعرف أنها تخدعه ولم يفهم لماذا. لقد اتضح أنه رجل حسن النوايا، ومحترم، وليس معتادا على المعاملة الوقحة، لا يفهم لماذا هذه المعاملة، فراح يقول بلطف وبإصرار جنوني:

«عيونك تشبه عيون هازل، وأعتقد أن شعرك أغمق قليلا، ونفس طريقة المشي وإن كنت أقسى قليلا» وأردف بسرعة:



«أنا أستحق اللوم، لقد أخفتك، ولكني لم أعرف كيف أقترب منك، يا عزيزتي. رأيتك أمس في الشارع، أقصد أني اعتقدت أنك أنت التي رأيتها، هازل جونز، بعد السنين الطويلة، والآن. يجب أن أتبعك»

راحت ريبيكا تحدق فيه بإمعان، فقد بدا لها أن هذا الرجل الجاد يقول الحقيقة، الحقيقة كما يراها. لقد انخدع، ولكن لا يظهر أنه مخبول. فهو يتكلم بهدوء معقول، ومبرراته، باعتبار الظروف، منطقية.

«إنه يعتقد أني هي، وأنني أكذب»

ضحكت ريبيكا، إنه أمر غير متوقع، أمر غريب.

- سيدي، آسفة، أنا لست هي.
- لكن...

اقترب منها ببطء، رغم أنها طلبت منه وحذرته أن يبقى بعيدا، يبدو أنه لا يدرى ماذا يفعل، ولا ريبيكا أيضا على وعي، إنه يبدو غير مؤذ. شمت ريبيكا رائحة كولونيا أو لسيون بعد الحلاقة، بما أنه رجل صغير كبير، فهو ضعيف قوى أيضا، الرجل الذي أخطأت في تقييمه بأنه ضعيف، إنه في الحقيقة قوي، له إرادة كالأفعى نحاسية الرأس الملفوفة الصغيرة. فقد تعتقدين أن الأفعى مشلولة من الرعب والترقب بأنها ستقتل، ولكن ليس الأمر كذلك، فهي تكمن حتى تحين الفرصة المناسبة، تعد نفسها للانقضاض.

من زمن طويل ووالد ريبيكا جاكوب شاورت حفار القبور رجل ضعيف قوي، وأسرته فقط تعرف قوته الفظيعة، وإرادته التي كإرادة



الزواحف تحت مظهره الخنوع، لقد استشعرت ريبيكا ازدواجية مشابهة هنا، في ذلك الرجل. فهو رجل سريع الاعتذار ولكن ليس ذليلا. ليس في روحه نزعة المهانة. يقدر نفسه، بشكل واضح. كان يعرف هازل جونز، واتبع هازل جونز، ولن يتنازل عن هازل جونز بسهولة.

راح يتكلم بشكل حزين، وبتملق:

«لا أدري لماذا تتنكرين لي، يا هازل، ماذا جعلك تنفرين مني، أنا ابن الدكتور هندريكس، أكيد تعرفينني»

فضحكت ريبيكا، لا تعرف أحدا باسم هندريكس، ومع ذلك قالت له وكأنها تستدرجه:

- ابن الدكتور هندركس؟
- أبي مات في نوفمبر الماضي، وعمره أربعة وثمانين عاما.
- آسفة لذلك، ولكن...
- أنا بيرون، أكيد تتذكرينني.
- للأسف لا، لقد قلت لك ذلك من قبل.
- إنك كنت بالكاد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة! فتاة صغيرة، وكنت قد تخرجت لتوي من كلية الطب. كنت تنظرين لي كرجل كبير، الهوة بيننا فرقتنا. الآن ليست الهوة عميقة، أليس كذلك؟ من المؤكد كنت تتساءلين عنا يا هازل. أنا حاليا دكتور،



مشيت علىٰ خطىٰ أبي، ولكن في بورت أورسيكاني، ليس في فالي. أعود لتشاتاقوا مرتين في السنة لأرىٰ أقاربي، ولأرعىٰ ممتلكات العائلة، ولأعتني بمقبرة أبي.

وقفت ريبيكا صامتة، وبسرعة استطرد بيرون هندريكس

- لو أنك تشعرين بأنك لاقيت معاملة سيئة، يا هازل، أنت أو أمك...
- لقد قلت لك لا! حتىٰ أني لست من تشاتاقوا، زوجي أحضرني هنا لنعيش هنا، أنا متزوجة.

تنهد بيرون هندركس: «متزوجة!» وكأنه لم يعمل حسابا لهذا فقال: «لم ينسك أبي أبدا. أعتقد أنه فات الأوان بالنسبة لأمك المسكينة، ولكن... خذي كارتي علىٰ الأقل يا عزيزتي، إذا رغبت أن تتصلي بي»

أعطاها كارت أبيض صغير، حروفه السوداء المطبوعة بأناقة تبدو وكأنها إنذار من نوع ما، به العنوان والتليفون.

فقالت بغضب: «ولماذا أتصل بك»

ضحكت ريبيكا، وقطعت الكارت وألقت به علىٰ الممر. فحدق فيها هندريكس باستغراب. وارتعشت عينه التي بلا رموش والمصابة بقصر النظر.

استدارت ريبيكا، وسارت بعيدا، ربما كان خطأ أن تعطىٰ ظهرها لهذا الرجل. كان يناديها:



«أنا آسف جدا إذا كنت أسأت لك، فأكيد لديك مبرر يا عزيزتي لهذه القسوة. هل ستتصلين بي في يوم ما يا عزيزتي؟ في بورت أوريسكاني؟ أو تأتين لرؤيتي؟ وتخبرينني أنك سامحتنا، وتقبلين ما تركه لك الدكتور هندريكس، إنه ميراثك».

صعدت ريبيكا في هذه اللحظة الجسر للطريق. إنها تعرفه جيدا؛ ممر منحدر ضيق وقذر.

«وصيته! ميراث!»

إنها كذبة، اضطر أن يقولها، مجرد حيلة، فهي لم تصدق كلمة واحدة منها، غالبا تمنت ريبيكا لو أن هندريكس لمسها، لكانت أحبت أن تطعنه بقطعة الحديد الصلب، أو حاولت.



«ماما»

اندفع نحوها الطفل بمجرد أن دخلت مطبخ مليزر، وهي تضم ساقيها، إن جسمه الصغير وهو يعدو مفعم بالطاقة والإثارة، عيونه كعيون الحيوان المتوحش، لامعة ومتقدة. انحنت ريبيكا لتحضنه وهي تضحك، مع أنها لا زالت ترتعش، إن بكاءه مزق قلبها، لقد شعرت بالذنب لأنها بعيدة عنه:

«نيلي، لم تعتقد أن أمك ستعود، أليس كذلك، إنني دائما أتأخر».

إن ارتياحه عند وصولها غير معقول ومؤلم. لقد فكرت أنه يريد أن يعاقبها، ويبدو أيضا أنه يريد أن يعاقبها علىٰ غياب تجنور. يا للهول! إنها تشعر بالظلم، يجب أن تعاقب مرتين، مرة من ابنها وأخرىٰ من أبيه.

«نيلي، أنت تعرف أن ماما لازم تشتغل، ألا تعلم ذلك»

هز نيلي رأسه متعنتا: «لا»

فقبلت ريبيكا وجهه المحموم.

والآن عليها أن تتحمل ما أخبرتها به إدنا ميلزر أن نيلي كان قلقا طوال اليوم يريد أن يستمع للراديو ويتنقل من شباك لشباك بمجرد أن انزوت الشمس خلف الشجر، منتظرا لماما.

«هو لا يحب النهار عندما يقصر، الغروب يحل سريعا، لا أدري كيف سيكون هذا الشتاء» السيدة ميلزر تتململ مقضبة الجبين، كان بينها وبين ريبيكا جو من التوتر الصامت، كزنة التليفون.



«أوه، هذا الطفل يمكن أن يخرج فجأة للطريق لو لم أرقبه كل دقيقة» ثم ضحكت «كاد يزحف للخارج لمقابلتك كالعاشق الصغير الولهان»

عاشق صغير ولهان! إن ريبيكا لا تحب هذا الكلام المنمق.

دست وجهها في صدر طفلها الدافئ وحضنته بشدة. قلبها يخفق بعد أن ارتاحت من أنه لم يحدث لها شيء في الممر، وأن لا أحد عرف بما حدث.

تساءلت إذا كان نيلي ولدا حسن السلوك أم سيء، فإذا كان سيئا فسوف ينقض عليه عنكبوت ضخم، فأخذ يصيح ضاحكا وهي تدغدغ جانبيه لتخفف من قبضته علىٰ ساقيها.

ظلت إدنا ميلزر تراقبهما: «أنت في حالة جيدة الليلة يا ريبيكا»

السيدة ميلزر بدينة، جسمها متماسك، وصدرها يتماوج، ووجهها حلو. كان سلوكها قويما، وأموميا، توجه اتهاماتها برقة.

«ألا يجب أن أكون في حالة جيدة؟ إنني لازلت أعيش، لن أكون في هذا المكان الكريه حتىٰ الغد، هو ذا السبب»

شمت ريبيكا رائحة العرق بوضوح، كان جلدها شاحبا منديٰ بالعرق، ساخنا جدا. كانت عيونها محمرة جدا. لقد ابتعدت خجلا من السيدة ميلزر التي تلاحظها عن قرب. كانت المرأة الأكبر سنا تتساءل إذا كانت ريبيكا سكرانة أم لا. هل شربت شيئا سريعا مع زملائها في العمل قبل مجيئها للبيت؟ إنها تبدو منفعلة، وشاردة الذهن، وضحكتها مدوية.



«ها! ماذا حدث يا حلوتي، هل وقعت؟»

قبل أن تستطيع ريبيكا أن تنسحب بعيدا أمسكت ميلزر بيدها اليمنىٰ ورفعتها للضوء. إن حافتها مسحوجة ومحمرة وعليها بعض القاذورات، والدم ينقط ببطء قطرات تلمع كاللؤلؤ. هناك جروح أبسط في أصابعها، لا يقطر منها دم تقريبا، بسبب قطعة الحديد التي ضغطت عليها في جيبها.

سحبت ريبيكا يدها من قبضة المرأة الكبيرة، وغمغمت أنه لا شيء، إنها لا تدرىٰ ما هذا، لا، إنها لم تقع، ربما حكت يدها في الأفرول إلا أن ميلزر قاطعتها: «من الأفضل أن تغسليها يا حلوتي، لكي لا تصابي بالتيتانوس»

جعجع نيلي ليعرف ما التيتانوس. فأخبرته ميلزر بأنه شيء خطير يصيبك لو انجرحت ولم تغسل مكان الجرح جيدا بصابون قوي.

غسلت ريبيكا يديها في حوض المطبخ تحت إصرار السيدة ميلتزر. اشتاطت غضبا لأنها تكره أن يخبرها أحد بما تفعل. وفي وجود نيلي! راحت تغسل يديها كالطفل بقطعة صابون رمادي محبب، صابون عمالي مفيد لإزالة القاذورات العالقة في الجلد مهما كانت. كانت إدنا مليزر متزوجة من هووي ميلتزر، صاحب بنزينة إسو.

والد ريبيكا يستخدم نفس الصابون لينظف به نفسه من تراب المقابر. إلا أنك لا تستطيع أن تنظف نفسك كلية من تراب المقابر.



كان نيلي يصرخ بانفعال: «تيتانوس، تيتانوس!» واندفع لجوار ريبيكا ليغسل يديه أيضا. إنه كان في مرحلة عمرية يتأثر بالكلمات الجديدة كأنها ريش طائر بهيج يحوم حول رأسه.

أصبح زجاج النافذة التي أعلىٰ حوض المطبخ قاتما، وفيه يمكن لريبيكا أن ترىٰ ميلزر وهي تلاحظها. كان تجنور يكره أسرة ميلزر لا لشيء إلا أنهم كانوا ودودين مع زوجته، في غيابه. وكانت ريبيكا نفسها غير متأكدة إذا كانت معجبة بإدنا ميلزر، تلك المرأة التي في عمر أم ريبيكا لو أنها لم تمت صغيرة، أو أنها في الحقيقة تمقتها. فهي دائما ورعة، وتتعامل بأمومة فدائما تخبر ريبيكا عما تفعله الأم الصغيرة التي ليس لها خبرة.

لقد أنجبت السيدة ميلزر خمسة أبناء، خمسة أبناء من هذا الجسم مدكوك اللحم. لقد أضنىٰ التفكير ريبيكا، فكل أبناء ميلزر كبروا وتركوها، تعجبت ريبيكا كيف تحتمل ميلتزر كل هذا، تنجب أطفالا تحبهم برقة وبشدة، وتتحمل الكثير عنهم، وبعد ذلك تتركهم للزمن، إنه كمن يحدق في الشمس، فتعمىٰ العيون. لذلك لا تستوعب ريبيكا وقت أن يكبر نيلي ويتركها، طفلها هذا الصغير الذي يهيم بها ويتعلق بها.

- ماما، أحبك يا ماما.
- وأنا أحبك أيضا يا حبيب قلبي.

راحت السيدة ميلتزر تقول وهي تضحك: «هكذا كان طوال اليوم، يا ريبيكا، لم يسترح لغفوة، لم يأكل شيئا تقريبا، كنا في الجنينة



وكل ما أراده هو الراديو علىٰ درابزين الفراندا يرفع من صوته ليستطيع أن يسمعه.

«كان الطفل يعتقد أن صوتا ما من أصوات المذيعين هو صوت أبيه، فأصواتهم تشبه صوت تجنور».

لكم شرحت له ريبيكا أن هذا غير صحيح، ولكن لنيلي أفكاره الخاصة. فقالت ريبيكا: «آسفة» وشعرت بالحرج، لقد كانت مرتبكة ولم تفكر ماذا تقول، فردت ميلزر بسرعة: «لا عليك، فهكذا الأطفال، هذه الأشياء التي يعتقدون فيها، لايفعلون ذلك بجدية، مثلنا بالضبط»

سألت ريبيكا بشكل عابر وهي تستعد لتأخذ نيلي للبيت، عما إذا كانت ميلتزر سمعت عن واحدة تدعىٰ هازل جونز:

«واحدة تسكن هنا؟ هل هي كذلك؟»

«أعتقد أنها تسكن في شلالات تشاتاقوا»

معقول هذا؟ الرجل ذو القبعة القش قال إن هازل جونز كانت تسكن في تشاتاقوا في يوم من الأيام.

«لماذا تسألين؟ من هي؟»

«أوه، شخص ما سألني إذا كان هذا هو اسمي»

هذا أيضا غير دقيق، فالرجل الذي هو ابن الدكتور هندريكس سأل إذا كانت ريبيكا هي هازل جونز. وهناك فرق.

«سألك إذا كان هذا اسمك؟ لماذا أي شخص يسأل هذا السؤال؟»



ولوت ميلزر وجهها البدين العريض وضحكت.

كان هذا هو الرد على أي شيء غير عادي محليا؛ ضحكة تهكمية.

اندفع نيلي مسرعا للخارج، صافعا خلفه الباب الشبكي، كانت ريبيكا ستتبعه لولا أن ميلتزر لمستها في ذراعها لتتكلم معها بصوت منخفض. شعرت السيدة الصغيرة بوخزة اشمئزاز لهذه اللمسة، ولهذا الود المفروض بينهما: «هل تتوقعين أن يأتي تجنور قريبا ياريبيكا؟ لقد طالت غيبته؟»

فشعرت ريبيكا بحرارة في وجهها: «فعلا؟»

فاستطردت ميلتزر: «أعتقد ذلك، أسابيع، والطفل... »

فقالت ريبيكا بطريقتها المشرقة المبتهجة، لتكسر هذه الألفة: «زوجي يا إدنا رجل أعمال، يسافر كثيرا، فهو على سفر، إنه صاحب عقارات»

دفعت ريبيكا الباب الشبكي بتهور، وجعلته يعود مكانه. كان نيلي يجري فوق العشب وهو يطوح ذراعيه ويصرخ بانفعال طفولي. لكم يتمتع بصحته هذا الولد الصغير، وكأنه حيوان صغير رابط الجأش! لكم تكره ريبيكا هذه المرأة وهي تتكلم معها، وهي أم طفل، بمثل هذه النبرة. من داخل المطبخ كانت مليزر تقول بصوتها المريض، المثير، والمحرض: «دائما يسأل نيلي عن بابا، ولا أدري ماذا أقول له» فردت ريبيكا ببرود: «هذا صحيح يا إدنا، لا تعرفين».



في العودة للمسكن، وهو بيت ريفي من طابقين، أجره تجنور في آخر زقاق من طريق المزرعة البسيط، طبعت ريبيكا كلمة تيتانوس الجديدة بالنسبة لنيلي بالحروف.

من قبل حتىٰ أن تخلع ملابسها المبللة بالعرق وتغسل القاذورات التي من أنابيب نياجرا من جسمها ومن شعرها الملبد، كشفت عن الكلمة في المعجم، معجم وبستر قديم وغير نظيف، من أيام أن كانت ساكنة في ميلبرن وكانت تذهب لمدرسة للقواعد وكسبته في مسابقة للاستهجاء، نظمتها مدرسة محلية. أعجب نيلي بالكلمة التي علىٰ صدر المعجم من الداخل:

«مسابقة ميلبرن للاستهجاء»

١٩٤٩

ريبيكا إيشتر شوارت.

فهي في تلك الفترة وفي ذلك المكان كانت لا تزال تنتمىٰ لأبويها، تحمل اسم أبيها الذي أخذه في العالم الجديد؛ شوارت.

(لم تشأ ريبيكا أن تصحح كلمة إيشتر لإثير حتىٰ لا تشوه الكلمة التي في صدارة المعجم)

منذ أن بلغ نيلي عامين بدأت ريبيكا تكشف عن الكلمات في المعجم وتستهجاها له. هي نفسها لم يشجعها أحد للاستهجاء أو القراءة، أو حتىٰ للتفكير حتىٰ كبرت، ولكنها لا تنوي أن تحاكي والديها في تربية ابنها. أولا كتبت الكلمة علىٰ ورقة قوية، وحاول نيلي أن يقلدها. يمسك بالقلم الألوان بين أصابعه الطفولية القصيرة



البدينة، ويحركه بقوة وتركيز شديد علىٰ الورقة. لكم تتأثر ريبيكا جدا بشعوره العميق بتعذيب النفس عندما تصبح الكلمة التي كتبها بمشقة لا تضاهىٰ كلمة أمه، ونيلي يشعر بتعذيب النفس لأحداث بسيطة كثيرة؛ دلق الطعام، بل سريره، كان أحيانا ينفعل باكيا، وأحيانا يغضب بشدة، فيرفس ويولول ويضرب بقبضة يده الصغيرة في أمه، وأحيانا يلطم وجهه.

تروح ريبيكا في تلك الأحيان باحتضانه، وتضمه بشدة.

لقد أحبته بعاطفة جياشة، كما أحبت أباه. ومع ذلك كانت تخاف عليه، فقد اكتسب بعضا من انفعال أبيه. لكنه كان تواقا للتعليم، مختلفا عن تجنور. لقد أدهشها من عدة شهور مضت عندما أبدىٰ إعجابه بحروف الهجاء، والطريقة التي تتكون بها الكلمات، وكيف أنها تدل علىٰ أشياء معينة.

لم تنل من التعليم إلا قسطا بسيطا، لم تذهب لمدرسة ثانوية أبدا، فلم تكن حياتها تسير سيرا طبيعيا. أحيانا تشعر بالكسوف، حينما تفكر في الأشياء التي لا تعرفها، وعدم استطاعتها للمعرفة، وحتىٰ عدم إدراكها لعدم المعرفة، فمدىٰ جهلها أكبر من تخيلها. لقد رأت نفسها في مستنقع، تغوص في أرض رملية حتىٰ رسغها، بل ركبتيها.

تأكدي أن هذه التربة حقيرة، جهل! غباء! وحشية! لخبطة! وفوق كل هذا جنون.

ارتعدت ريبيكا وهي تتذكر صوته، نزق مرير

«ماما، انظري»



كتب نيلي ببطء موجع كلمة تيتانوس علىٰ ورقة، وحملق فيها بقلق. إنه لا يشبه أباه، ولا يشبه بالتأكيد والد ريبيكا، فشعره بني صاف، وأيضا بشرته صافية، حساسة للطفح الجلدي، ملامحه صغيرة إلىٰ حد ما، نحيل، عيونه كعيون ريبيكا، عميقة وحادة.

كالعادة حروف نيلي مائلة وكأنه يبتعد هاربا من الصفحة وآخر حروف في الكلمة متكومة علىٰ بعضها البعض، فضحكت ريبيكا، فنيلي ظريف، فقد ذكرتها طفولته بالقرد الصغير؛ مكرمش الوجه، والانفعالي.

الابتعاد في الصفحات يدل علىٰ نوبة انفعالية، مع ذلك أخذت ريبيكا الورقة بعيدا، وجاءت بأخرىٰ.

«وهو كذلك يا حبيب قلبي، هيا نجرب معا مرة أخرىٰ كلمة تيتانوس»

التقط نيلي القلم الرصاص الأحمر، هذه المرة سيتحسن.

تعهدت ريبيكا ألا تقوم بأي خطأ مع ابنها في هذه المرحلة من عمره. فهو لا يزال طفلا، لم يدخل المرسة بعد. مرحلة أن يكون الطفل في رعاية والديه فقط. لذلك كشفت ريبيكا عن الكلمات في المعجم، ولديها كتب الثانوية أيضا، لتضع الأمور في نصابها. تضع الأمور في نصابها قدر ما تستطيع ضمن أشياء كثيرة لا تستطيعها.

جاء الصوت في أذن ريبيكا أجش ومستعجلا: «يا الله، احترسي»

أفاقت من شرودها، وهي تضحك بتوتر، فيدها اليمنىٰ الضخمة في القفاز، زحفت علىٰ نحو خطير قرب آلة الترقيم، شكرت من



حذرها، احمر وجهها من الخجل والامتعاض، يا للعنة! لقد تكرر هذا الأمر منذ الصباح؛ تفكيرها يشرد وتفقد تركيزها، تتعرض للمخاطر وكأنها بدأت العمل توا ولم يكن لديها أي معرفة عن الأخطار.

جعجعة الآلات، والهواء الساكن، رائحة الحرارة المنبعثة من الكاوتش المحروق، العرق المشرب في ملابس العمل التي عليها، كل ذلك مع الضوضاء صوت يلح لم تستطع فك شفرته، هل هو أمل، أم إغواء، أم زيف... هازل جونز هازل جونز هازل جونز.

مر كبير العمال، لا ليكلم ريبيكا، بل لتراه، تحس بوجوده. لقد رأته هذا المنحل. لا أحد في أنابيب نياجرا يعرف الكثير عن ريبيكا، حتىٰ ريتا صديقتها، ربما يعرفون أنها متزوجة، وربما يعرف بعضهم زوجها؛ فاسم نيلز تجنور معروف في كثير من الأحياء في شلالات تشاتاقوا، كل ما يعرفونه عنها أنها انطوائية، لها سلوك عنيد، وكرامة معينة صعبة المراس، وأنها لا تقبل أي تفاهة من أحد.

حتىٰ لما كانت تتعب لدرجة الدوار، ولا تقوىٰ علىٰ الوقوف علىٰ قدميها، وفي حاجة للتواليت لترش بعض الماء الفاتر علىٰ وجهها. لم تكن العاملات القليلات في أنابيب نياجرا هن من يشعرن بالدوار ولكن الرجال أيضا، يتمرسون العمل من سنين عديدة علىٰ خط الانتاج.

في الأسبوع الأول الذي اشتغلت فيه داخت ريبيكا من الرائحة وسرعة الحركة والضوضاء، ضوضاء، ضوضاء، ضوضاء... في هذا المعدل الصوتي، ليست الضوضاء مجرد صوت، بل شيء فيزيائي، في الحشا، كتيار كهربي يسرىٰ في جسدك، تخيفك، وتلفك بشدة، وأكثر



شدة، قلبك يخفق بسرعة ليواكب الحركة، عقلك يتقدم ولكن للا مكان، لا يمكن أن تجمع أفكارك، تنسل الأفكار كالخرز من الخيط.

بدت مرعوبة، أوشكت أن تجن، مخها يتفتت لقطع صغيرة، تضطر لتزعق ليسمعوها، تزعق في أذن الناس، والناس يزعقون في أذنها. لا توجد شخصيات مميزة هنا، ولا مهارات بارزة في النفوس، فنفس الطفل الرقيقة، كنيلي، تتحطم هنا، في الآلات، في جحيم المصنع توجد حياة بدائية غريبة تضاهى الحياة الطبيعية الأولية، والقلب الحي، والمخ الحي، تسحقهما الحياة الزائفة، فللآلات إيقاعها، دقات، دقات، دقات، يختلط ضجيجها مع ضجيج الآلات الأخرى، وتمحو كل الأصوات الطبيعية، ليس للآلات كلمات ولكن ضوضاء فقط، هذه الضوضاء غامرة، فهناك فوضى بداخلها، رغم رتابة الآلات، نظام زائف، إيقاع، هناك محاكاة للخفقان الطبيعي، بعض هذه الماكينات الأكثر تعقيدا، تضاهى الفكر البشرى الفظ.

ريبيكا تخبر نفسها أنها لا تحتمل هذا، وفي لحظات الهدوء تقول لنفسها لا خيار لها.

تجنور وعد ريبيكا أنها لن تضطر للعمل، لأنها زوجته، فهو رجل له كبرياء، سرعان ما يشعر بالإهانة. لم يوافق على عمل زوجته في مصنع، ومع ذلك لم يعد قادرا على تلبية احتياجات البيت، فلم تجد أمامها أي اختيار.

منذ الصيف، وقد اعتادت ريبيكا ذلك. فهو عمل مؤقت، لغاية...



لقد نظر إليها بكل تأكيد! هازل جونز بدا أنه يعرفها، ليست ريبيكا التي في ملابس العمل الخشنة القذرة، ولكن بداخلها أخرىٰ، كان يعرف قلبها، هازل جونز، هازل هل أنت هازل جونز، أأنت هازل جونز أأنت؟ في ساعات الصباح هازل جونز تهدهدها، تغريها كما صوت يغمغم في أذن ريبيكا وبعد الظهر هازل جونز هازل جونز تصبح ضجيجا ساخرا.

«لا، لست أنا، اتركني لحال سبيلي».

عندما خلع نظارته الملونة الأنيقة، استطاعت أن ترىٰ عينيه، كم كان مخلصا، ومتضرعا، بدت القزحية المجروحة في إحدىٰ عينيه كأن شيئا ما منطفئ. ربما كانت عينه تلك عمياء، كان يبتسم، وهو متفائل.

«كما لو كنت شخصا مميزا، هازل جونز».

ليس لديها رغبة في أن تتحدث عن هازل جونز، وإن أرادت نوعا ما أن تفكر في الرجل ذي القبعة القش، لقد رغبت أن تصرخ في وجهه. لترىٰ مرة أخرىٰ صدمته، لما مزقت ككارت، هذا يدل علىٰ أنها تصرفت بشكل صحيح.

ولكن لماذا، لماذا مقتته؟

ينبغي عليها أن تعترف بأنه رجل متحضر، محترم، رجل متعلم، ومعه أموال، لا يشبه أيا ممن تعرف، أو عرفت طوال حياتها... وقام بتقديم التماس لها، طيب القلب، يريد أن يفعل خيرا.

«هل أنا هازل جونز، ربما»

- تذكرك، في وصيته.



- ميراث.
- افهم، لست أنا، الواحدة التي تعتقد أنني هي.
- أكيد تتذكرينني، ابن هندريكس.
- لقد قلت لك، لا.

اللعنة، لقد أخبرته، لا، لقد كانت صادقة من البداية، ولكن أصر وأصر كمن لديه ثلاثة أعوام يصر على شيء لا يوجد بأنه يوجد، استمر في الحديث معها وكأنه يسمع نعم... بينما تقول لا! كمن يرى ما بداخلها، يراها بشكل لا ترى به نفسها.

«لقد قلت لك، سيدي، أنا لست هي»

مرهقة جدا. بعد العصر متأخرا هو الوقت الأكثر عرضة للحوادث، حتى القدامى. لقد تراخيت في العمل، تعبت... الأمان أولا! لافتات لم يعد أحد ينظر إليها، فقد أصبحت مألوفة، قواعد للأمان للتذكير، إحداهن... ضعي عينك دائما على عملك.

عندما بدأت رؤية ريبيكا ترتعش خلال نظارة العمل، وبدأت ترى الأشياء وكأنها تحت الماء، كانت تلك إشارة تحذير؛ إنها تنام وهي واقفة، يا للعجب إن الكائن البشرى ينام كالحيوان، ماذا تعني الروح في الشخصية وأين تذهب عندما تنام؟ تجنور والد نيلي ينام بعمق، وأحيانا يأتي تنفسه في موجات غير منتظمة، تخشى أن يتوقف عن التنفس. أن قلبه الضخم يتوقف عن الخفقان، وبعدها، ماذا؟ لقد تزوجها مدنيا في شلالات نياجرا، كانت بنت سبعة عشرة في ذلك الحين. إن شهادة الزواج في مكان ما تائهة بين الأشياء.



«أنا مدام تجنور نيلز، الزواج كان حقيقيا»

هزت ريبيكا رأسها بسرعة، أين كانت...؟

أدخلت أصابعها خلف النظارات، لتمسح عينيها. ولكن عليها أن تخلع القفاز أولا. الأمر صعب للغاية! كان يراقبها من المدخل، كان يتحدث عنها مع أحد الرؤساء، إنها رأته بركن عينها؛ ما كانت لتحدق، فيشعرا بأنها تنتبه لهما. كان يرتدي ملابس بلون كريمي، والقبعة القش. كان للآخرين أن ينظروا لهما متسائلين. من الواضح أنه كان واحدا من الملاك، المستثمرين، ليس مديرا، ملابسه ليست لمكتب. مع ذلك كان دكتور، أيضا.

لماذا مزقت ريبيكا الكارت! الدناءة بداخلها، توارثتها من أبيها حفار القبور. لقد كانت خجلىٰ من نفسها، تفكر في كيف صدمته وجرحته.

مع ذلك، لم يحكم.

«اصحىٰ يا بنتي، من الأفضل أن تتيقظي»

مرة ثانية نامت ريبيكا. تقريبا شوهت يدها، يدها اليسرىٰ هذه المرة.

ابتسمت وهي تفكر بخبل، الأصابع في اليد اليسرىٰ لا تؤثر كثيرا. عرفت أن الرجل ذا القبعة القش لم يكن في المصنع. من المؤكد أنها رأت من ركن عينها المغبشة، مدير المصنع. رجل من نفس طول وعمر هؤلاء الذين يرتدون قميصا أبيضا بكم معظم الأيام. بدون ببيونة، وبدون قبعة قش بالتأكيد.



من المحتمل أن تراه مرة ثانية بعد العمل. عبر الشارع تحت «تندة» محل تصليح الأحذية. بسرعة ستستدير وتمشي دون أن تنظر خلفها

«ليس هناك. لا تجنور، ولا هو في تلك اللحظة»

أخذت تنظر عن قطع الكارت الخاص بهندريكس التي رمتها. وجدت على الممر بقايا صغيرة جدا من القصاصات. أيا كانت الكتابة فقد تشوهت، وراحت.

«هذا أفضل، لا أريد أن أعرف»

في ذلك الوقت، كانت مشمئزة من نفسها، فضغطت على القصاصات وكورتها وألقت بها في القناة حيث تتمايل وتطفو فوق الماء كبق الماء.

مر يوم الأحد ولم يتصل تجنور، ولكي تلهي طفلها القلق راحت تحكي له عن الرجل ذي القبعة القش:

- يا نيلي، هذا الرجل الغريب تبعني على طول القنال، خمن ماذا قال لي؟»

كان صوت ماما مبتهجا، نابضا بالحياة. لو أنك ستلونه بأقلام الألوان سيكون أصفر مشمس عريضا مشرب بالحمرة.

راح نيلي يستمع بشوق، لا يدري أيجب عليه أن يبتسم؛ فهل هذه القصة ستكون مرحة أم ستكون مزعجة.

- ماما، أي رجل؟



- أي رجل يا نيلي، رجل لا نعرفه: غريب، ولكن...
- غريب!
- غريب تعني رجلا لا نعرفه، فاهم؟ رجل لا نعرفه.

فأخذ نيلي يحملق في الغرفة بقلق. (مكانه في غرفة النوم ذات السقف المائل، ذلك الذي ينفتح علىٰ حجرتها) ينظر خلسة بسرعة ويحدق في النافذة، الدنيا ليل، النافذة الوحيدة تعكس الجزء الداخلي الخفي الضبابي فقط من الغرفة.

«إنه ليس هنا يا نيلي، لا تخف، لقد رحل، أنا أحكىٰ لك عن رجل طيب ولطيف، أعتقد أنه رجل ودود، أراد أن يكون صديقي، صديقنا، كانت معه رسالة لي»

لكن نيلي لم يزل قلقا، ينظر حوله. ولكي تشد انتباهه، تمسكه أمه من كتفيه الصغيرتين وتضمه لها.

بدا كالثعبان الصغير الملتوي. أرادت أن تهزه، أن تحتضنه بشدة، وتحميه.

- ماما؟ أين؟
- علىٰ الممر يا عزيزي، اثناء عودتي من العمل، وجئت لآخذك من بيت ميلتزر.
- اليوم يا ماما؟
- لا، ليس اليوم، من يومين.

الوقت متأخر في الليل، لم يذهب الطفل للنوم بعد، الساعة العاشرة ولم تفلح معه إلا في أنها جعلته يرتدي البيجاما بحيلة؛ تسحب



ملابسه وحذاءه وهو راقد بلا مقاومة. اليوم صعب، وكذلك شكت مليزر لريبيكا. في نقطة المفصل في جبين ابنها الرقيق وجدت ريبيكا عصبا ينبض.

قبلت العصب، واستأنفت قصتها، لقد كانت مرهقة جدا.

كان ابن الثلاثة أعوام نزقا لدرجة لا ينفع معها أن يستحم في الطشت الكبير، فراحت ماما تناضل لتحمّيه بالفوطة، ولكن بعد ذلك لم يكن كما ينبغي. لم يكن يريد أحدا يقرأ له. ليس سوىٰ الراديو يسليه، ذلك الراديو الملعون الذي ودت ريبيكا أن تلقىٰ به من الشباك.

- رجل لطيف جدا، يرتدي قبعة قش.
- ماما؟ ماذا يعني قبعة كش؟

ضحك نيلي وهو لا يصدق، وكذلك ضحكت ريبيكا.

لماذا بدأت في قص هذه الحكاية، لم تستطع أن تتخيل. أتؤثر في ابن الثلاثة أعوام؟ أخرجت من علبة الألوان قلم ألوان أسود لترسم شكلا لرجل فوقه رأس وبالقلم الأصفر رسمت قبعة، وكانت القبعة أوسع من رأس الرجل، وكانت عمودية، راح نيلي يقهقه ويركل بقدميه ويتلوىٰ من فرط السرور. أمسك بالقلم ليرسم شكل رجل عليه قبعة مائلة.

- أهذه القبعة لبابا؟
- بابا لا يرتدي قبعات يا عزيزي.
- لم لا، لماذا لا يرتدي أبي قبعة؟
- حسنا، نستطيع أن نشترىٰ قبعة لبابا، قبعة كش لبابا.



أخذا يضحكان معا، ويصممان قبعة كش لبابا. سلمت ريبيكا نفسها لتفاهات الأطفال، فهي تفترض أن الأشياء التي يتخيلها الأطفال غير مؤذية. هزت مدام ميلزر رأسها، لا تستطيعين أن تحددي إذا كانت ميلزر تهز رأسها لأنها مبسوطة أم منزعجة. ابتسمت ريبيكا وهزت رأسها أيضا. إنها قلقة لأن نيلي لا ينمو كسائر الأطفال. تعتقد أن عقله يشتغل كسير النقل الهزاز. كانت سعة انتباهه شديدة ولكن وجيزة. فلا تأمل أن يتابع سلسلة من الأفكار أو الحديث. فلا صبر لنيلي للاستماع للحكايات أكثر من ثوان معدودة، إلا إذا فرضت إرادتك علىٰ طفل، كما تفعل ريبيكا في حالات الغضب، وإلا جعلك الطفل تدور حول نفسك وتتخبط. دفقات من الأفكار المتقطعة، وشذرات من الكلمات المُساء فهمها، إنها تشعر في ذلك الوقت بأنها تغرق في عقلية طفل صغير وهمية الخيال، إنها مخلوق بالغ بسيط وقع في شباك عقلية طفل.

أرادت بشدة أن تكون أما، وها هي الآن أم.

أرادت بشدة أن تكون زوجة نيلز تجنور وها هي الآن زوجة نيلز تجنور.

هذه الحقائق الدامغة التي تحاول شرحها للرجل ذي القبعة القش، الذي وقف يحدق فيها بابتسامته البسيطة الأليمة. عيونه مصابة بقصر النظر، تستطيع أن ترىٰ غمامة القِصر عليها، كالغثاء فوق الماء، شعره الأصفر الأشيب مصفف بشكل غريب، خطوط الابتسامة محفورة علىٰ وجهه الصغير الكبير، لا زال طفوليا ومتفائلا رغم شحوبه، كان رجلا ودودا، محترما، يؤمن بأن المرأة الشابة المتسخة



بملابس المصنع تكذب عليه ومع ذلك لا يزال يناشدها، رجل علم وعقل.

- علىٰ الأقل خذي كارتي
- لو رغبت.

في دليل التليفونات لمنطقة تشاتاقوا الكبرىٰ راحت تبحث عن اسم جونز، كان هناك أحد عشر اسما كلها رجال، أو بحروف أولىٰ تعني رجل أو امرأة. ليس هناك أي اسم يدل علىٰ امرأة بالتحديد.

لم تفاجأ بهذا، فبيرون هندريك من المؤكد فعل ذلك عدة مرات. من المؤكد أنه اتصل بالكثير من هؤلاء في بحثه عن هازل جونز.

في إحدىٰ الليالي استيقظت ريبيكا، كما لو أن شيئا ما ضربها بشدة، ورأت أنها أمّا مهملة، أمّا سيئة. لقد خبأت سلاحها المؤقت، قطعة الحديد الصلب ذات السبع بوصات، في درج المكتب حيث يمكن لنيلي أن يبحث فيه ويعثر عليها، أخرجتها، وراحت تتفحصها، منظرها بشع وليست حادة بما فيه الكفاية. علىٰ أية حال يمكن أن تضرب بها للدفاع عن نفسها.

علىٰ أية حال، إنها مخطئة بشأن الرجل ذي القبعة القش. لم يكن في نيته أن يؤذيها، كل ما في الأمر خلط بينها وبين أخرىٰ. فلماذا تغضب هكذا، لا تدري. إن ريبيكا بدائية وضحلة في شكها.

برغم ذلك لم تتخلص من القطعة الحديد، بل لفتها في جاكت قديم ومهلهل ووضعتها في رف في دولابها، لا نيلي، ولا حتىٰ تجنور يمكن أن يعثر عليها.



بعد ليلتين اتصل تجنور

- آلو، من معي؟
- من تعتقدين يا فتاتي؟

كانت له القدرة علىٰ أن يجعلها عاجزة، غاصت في كرسي المطبخ، ضعفت فجأة، نوعا مم، سمع نيلي فجاء من الغرفة الأخرىٰ: «بابا، بابا»

قفز نيلي لحجر أمه الساخن، كالثعبان، يتقلقل ويكثر الحركة، حب نيلي لأبيه شديد جدا، ما زال يعرف أنه لا يجب أن يخطف التليفون كما يريد، لكي يتكلم، فهو يعرف أنه سيكلم أباه متىٰ سمح أبوه بذلك، وليس قبل ذلك.

تسترجع ريبيكا بعد ذلك أنه لم يكن لديها فكرة أن تجنور سيتصل في تلك الليلة، منذ أن وقعت في حب ذلك الرجل أصبحت تؤمن بالخرافات، تفترض أن هذا ضعف نتيجة الحب، حتىٰ العقل الشكاك يقع فريسة للنحس والتشاؤم. لكنها لم تتوقع أن تسمع صوت تجنور في الطرف الآخر، لم تكن مستعدة.

لقد أخبر تجنور ريبيكا أنه سيعود لها، وللولد في نهاية الأسبوع، لم يقل تجنور أبدا سأعود للبيت، ولكن... سأعود لك وللولد.

سألت ريبيكا أين تجنور، هل لا زال في بورت روش؟ ولكن تجنور تجاهل السؤال، فهو لا يجيب علىٰ الأسئلة الفجة، صوته في التليفون مفتعل الحماس والبهجة، وخاليا من المشاعر كأصوات المذيعين.



كان تجنور قادرا علىٰ المداعبة عندما يكون فقط في مكان مغلق. حيث يستطيع أن يلمسها، يدغدغها، ويعتصرها، فقط عندما يمارس معها الجنس تشعر ريبيكا بأنه معها، علىٰ الأقل جسديا.

أخبرها بأن هناك بعض المشاكل، ولكنها انتهت الآن.

«مشاكل؟ أي مشاكل؟»

لكن ريبيكا كانت تعرف أنه لن يجيب، هي مشاكل تخص العمل، مشاكسة مع منافس آخر، لم تسمع أبدا بأي مشكلة. لذلك من الأفضل لها أن تتماشىٰ مع نبرته.

عندما يكون تجنور مسافرا، تفرش ريبيكا خريطة لنيويورك، تحتفظ بها، لترُىٰ نيلي المكان الذي فيه أبوه، أو المكان الذي تظنه فيه. كانت تفزع الطفل عندما تخبره بأنها لا تعرف في كل الأحوال. لم يكن لدي الأم دائما معلومات كافية. لأن مقاطعة بابا واسعة، من شلالات تشاتاقوا حيث يعيشون في الحدود الغربية من الولاية مرورا بوسط الولاية لهيدسون فالي، وفي الشمال جبال أديروندداك وشرقا لبحيرة شامبلن حيث مدينة، حجم بورت روش بقدر البعرة أو كالنقطة علىٰ الخريطة، حتىٰ أنها أصغر من شلالات تشاتاقوا.

الآن ماذا قال لها تجنور؟ شيئا يضحكها؟

فهمت؛ يجب أن تضحك!

كان ذلك مهما جدا، في بداية علاقتها بنيل تجنور تعلمت كيف تضحك علىٰ نكاته، وأن تقول نكاتا هي شخصيا. فلا أحد يحب امرأة حزينة، علاوة علىٰ أن في الأماكن التي يتردد عليها تجنور بنات كثيرة



ونساء يتنافسن ليضحكن علىٰ نكاته. هناك كثيرات، قبل أن تعرف تجنور، وسيكون هناك الكثيرات، رغم أنها زوجته، هي فاهمة. أنا واحدة من هؤلاء، أنا مدينة له لكوني سعيدة.

«اهدأ يا نيلي، ابق حسن السلوك» قالت هذا همسا في أذن نيلي، الذي أصبح يتململ.

لكن تجنور كان يتكلم مع شخص آخر في الطرف الآخر من التليفون، يده علىٰ السماعة، لم تتبين الكلمات بوضوح. هل كان يجادل؟ أم أنه يشرح شيئا ما فقط؟

إن الكرسي غير مريح، ونيلي يتلوىٰ في حجرها، وقلبها يدق بقوة وألم. شعرها المتشابك، ملبد لأنه مغسول، مسترسل علىٰ ظهرها فبلل ملابسها.

تساءلت ماذا سيظن الرجل ذو القبعة القش عندما يراها؟ علىٰ الأقل سيدرك أنها أم وزوجة، فلن يخلط بينها وبين...

طلب تجنور أن يتكلم مع نيلي فأعطته السماعة:

«بابا، هالو بابا»

عاد وجه نيلي الصغير المطحون للحياة مرة أخرىٰ من فرط السعادة. فجأة صار الطفل مسرورا، ابتعدت ريبيكا وهي تترنح وتركته مع التليفون، لقد كانت تشعر بدوخة ومرهقة جدا، دخلت الحجرة الأخرىٰ وهي تتطوح، وجلست علىٰ الكنبة. كنبة لها سوست مكسورة، ومغطاة ببطانية غير نظيفة، يدوىٰ في أذنها ضجيج كأنابيب



نيـاجرا، كالشـلالات هنـاك في هـويس ميلـبرن، حـدقت فيهـا لـدقائق إعجاب طويلة كفتاة صغيرة.

لماذا لا تستطيع أن تعذر تجنور لإهماله لها، لماذا لا تستطيع أن تخبره بأنها تحبه رغم ذلك؟ إنها سامحته.

ليس مطلوبا منه أن يطلب منها السماح، فهي تعرف أنه لن يفعل ذلك أبدا، إلا إذا تقبل منها الغفران.

«اتصلت بي ثلاث مرات، وأرسلت لي خمسة وستين دولار حقيرة دون رسالة، ودون عنوان استدلال على المظروف، عليك اللعنة»

عليها أن تتقبل الطريقة التي يثرثر بها نيلي مع أبيه... إنه يحب أباه أكثر مني، إنه دائما هكذا...

رجعت ريبيكا للمطبخ، ودت أن تأخذ السماعة من نيلي، «نيلي قل لأبيك إني أريده قبل...» في اللحظة التي أعطى فيها نيلي السماعة لأمه قفل تجنور الخط.

لم تكن الموسيقى، لم تكن الموسيقى هي التي تزعجها، ولكن صوت المذيع، أصوات الراديو. الإعلانات، الإعلانات عالية الصوت سريعة الإيقاع ومرحة الأداء، ونيلي يجلس بقربه منحنيا يركز بتجهم. رأسه الصغير يتدلى، منتبها، ويجلس في وضع ليس كالأطفال. يستمع لصوت أبيه في الراديو! تشعر ريبيكا بالألم والغضب لأن طفلها يعيش في وهم، ومتناسيها.

«اغلق هذا يا نيلي»



لكن نيلي لم يسمع، لا يريد أن يسمع ماما.

«نيلي قلت لك اغلق هذا الشيء الملعون»

هكذا يخفض نيلي من الصوت مرغما، لكن لا يغلقه. لقد أخبرته أنه ليس بابا، لا، لا، بابا ليس في الراديو، ليس منهم، ليس أي صوت في الراديو.

هل صدق أمه؟ هل كان فعلا يستمع لأمه؟ ولماذا عليه أن يصدقها؟ وهي عاجزة مثله، ولا تعرف إذا كان أبوه سيعود لهما في هذا الوقت أم لا، مع ذلك كانت تجد السلوىٰ فيه، في موسيقىٰ الراديو.

كأنها تسمع بين بين في منامها. تبتسم حيث لفها جمال فائق في الحلم. هناك نيلي، ليس الولد نحيل الأطراف الذي لا ينمو بشكل طبيعي والذي تقلق عليه. لكنه غلام في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، غلام لم يعد طفلا سريع التأثر، وليس بالرجل المؤذي، غلام وجهه الضبابي وسيم. جلسته ممتازة، حيث كان جالسا أمام البيانو يعزف للجمهور العريض، لم تستطع ريبيكا أن ترىٰ للنهاية.

«سوف يفعل ذلك، فها هو الوعد»

وبدت ريبيكا أنها تفكر، فقد قطعت أمها الوعد. فقد جلسا يستمعان لموسيقىٰ الراديو معا في السر. لكم سيغضب بابا لو عرف، ولكن بابا لم يعرف.

لقد كانت آنا شوارت تلعب البيانو، وهي لا تزال فتاة صغيرة. كان ذلك من زمن بعيد في العالم القديم، قبل الانتقال.



ريبيكا مغمورة بالسعادة في الحلم. قد عرفت كم أن السعادة بسيطة، مثلما تفرد قماشا مكرمشا، تنديه بالماء ثم تكويه بعناية، بهذه البساطة.

«إنك أم يا ريبيكا، ويجب أن تعرفي ما المفروض أن يتم فعله»

مع ذلك لم يكن البيانو موسيقىٰ نيلي المفضلة، بل الموسيقىٰ الشعبية الحزينة والنواحة. وموسيقىٰ البوب الصاخبة التي تجعلك ترقصين. لا يهم كم تشعر بالحزن، ولكن لا بد أن تضحك ريبيكا وهي ترىٰ ابن الثلاث سنين يتأرجح برجليه القصيرتين البدينتين وكأنهما لحم بلا عظام. يطوح نيلي بذراعيه وهو في حالة إلهام، ويزعق، ويزغرد. ريبيكا تضع جانبا أي شيء كانت تفعله، وترقص معه، يده السمينة تمسك بيدها. تنتابها حالة من الهياج، إنها تحبه بجنون. لم يحبها تجنور أيام الحمل، فللجحيم تجنور، ها هي نتيجة الحمل، إنه ملكها.

حالة من الصخب والخبط في المنزل، وارتطام بقطع الأثاث باستهتار، ودق علىٰ كرسي، واصطدام بالأرجل، وكأنهما ثنائي في حالة سكر ونوبة مرح.

«إنك تحب ماما أكثر من أي شيء، أليس كذلك، أنت تحبها»

فجأة توقفت الموسيقىٰ...

صوت المذيعين، يا له من مزعج، يا الله! لقد أصبحت تكرهين هذه الأصوات كما تكرهين الناس الذين اعتدت أن تريهم دائما،



كالمدرسة، أو العمل. دائما نفس الأصوات الرجالي. تتغير تعبيرات نيلي، فهو الآن يستمع؛ صوت بابا؟

لكم حاولت ريبيكا أن تشرح، لكن أحيانا لا تثق في نفسها، فتمشي بعيدا.

فلترىٰ في ذلك دعابة، أيتها الفتاة، ولتمشي بعيدا، لا تلمسي الطفل، فالغضب بداخلك، دعيه يظل بداخلك.

أكثر ما يخيف ريبيكا، أنها ربما تؤذي نيلي. تهز الولد الشقي العنيد علىٰ نحو متكرر حتىٰ تصطك أسنانه، وتجحظ عيونه. فقد تم تأديبها هكذا وهي طفلة. تخيلت أنها أبوها الذي كان يؤدبها ولكنها في الحقيقة كانت أباها وأمها معا. كانت تريد أن تسترجع أن التأديب كان عدلا، وضروريا، ولكنها لم تكن متأكدة أنه كان كذلك.

ربما يعود تجنور يوم الأحد، لم تدر ريبيكا لماذا تفكر هكذا، هو فقط حدس، إلا أنه من الممكن أن يظهر تجنور عند بوابة المصنع يوم الجمعة بعد الظهر، أو الاثنين بعد الظهر، بسيارته البونتياك الخضراء الفضية موديل ١٩٥٩ مركونة علىٰ الرصيف.

«أهلا طفلتي، أنا هنا».

تقريبا سمعت ريبيكا صوته. فابتسمت، كما تبتسم دائما عند سماعه.

أهلا أيها السهارىٰ، إنه مذيع راديو بافاللو الرائع زاك زكريا يقدم لكم أروع موسيقىٰ الجاز في آخر الليل. كم من ليال كان نام فيها نيلي وهو يستمع لهذا البرنامج. مع ذلك لا تستطيع أن تدخل غرفته لتغلق



الراديو لأنه يستيقظ بسرعة، ولا حتىٰ تستطيع أن تدخل غرفته لتطفئ النور. فنيلي لو استيقظ في هذا الوقت سيستيقظ فزعا، وتضطر أن تظل بجانبه.

علىٰ الأقل في الليل كان يسمح نيلي بخفض صوت الراديو. فهو يستطيع أن ينام علىٰ مسافة عدة بوصات من الراديو ويجد فيه سلواه بغلق الباب الذي بين الغرفتين، لا تقلق ريبيكا علىٰ الأقل من النور.

«لما يرجع بابا، كل ذلك سيتوقف»

بجانب سرير نيلي لمبة علىٰ شكل زجاجة لبن في شكل أرنب من محل أثاث في شلالات تشاتاقوا. للأرنب أذن قائمة وأنف بمبي، وظلال خفيفة من لون خوخي علىٰ قماش أزغب، ريبيكا معجبة باللمبة. إن الوهج الدافئ الشاحب علىٰ وجه الطفل كان يواسي ريبيكا. قوة اللمبة ٦٠ وات، لا يجب أن تكون هناك إضاءة أكثر في غرفة طفل. تتساءل؛ هل اعتادت أمها أن تقف بجانبها وهي نائمة؟ تبتسم، ربما كانت تفعل ذلك.

الشيء الخطير في الأمومة: أنك تعيشين حياتك الطفولية مرة ثانية في عيون أمك.

مرت دقائق طويلة من الافتنان وكأنها ساعات، وهي في المدخل تتأمل نيلي وهو نائم. قلبها ينبض بالسعادة. تعرف الأم أن الطفل موجود، تعرف الأم أن الطفل موجود، لأنها كأم، أوجدته هكذا. صحيح هناك أب، ولكن ليس دائما. لكم تمنت لو أن نيلي أخذ بعضا من قوة أبيه. إنه يبدو بالنسبة لها طفل لهفة، ونزوة. زنبرك من الخبل



كان ملفوفا بإحكام في داخله، كزنبرك في لعبة تحدث قعقعة حولها. إلا أن نيلي أثناء نومه يصير ممتازا. روحه الملفوفة بإحكام هادئة، ودت أن تزيح بعض اللعاب المتلألئ علىٰ فمه كفكرة تائهة، ولكن رأت من الأفضل أن تتركه.

أرادت أن ترفع خصلة من الشعر الملبد لصقت علىٰ جبينه، ولكن رأت من الأفضل أن تتركها.

الابن السري لهازل جونز.

الراديو علىٰ حافة الشباك منخفض الصوت، صوت موسيقىٰ الجاز، وكان الراديو كاللمبة يبعث وهجا مريحا، أصبحت ريبيكا معتادة عليه، فلم تعد تتضايق منه، فصوت المذيع ليس كأصوات النهار. إنه زاك زكريا، هل هو زنجي؟ صوته لين ومنغم، من النوع الغنائي، أكثر مرحا، ومثير، إن صوته محبب للأذن.

بدأت ريبيكا تحب الموسيقىٰ. الموسيقىٰ جاز لطيفة بها مسحة حزن، وجذابة، استطاعت ريبيكا أن تميز بالطبع صوت البيانو، لكنها لم تعرف باقي الآلات، هل هي كلارينت، ساكسفون؟ إنها تكرهها لذلك تعرف عنها القليل.

يا للعار! امرأة جاهلة، عاملة مصنع، زوجة، وأم، حتىٰ أنها لم تتخرج من مدرسة ثانوية. لقد استمعت مرة واحدة لموسيقىٰ كلاسيك من راديو أبيها، مرة واحدة في فترة وجودها مع أمها، لم يعرف أبوها بها وإلا منعها.



هـذا الراديـو ملكـي أنـا، وهـذه الأخبـار، فأنـا الأب، فكـل المعلومات لي. كل معرفة بالعالم خارج هذا البيت الحزين فهي لـي لكي أبعدها عنكم، يا أطفالي.

لم يسأل تجنور عن والدي ريبيكا، فهو يعرف القليل، وربما آثر ألا يعرف أكثر.

اعتاد شقيق ريبيكا، هارشل، ولم يكن اسمه هكذا، أن يقول شوارت. ليس اسمنا، قال ذلك هارشل وكأنه يقول نكتة، وهو يكشف عن أسنانه التي تشبه أسنان حمار ينهق. تساءلت ريبيكا إذن ما هو اسمهم إذا لم يكن شوارت؟!

فهز هارشل كتفيه:

«من يعرف؟ ومن يهتم؟»

وقال هارشل «إن العالم القديم رديء، فلا أحد يهتم بهذا في أمريكا، أنا شخصيا لا أهتم»

ترجت ريبيكا أن تعرف اسمهم ما لم يكن شوارت، ولكن هارشل تركها وهو يعطي إيحاء وقحا، لو أن جاكوب شورات كان حيا لكان بلغ الثالثة والستين.

ثلاثة وستين! كبير، ولكن ليس للدرجة، مع ذلك يبدو كبيرا، فريبيكا تتذكر أن أباها كان دائما كبيرا ومهترئا، أزعجها التفكير في مثل هذه الأشياء، فهي نادرا ما تفكر في هذه الأشياء في حياتها الجديدة، هازل جونز لم تفكر في مثل هذه الأفكار.

فجأة راح نيلي يئن في نومه:



«ماما»

وكأنه يعرف أن ريبيكا لا زالت واقفه بجواره، بدا وجهه الناعم مكرمشا، وقبيحا وكأنه وجه لرجل كبير! بشرته لدنة شاحبة، جفونه ترتعد، وكذلك العصب الذي في جبينه. كأنما حلم خطأ نشب بأطرافه المدببة في عقله.

«نيلي»

انفرط قلبها وهي ترىٰ ابنها فريسة لحلم. غريزتها تحثها علىٰ إنقاذه من هذه الأحلام، في الحال، ولكن لا، من الأفضل أن تتركه هكذا. فلن تستطيع ماما أن تنقذه في كل وقت، فعليه أن يتعلم كيف ينقذ نفسه.

مر الحلم، وكان لا بد أن يمر، واسترخت أساريره في دقيقة واحدة، إنه طفل مرحلة جديدة: ولد عام ١٩٥٦. لا تستطيعين أن تقولي نيلي تجنور ما بعد الحرب. (حيث كل شيء ما بعد الحرب) لكنه ما بعد الحرب، فلا شيء في الماضي يمثل له شيئا كثيرا. فكما الحرب العالمية الأولىٰ كانت بالنسبة لجيل ريبيكا، فهكذا الحرب العالمية الثانية بالنسبة لنيلي تجنور. عالم قديم حقير كما قال هارشل.

لا شيء من شوارت يدوم في داخل من لم يعرفهم أبدا.

فهذا الخط قد انقرض، هذه السلالة الأوروبية القديمة العفنة انقطعت.

يظهر أن حلم نيلي قد انتهىٰ، فهو عاد لنومته الأولىٰ. يتنفس من فمه هواءً رطبا، واللمبة الأرنب تضيء بجواره. الراديو علىٰ حافة



الشباك يبعث موسيقىٰ جاز منسابة بصوت البيانو، ابتسمت ريبيكا وتركته. فهي أيضا تود أن تنام الآن، فنيلي نائم بخير فلا داعي لإيقاظه. لا يجب أن تُقبله، كما ودت أن تفعل. فهي متأكدة أنه يعرف أن أمه تحبه، دائما أمه بجواره، ترعاه، تحميه طوال حياته، لازم يعرف ذلك.

«ليس لي رب لأشهده، ولكني أتعهد»

يوم الأحد، بعد ثلاثة أيام. راحت تعد ريبيكا علىٰ أصابعها. تبتسم وهي تعتقد أن بابا نيلي سيعود لهما. لديها هاجس بذلك.



البنت الغجرية، اليهودية

كان صوت تجنور عبارة عن أنين ضعيف خافت، أنين منساب، لذيذ للسمع. جسمه مفتول العضلات يرتعش بالرغبة وكأن تيارا كهربائيا سرىٰ فيه.

تبتسم ريبيكا وهي تسترجع. ولكن الدم يتدفق حارا في وجهها. فهي ليست فتاة غجرية ولا يهودية!

والدم يتدفق حارا بين ساقيها، حيث كانت وحيدة.

«يا للعنة» إنها تعاني عند النوم. في سريرها هي وتجنور. طوال هذا اليوم، وتلك الأيام منذ ممر القناة، يا الله، أعصابها كانت مشدودة كالسلك.

بدأ الجو أخيرا يتغير. فالرياح الآتية من البحيرة العكرة المظلمة التي تبعد أربعين ميلا للشمال بدأت تضرب في نوافذ البيت الريفي القديم. ففي الصباح سيكون الجو الدافئ الذي يأتي في أواخر الخريف قد تولىٰ، وسيكون الهواء باردا قارسا ورطبا. ها هو طعم الشتاء يهل. الشتاء في منطقة تشاتاقوا، في سفوح الجبال.

ولكن لا، فهي لا تفكر في هذا، ليس في ما وراء هذه الأيام من مستقبل.

فأبواها توقفا تدريجيا عن التفكير في المستقبل.

في النهاية أصبحا كالحيوانات بلا مستقبل، وهذا ما حدث معك.



يئست من النوم! فأمامها ساعات قليلة لتستيقظ. لتعود لأنابيب نياجرا الفيبر.

ليس هذا النوم الخفيف الذي يؤثر على مخها المتألم ويجلب بعض الانتعاش الذي تريده، بل النوم الأعمق، الذي يبطئ ضربات قلبك تجاه الموت، النوم الذي يسلب منك أي إدراك بالوقت، والمكان، وبمن كنت أو تكون.

«أنا أريدك يا تجنور جواي، أريدك»

لقد دفعها أن تقول كلماته الخاصة. مارس معي، مارس معي، أوجعني...

كلما ترددت، وخجلت، وازدادت شعورا بالكسوف زاد حب تجنور لها. يمكنك أن ترى مدى سعادة الرجل لا حصر لها، يصب البيرة في الكاس، يصب، يصب حتى تفور الرغاوي وتفيض.

لقد صار حبها الوحيد، نيل تجنور. ماذا فعل لها، ماذا علمها أن تفعل له. إنه من المؤلم أن ترقد هنا في هذا السرير دون أن تفكر فيه، ألا تفكر في هذه الأشياء، إن خفقات قلبها تتسارع بالرغبة.

لا فائدة لهذه الرغبة، فحتى لو لمست نفسها فإنه ليس تجنور.

لم تعتد أن تنام في سرير كبير قبل تجنور. لم تشعر أنها تستحق سريرا كبيرا (ومع ذلك فكانت تفترض أنه سرير عادي. مستعمل، اشتراه في شلالات تشاتاقوا، له إطار نحاسي ملطخ، ومرتبة جديدة صلبة، صارت مبقعة من عرق تجنور الملحي.)



استدارت لتنام على ظهرها. في الغرفة المجاورة، تتقلب، الراديو لا زال مفتوحا، لا تستطيع أن تسمع الموسيقى لكن تشعر بالإيقاع. فردت ذراعيها، كل من إبطيها مبتل. شعرها الكثيف كعرف الحصان جف أخيرا وهفهف حول رأسها على المخدة بنفس الطريقة التي ينظمه تجنور بيده غير الرشيقة، وبوجهه المتوتر من فرط الرغبة الحسية.

«هذا ما تريده، بنت غجرية، إيه، أليس كذلك؟»

عرفت أن لديه امرأة أخرى. عرفت قبل أن تتزوجه من هو. ففي الفندق التي كانت تعمل فيه كانت هناك قصص عن نيلز تجنور. في منطقة تشاتاقوا، وغيرها. إنها فهمت أن أي امرأة من حريم تجنور لا تتوقع منه أن يكون مخلصا مثل باقي الرجال لنسائهم. ألم يقل تجنور لريبيكا بعد الزواج مباشرة، ليس بأسلوب وحشي ولكن بدهشة حقيقية تجعلها غيورة: «آه يا صغيرتي، إنهن يحبونني أيضا».

ضحكت ريبيكا وهي تتذكر ذلك. ووضعت مفاصل أصابعها في فمها.

ولكن هذا مضحك! إنك تحتاجين روح الدعابة لكي تعرفي قيمة نيلز تجنور. إنه يتوقع منك أن تجعليه يضحك.

الآن استلقت على ظهرها. أحيانا يفلح معها ذلك. بدأت عضلاتها ترتعش. هناك يدها التي راحت نحو آلة الترقيم... لقد سحبتها في الوقت المناسب.



في عالم آخر كان من الممكن أن يحدث أن يدها تنسحق كاللحمة. تنفصل عن ذراعها. وكانت تستحق ذلك، فالغبي لم يلحظ ماذا كانت تفعل.

كيف كان تجنور سيحدق فيها! راحت تضحك وهي تتخيل.

لقد كان يكره بطنها وهي حامل. كان ينظر بافتنان، ولم يستطع إبعاد يده.

الطريقة التي تهب بها الرياح علىٰ الشجر، تحدث صوتا كأصوات تهكمية. ولا زال الجيران يسمون المزرعة بمزرعة ويرتنباشر القديمة. ولثلاث سنوات من الآن، وريبيكا تحسب أنهم يمتلكون بيتهم الخاص بهم.

إنه يحبهما، هي ونيلي، ولكن في داخله لم يكن مخلصا.

في أعماقه، كان أبو ريبيكا، جاكوب شوارت، يحبها. كان يحبهم جميعا. لم يكن في نيته أن يؤذيهم، ولكن كان يود أن يمحو التاريخ.

أنت واحدة منهم، ولدت هنا.

هل هذا كان فعلا؟ واحتضنت نفسها وراحت في نوم عميق وكأنها في بئر لا قرار له.



في نـوفمبر ١٩٣٦، وصـلت عائلـة شـوارت بـالأتوبيس لمدينـة صغيرة في شمال نيويورك. وكأنهم جاءوا فجأة، بحقائب سفر منتفخة، وحقائـب صـغيرة، وشـنط. عيـونهم غـائرة في وجـوههم مـن الإرهـاق، ملابسـهم غيـر مهندمـة، وشـعرهم أشـعث. مـن الواضـح أنهـم غربـاء، مهاجرون... من الممكن أن يقال عنهم أنهم فارون من هتلر. (في مثل هـذه الأمـاكن في ميلـبرن، في نيويـورك، كـان ينظـر إلـىٰ هتلـر بشـاربه ووضـعه العسـكري، وعيونـه المحدقـة بصـرامة وكأنـه كوميـديان، لا يختلـف عـن شـارلي شـابلن)، دون أن يتوقفـوا لأكـل أو تـنفس أو اغتسال.

الرائحـة التـي كانـت تنبعـث مـنهم، كـان تعليـق سـائق الأتـوبيس عليها هو أنه كان يقلب عينيه امتعاضا منها؟

كان يبدو ملائما أن جاكوب شوارت، رأس العائلة، سيجد عملا كحارس لمقـابر مقاطعـة ميلـبرن. مقـابر غيـر طائفيـة في طـرف المدينـة المهمل. سيعيشون هو وأسرته، زوجة وابنـان وطفلـة، في منـزل صـغير من الحجر الذي أثرت فيه عوامل التعرية داخل بوابة المقـابر مباشـرة. المنزل بلا إيجار، مما جعل العمـل جذابا لرجـل بـائس لا يجـد مكانـا يسكن فيه.

كان السيد شوارت ممنونا جدا لموظفي المقاطعة لأنهـم وظفـوه كحـارس للمقـابر رغـم أنـه لا يمتلـك خـبرة كحـارس مقـابر، أو حتـىٰ كحفار قبور.

كان يعمل بجد، ومثابر، بيده وعقله.



«لن تندموا يا سادة، أطمئنكم»

في الوقت الذي انتقلوا فيه لمنزل من الحجر الذي نسج عليه العنكبوت خيوطه في المقابر، والذي أصبح خاليا بعد أن تركه المؤجرون السابقون، ورائحته رائحة منظف قلوي نفاذ، كانت أصغر أبناء شوارت ريبيكا طفلة ذات خمسة أشهر تلفها أمها في شالها المهلهل. من كثرة ركوب الأتوبيس من جنوب نيويورك كان الشال يستخدم كحفاضة للطفلة المقلقة.

كانت صغيرة جدا. يتذكر أخوها هارشل فيما بعد أنها كانت بلا شعر كخنزير صغير، وكانت رائحتها مثله كذلك. «بابا لم يكن ينظر إليك، كان يعتقد أنك ستموتين علىٰ ما أظن»

هل كان اسمها ريبيكا إثير شوارت في ذلك الحين؟ لقد كانت صغيرة جدا بلا اسم ولا هوية. من تلك الأيام والأسابيع والشهور بل والسنين في ميلبرن لا تتذكر إلا القليل. فالذكريات قليلة في أسرة شوارت.

كانت هناك ماما التي ربتها. ماما التي تدفعها أحيانا بعيدا عنها بزمجرة كما لو كان لمسها شيئا مؤلما.

كان هناك بابا، جاكوب شوارت... لا تستطيعين أن تتكهني بأحواله. فهو متقلب دائما كالسماء. أحيانا يتميز غضبا كموقد الفحم القميء الذي في المطبخ، وأحيانا ينفجر من الغضب. لا ترغبين أن تضعي أصابعك في الموقد حينما تكون النار مشتعلة بداخله.

أحيانا يكون الموقد بلا نار، باردا، ميتا.



كان جاكوب شوارت ممنونا جدا للغرباء الذين شغلوه في هذه المقاطعة الصغيرة. ومع ذلك، كان بابا في منزله الحجري يطيل التفكير، يظهر عاطفة مختلفة.

«إنهم يريدون أن يعاملوني كالكلب. أنا جاي كوب، إيه! لأنني غريب، لست غنيا، لست واحدا منهم! يوما من الأيام سيعرفون من الكلب ومن الرجل»

بدأت تكتسب كطفلة حسا غريزيا بأن أباها، ذلك الكائن القوي الذي يميل علىٰ سريرها، ويدغدغها أحيانا بأصابعه العجيبة، ويحملها حتىٰ بين ذراعيه، يتألم في داخله بكل حزن، ويحمل هذا الألم الشنيع، كظهر منحن، طوال حياته. يبدو أنها تعرف، في الوقت الذي كانت تجفل من هذه المعرفة المروعة، بأنها، آخر مولود في الأسرة، الطفلة الصغيرة، لم يكن يريدها جاكوب شوارت، وأنها علامة ظاهرية لألمه.

لم تكن تعرف لماذا، فالطفل لا يسأل لماذا.

إنها تتذكر لما تتخبط أمها مذعورة لسريرها، وتطبق بيدها الرطبة علىٰ فمها لتكتم صراخها. حتىٰ لا يستيقظ بابا المرهق من نومه في الحجرة المجاورة.

«لا، أرجوك، لا، سوف يقتلنا نحن الاثنين»



هكذا ينام جاكوب شوارت. يرتعد ويئن في نومه كحيوان جريح. بعد عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة من العمل في المقابر في الأيام الأولىٰ يرتمي علىٰ السرير بثياب العمل، باعثا رائحة العرق الكريهة، وبحذائه الملطخ بالطين في قدميه.

لقد وجد هذا الحذاء في الزريبة، يعتقد أنه يخص القائم بأعمال مقابر ميلبرن السابق.

كان واسعا علىٰ قدميه، فحشا مقدمته ببعض الخرق.

يرىٰ قدميه في الحذاء كأنها حوافر. ثقيلة، وكأقدام الحيوان. يحلم بأن يغوص في الماء، يقفز في المحيط، مرتديا حذاءه وهو غير قادر علىٰ أن يفك رباطه، لكي يسبح وينقذ نفسه.

لا وجود للتاريخ. كل ما هنالك أفراد، لهم لحظات فردية منفصلة كل منها عن الأخرىٰ، كفقرات متناثرة... كتب هذه الكلمات بيده، وهو ممسك بالقلم الرصاص بتثاقل بين أصابعه، لديه أفكار كثيرة، لقد غزته في المقابر أفكار لاذعة، لا يستطيع التحكم فيها.

لقد كتب هذه الأفكار بتثاقل. تساءل إذا كانت له، حدق فيها، وتأملها، ثم كرمش الورقة في يديه وألقىٰ بها في الموقد.

هل رأيته علىٰ بعد؟ حفار القبور شوارت، يظهر كالعفريت، محدودب نوعا ما، مطأطئ الرأس، تراه في المقابر وبين الشواهد وهو يمسك بالمنجل والمحشة والجرافة وهو مكشر الوجه، ويدفع بالحصادة اليدوية الصدئة بقوة وبضربات ثابتة في الحشائش الكثيفة؛ حيث يحفر مقبرة، وينقل التراب في عربة يدوية مترنحة، ولقد توقف



ليمسح عن جبينه العرق، ويشرب بعض الماء من قنينة أخرجها من جيب السترة؛ فأمال برأسه وأغمض عينيه وراح يتجرع الماء كالكلب العطشان.

يقرفص أولاد المدارس أحيانا خلف حائط المقابر التي تبلغ ثلاثة أقدام في الارتفاع والمصنوعة من الصخر الخشن وقطع الملاط والتي في حالة مزرية، تنمو نباتات الورد الشوكي واللبلاب السام والسماق بكثافة علىٰ طول الحائط، في الجهة الأمامية من المقابر، هناك بوابة من الحديد المطاوع تتحرك بصعوبة لكي يتم إغلاقها، وممر سيارات من الحصىٰ المتآكل، ومنزل القائم بأعمال المقابر الحجري، ووراء ذلك بعض الزرائب والملحقات. يقام معظم أقدم الشواهد في مؤخرة البيت. في منطقة تملؤها الحشائش حيث تنشر زوجة التُربي ملابسها علىٰ حبل مشدود بين عمودين متهالكين. إن لم يستطع أولاد المدارس أن يقتربوا من السيد شوارت لكي يعاكسوه، أو يقذفوه بقطع الخشب والحجارة، كانوا يكتفون بالسيدة شوارت التي كانت تعطي صرخة حادة قصيرة من الألم أو الانزعاج أو الرعب أو من جرح، أو تقع علىٰ الحشيش، وراحت تجري مذعورة نحو الكوخ علىٰ نحو مضحك.

يشار إلىٰ أن المضايقات التي تتم في المقابر للتُربي، عجلت بمجيء جاكوب شوارت. فالذي قبله كان يعاكس بنفس الطريقة والذي قبله والذي قبله، في ميلبرن، وبعض المدن الأخرىٰ في المنطقة، كانت مضايقات المقابر وتخريبها غير شائعة.



بعـض أولاد المـدارس الـذين يضـايقون جـاكوب شـوارت أعمارهم عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة، وأحيانا أكبر من هذا، والبعض لم يعودوا أولاد مدارس، لكنهم رجال في العشرينيات، في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، وليس في بداياتها. صيحاتهم الشكسة، والمتقلبة والتي تبدو بلهاء، كصيحات الغربان المبحوحة فوق السنديانات التي في مؤخرة المقابر.

«حفار القبور! يا كرواتي! يا نازي! يا يهودي!»



«آنا!»

كان لديه هاجس، في بداية شتاء ١٩٣٦، كان قد مر علىٰ سكنهم هنا عدة أسابيع، وبينما كان يزيل آثار عاصفة من مقبرة، توقف كما لو أنه ليسمع...

ليس أولاد المدارس المشاكسين. ليس مثل ذلك اليوم، لقد كان وحيدا في ذلك اليوم، كانت المقابر خالية من الزوار.

اجر! اجر، ووقع قلبه في رجليه.

كان مرتبكا، يفكر بشكل ما أن آنا تلد الآن، الجنين كان محشورا في جسمها المتورم في تلك اللحظة، كانت آنا تصرخ، تتلوىٰ علىٰ المرتبة القذرة الملطخة بالدم.

في نفس الوقت الذي علم فيه ذلك كان في مكان آخر، في مقابر مغطاة بالجليد بين الصلبان.

في مكان لم يستطع تسميته غير أنه ريفي، وجماله كئيب جدا حتىٰ أن معظم أوراق الأشجار كانت تتساقط من الشجر، السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة المحملة بالمطر.

«آنا!»

لم تكن في المطبخ، لم تكن في غرفة النوم، لم تكن في أي حجرة من الحجرات الأربعة المكتظة من البيت الحجري. وجدها في الزريبة الخشب التي تفتح علىٰ المطبخ، في ركن مظلم في الزريبة غير المنظمة، متكومة علىٰ نفسها فوق الأرض، هل هذه آنا؟ كانت رائحة الكيروسين تملأ المكان لدرجة تجعلك تتقيأ. وآنا متدثرة ببطانية علىٰ



كتفيها، شعرها الملبد وصدرها المترهل داخل ما يبدو أنه ثوب ليلي رث. وعلىٰ حجرها الطفلة، مغطاة ببعض من البطانية، فاغرة الفم، وعيونها ذابلة في وجه طفولي، لا تتحرك وكأنها في غيبوبة. وهو الزوج والأب، هو، جاكوب شوارت يرتعد، فلم يجرؤ أن يسأل عما حدث، لماذا هي هنا، ماذا تخبئ، هل حدث شيء ما، هل طرق أحد ما علىٰ باب الكوخ، ماذا كانت تفعل بابنتهما؟ هل كانت تخنقها؟

ولأنه خائف، ومع ذلك غاضبا، لم يستطع تصديق أن امرأة يمكن أن تنهار هكذا، بعد كل ما تحملناه معا.

«آنا قولي ما حدث»

بدأت آنا تدريجيا تنتبه لوجوده. كانت نائمة، أو في إحدىٰ غفواتها. في هذه اللحظات يمكنك أن تطرقعي أصابعك في وجه آنا وهي لا تكاد تسمعك من التعنت.

تحركت عيونها في محاجرها. في هذا المكان الذي يسمىٰ ميلبرن وسط الصلبان وتماثيل الملائكة الحجر وهؤلاء الذين ينظرون لها في الشارع لقد أصبحت ماكرة كالقطة المتوحشة.

«آنا! قلت... »

أخذت تبل شفتيها بلسانها ولكن لم تتكلم، واحدودبت تحت البطانية الرثة وكأنها تتخبأ منه، نزع من فوقها البطانية ليكشفها.

امرأة سخيفة.

«أعطني إذاً الصغيرة، أتريدينني أن أخنقها؟»



هذه مزحة بالطبع، مزحة غضب، واحدة من المزح التي تدفع بها آنا الرجل ليفعلها.

لم يكن جاكوب شوارت الذي يتكلم ولكن، من؟ عامل المقابر، حفار القبور. عفريت في ثياب عمل، وحذاء محشو بالخرق يبتسم في وجهها، وهو يقبض علىٰ يديه. ليس هذا هو الرجل الذي أحبها وترجاها لكي تتزوجه ووعدها بأن يرعاها للأبد. من الواضح إنه ليس هذا والد الطفلة. الذي يدنو منحنيا عليهم وهو ينبح كالثور الهائج.

بدون أي كلمة سلمته آنا الطفلة.



في أمريكا، محاطا بالصلبان.

أحضر عائلته عبر المحيط إلىٰ هنا؛ مدافن بصلبان من الحجر، يا لها من نكتة! نكتة علىٰ جاكوب.

راح يضحك وفي ضحكته سرور حقيقي، وأصابعه تهرش تحت إبطيه، وفي بطنه، وفي العانة لأن إلهه مهرج. يضعف من الضحك أحيانا، وأحيانا ينخر وهو متكئ علىٰ جاروفه حتىٰ تسيل دموعه علىٰ خده المشعر وتقطر علىٰ الجاروف الصدئ.

«يفرك جاي كوب عينيه، إنه حلم! لقد تبرزت في سروالي، أم ري كا، كل صباح نفس الحلم، إيه؟ جاي كوب، العفريت الذي يجوب هذا المكان ويرعىٰ المسيحيين الموتىٰ».

تكلم مع نفسك، فليس هنا أحد آخر. لم يستطع الكلام مع آنا. لم يستطع الكلام مع عياله. لقد رأىٰ في عيونهم أنهم يخافونه. رأىٰ في عيون الآخرين كم هم يشفقون عليه.

لكن هناك الصغيرة. إنه لم يرد أن يحبها لأنه يتوقع أنها ستموت. لكنها لم تمت من مرض الالتهاب الشعبي، ولم تمت من الحصبة.

ريبيكا.

كان سينطق ذلك الاسم، ببطء. لكنه لم يجرؤ لفترة طويلة.

يوما ما، كبرت ريبيكا حتىٰ أنها تمشي بلا مساعدة، وتلعب الاستغماية مع أبيها. في البداية في البيت، ثم في الخارج في المقابر.

أوه، أوه! أين تختبئ هذه الصغيرة؟



خلف شاهد هذه المقبرة؟ إنه لن يراها. تقهقه، وتصيح بانفعال، تنظر متلصصة، لا زال أبوها لا يراها، يحملق بعينيه وتؤلمه لأنه فقد النظارة في مكان ما. لقد وقعت منه وانكسرت لاثنين.

بومة منيرفا لا تحلق إلا في الغسق. ها هو هيجل إمام الفلسفة يعترف بفشل العقل البشري.

آه، عيون بابا تمر فوق هذه الصغيرة دون أن تراها.

إنها دغدغة قاسية من اللعبة، ظريفة جدا.

ليس بالرجل الضخم، لكن بمكره أصبح قويا، إنه قصير ممتلئ الجسم له قدمين ويدين تناسب امرأة، شيء مشين بالنسبة له. مع ذلك ارتدىٰ حذاء العامل السابق، ضبطه علىٰ قدميه بمهارة ببعض الخرق.

بالنسبة لموظفي ميلبرن، فقد قدم نفسه بكل لباقة، نظرا لأنه عامل عادي، فقد أعجبوا بذلك، أليس كذلك؟

«سادتي، إنني مناسب لمثل هذا العمل، لست رجلا ضخما ولكن قويا، أوعدكم، فأنا (ماذا كانت الكلمة؟ كان يعرفها) مخلص، لا أتوقف عن العمل»

في لعبة الاستغماية كانت الطفلة الصغيرة تتسلل من البيت وتتبعه للمقابر. كان شيئا لذيذا! تختبئ منه وتصبح مختفية، تتلصص لتراه وهي مختفية، تختبئ خلف شاهد مقبرة وهي ترتعد كحيوان صغير، وتمر عيونه فوقها كأنها ليست إلا واحدة من الفراش الأبيض الصغير الذي يحوم فوق العشب.



«لا أحد، لا أحد هناك، هل هناك أحد؟» عفريتة صغيرة، أليس كذلك؟ لا، لا أحد»

في تلك الساعة المبكرة، لم يكن بابا يشرب شيئا، لم يكن ضيق الصدر معها. يغمز لها، ويتمطق بشفتيه بصوت مرتفع، في نفس الوقت (آه، إنها من الممكن أن ترىٰ ذلك، كأنه ضوء يخفت) كان ينساها.

يدس أرجل بنطلونه في الحذاء المطاطي، ويدس قميصه الخفيف الواسع في وسط البنطلون الذي بلا حزام. يطوي كُم القميص لأعلىٰ، وشعره الذي علىٰ ذراعيه كأنه سلك يلمع، يرتدي كابا من القماش الرمادي، قميصه مفتوح عند الياقة، فكاه يتحركان ويبتسم ويكشر وهو يطوح المنجل، ويبتعد عنها.

«يا عفريتة يا صغيرة، ارجعي للبيت، ارجعي حالا»

لعبة الاستغماية الرائعة انتهت، أليس كذلك؟ كيف تعرفين أن اللعبة انتهت؟ فبابا فجأة لا يراها، كما لو أن عيونه عميت. مثل تلك العيون البيضاوية التي لتماثيل الملائكة الحجرية في المقابر، إنها جعلتها تشعر بالغرابة إذا اقتربت منها، لأن أباها لو لم يرها فما كانت طفلته الصغيرة، ما كانت ريبيكا، ما كان لها اسم.

كعلامات المقابر الصغيرة، ملقاة علىٰ العشب كالألواح، باهتة ومستهلكة جدا، لا ترىٰ أسماءها. كانت مقابر للأطفال والمواليد الجديدة.

«بابا!»



لـم تعـد ترغـب في أن تكـون مختفيـة بعـد ذلـك. فوقفـت خلـف علامة مقبرة قصيرة تميل على العشب، وهي ترتعش.

هل يمكنها أن تركب في عربة اليد؟ هـل مـن الممكـن أن يـدفعها بالعربة؟ لقد وعدت أنها لـن تـرفض ولـن تصـرخ ولـن تفعـل أي شـيء سخيف! لو لم يكن هناك نباتات شوكية أو قاذورات فسوف يـدفع بها العربة. العربة القديمة تترنح كالحصان السكران.

ارتفع صوتها الشجي: «بابا!»

بدا وكأنه لم يسمعها، منهمك في عمله، غير موجود بالنسـبة لهـا. انقبض قلبها الطفولي ألما وخزيا.

تغـار مـن أخويهـا هارشـل وأوجسـت لأنهـما يسـاعدان أباهمـا في المقابر لكونهما أولاد. هارشل طويل القامة مثـل أبيـه بينمـا جـوس مـا زال طفلا صغيرا؛ نحيف الأطراف، حليـق الشـعر حتـى جمجمتـه غيـر المستوية التي ظهرت وكأنها رأس دمية صلعاء.

عـاد جـوس مـن المدرسـة بقملـه. وهـو يصـرخ لأن الأولاد في المدرسة ينادونه بالمقمل! وكـان بعضـهم يرمونـه بالحجـارة. أمـه هـي التي حلقت له شعره، فأبوه لم يكن موجودا.

من هي؟ ريبيكا. لقد قالت ماما إنه اسم جميـل لأنـه اسـم جـدتها التي عاشت من فترة طويلة عبر المحيط. لكن ريبيكـا لـم تكـن متأكـدة أنها تحب اسمها، ولـم تحب أيضا كونها بنتا.

هناك الاثنان؛ ولد وبنت.



أخواها أخذا الولد وتركا لها البنت، هناك منطق لهذا، وهي تفهم ذلك، ومع ذلك تشعر بالظلم.

فأخواها يمكنهما أن يلعبا في المستنقع، ويلعبا في الطريق اللولبي لو أرادا ذلك. لكنها لا تستطيع (هل لدغتها نحلة؟ هل صرخت بشدة؟ أم أن أمها أخافتها؟ قرصتها في ذراعها لتريها كيف تلدغ النحلة؟)

تمشط أمها لها شعرها كل صباح؛ شعر بنات، تضفره حتىٰ تؤلمها فروة رأسها، توبخها إذا تلوت أو مزقت ثيابها، أو وسختها أو عملت أي ضوضاء.

«ريبيكا أنت بنت ولست ولدا كأخويك»

تسمع تقريبا صوت أمها، إلا إذا كانت في المقابر تجري وراء بابا تسأله إذا كان يمكنها أن تساعده؟ هل يمكنها أن تساعده.

«بابا؟»

نعم يمكنها أن تساعد بابا! ريبيكا يمكنها أن تزيل العشب، تسحب فروع الشجر المكسورة، وتحول الأنقاض لعربة اليد. لم يكن لتحك نفسها في النبات الشوكي الملعون كما كان يسميه أبوها وإلا تعثرت وجرحت نفسها (امتلأت ساقيها بالكدمات، وأكواعها بالندوب). تلهفت علىٰ مساعدة بابا، لتجعله يراها مرة ثانية وتصنع ضوضاء التمطق اللذيذة تلك الضوضاء الخاصة بها.

كانت تتوق لترىٰ الضوء الذي في عيني أبيها. لمحة الحب التي تظهر لها حتىٰ لو اختفت سريعا.



تجري فتتعثر... فيأتي صوت أبيها سريعا: «اللعنة! ألم أقل لك لا؟»

لا يبتسم، ووجهه مشدود كقبضة اليد، يدفع عربة اليد في العشب الكثيف كما لو كان يتمنىٰ أن يكسرها. يوجه لها ظهره، قميصه الفانلة مبتل بالعرق. يفزع طفلة لا حول لها ولا قوة رأته وهو يذهب بعيدا وكأنه لا يدري بوجودها. لم تكن استغماية، بل هو الموت. يزعق لأخويها اللذين يعملان في مكان بعيد، صوته أشبه بالنعر القريب من الضيق، لا عاطفة فيه. ومع ذلك كانت تتوق ليكلمها بنفس الطريقة، كمساعدة له، ليس كمجرد بنت يرسلها للبيت.

تعود للبيت الذي تنبعث منه رائحة الكيروسين والطبيخ.

تتألم بشدة. لمرات عديدة. لغاية أن آخر مرة قالت لنفسها إنها تكرهه. قبل موته، والظروف الصعبة التي صاحبت موته بدأت تكرهه، لقد نسيت من زمن طويل كيف أحبته ذات مرة، لما كانت مجرد طفلة صغيرة، وكان يظهر حبه لها أحيانا.



كان هارشيل يزمجر، تعدينني أنك لن تخبريه؟ فتعده، لأنه كان يحذرها لو أنها فعلت سيضع السيخ الساخن علىٰ مؤخرتها.

كانت ريبيكا تقهقه، وترتعد، فأخوها الأكبر كان دائما يخيفها هكذا. أوه، لا، لن تقول شيئا.

إنه هارشل الذي أخبرها كيف ولدت، كونها تولد هكذا فهو شيء لم تفعله ريبيكا لنفسها، ولكن لا تتذكره، فهو من زمن طويل.

لم يخبرها أحد من والديها، لم يخبرها أحد علىٰ الإطلاق.

لا حديث أكثر من ذلك عن مثل هذه الأشياء السرية، غير أنهما كانا يخلعان ثيابهما ويتعريان أمام أطفالهما وهم يحملقون.

فلذلك هارشل هو الذي أخبرها بأنها كانت شيئا صغيرا ملتويا، ولدت علىٰ قارب قادم من أوروبا، لقد ولدت في ميناء نيويورك.

«علىٰ قارب، أترين؟ علىٰ الماء»

إن هارشل هو الوحيد من الأسرة الملعونة الذي قال، ولدت في هذا المكان، المحيط الأطلسي الذي لا يحتاج لتأشيرة ولا أوراق.

استمعت ريبيكا في شغف، فلا أحد في الدنيا يخبرها بمثل هذه الأشياء إلا أخوها الأكبر هارشل.

لكن ما قاله هارشل شيء مخيف، فالكلمات تخرج من فمه كالخفافيش، لأنه في مقابر ميلبرن، وسط الصلبان، والجنائز، والمعزين والمدافن المكسوة بالزهور، في قرية ميلبرن حيث الأولاد



ينادونـه حفـار القبـور، يـا كـراوت، كـان هارشـل يشـب خشـنا فـظ الكلمات، لم يعد طفلا من زمن ببعي، عيونه صغيرة وبدون رموش وتعطي انطباعا مثيرا للأعصاب لكونها علىٰ جانبي وجهه، كعيون السمك، وجهه شديد النحول، وجبينه بارز العظام، وفكاه واسعان كفكي الحيوان المفترس، جلده خشن ومبقع ومليء بالشامات والبثور التي تتحول إلىٰ طفح في حالة أن يغضب، وكثيرا ما يكون كذلك، وله، مثل أبيه، شفاه بدينة دودية تنم تعبيراتها الطبيعية علىٰ الاستخفاف. أسنانه كبيرة وقصيرة وباهتة.

في الثانية عشرة، بدا هارشل طويل القامة مثل جاكوب شوارت، متوسط الطول، وأكتافه مدورة ويطأطئ رأسه فيبدو أقصر.

نتيجة لعمله مع أبيه في المقابر، صار لهارشيل رقبة قصيرة قوية وظهر وأكتاف ذوات عضلات قوية، شيئا فشيئا صار شبه جاكوب شوارت؛ ولكن أكثر تلوثا، وتشويها وأغلظ؛ قزم نما لحجم رجل. لقد خيب هارشيل ظن أبيه بإنجازه الضعيف في الدراسة، فقد تخلف مرتين لا مرة واحدة.

بمجرد أن وصل في ميلبرن، منع جاكوب شوارت التحدث باللغة الألمانية في أسرته، فالفترة كانت فترة كراهية الألمان في أمريكا، وكان الاشتباه في الجواسيس الألمان منتشرا.

بالإضافة إلىٰ أن لغته الأصلية أصبحت منفرة له؛ فهي لغة وحوش، حتىٰ أن هارشيل الذي تعلم الألمانية منذ الطفولة صار ممنوعا من التحدث بها، رغم أنه نادرا ما يتعلم اللغة الجديدة، فغالبا ما كان يتلعثم بفظاعة حين يتكلم بها. وكان يبدو كمن يحاول ألا



يضحك. تكلم، هل أبدو كمن يلقي نكتة؟ أهي كذلك؟ يجب أن تتعلم الحروف الصحيحة لتتكلم، كيف تحرك لسانك، يجب أن تكون الأصوات كالتي يفهمها الناس، ولكن كيف يفهم هؤلاء الناس الربط بين الأصوات الخارجة من الفم (حيث يتحرك لسانك) وبين ما يخرج متوحشا بالفعل. وتلك الكلمات المطبوعة! والكتب! والمدرسة! هذا الشاب الغريب يتوقع أن يتكلم معه، متوقع أن يجلس في مكان لا يناسب ساقيه، فهذا قانون نيويورك. انظر إلىٰ وجوههم الملعونة، هؤلاء الأطفال الذين في نصف حجمه؟ فهذا يحدق فيه وكأنه شيء شاذ؟ وهذه المدرسة الشمطاء؟ لماذا في مدرسة ميلبرن؟ حيث كان هارشيل في المرحلة السابعة، للآن لا يزال أضخم تلميذ في فصله، كان يأخذ مناهج تعليم خاص، وطبقا للقانون يمكنه أن يترك الدراسة إذا بلغ السادسة عشرة. يا لها من راحة، لمدرسيه ولزملائه، فإنه لا يتكلم بتناسق، ولا يستطيع القراءة. إن محاولة أبيه ليعلمه بعض الحساب باءت بالفشل؛ فالمناهج المكتوبة تدفعه للاشمئزاز وأكثر إن لم يبعدوها عن عيونه، فقد تم اكتشاف أن كتب أخيه جوس المدرسية وحتىٰ كتب أخته التمهيدية تم تمزيقها وإلقائها علىٰ الأرض، في صحف بورت أورسيكاني التي كان يحضرها جاكوب شوارت للبيت، لم يكن يشد انتباه هارشيل إلا رسوم الكرتون الفكاهية، وإن كان البعض مثل تيري والقراصنة، والمخبر تراسي تشكل له صعوبة، لقد كان هارشيل دائما معجبا بأخته الصغيرة، البنوتة كما كان يسميها في المنزل، ومع ذلك كان دائما يغيظها. عينه الصفراء تلمع بشكل شرير فكانت لا تثق في أنه لن يجعلها تصرخ. يمسك هارشيل بضفائرها التي



صففتها لها أمها بعناية، يبتسم وهو يدغدغها تحت إبطها، وفي بطنها، وبين ساقيها لكي يجعلها تصرخ وترفس برجليها، يخيفها بقوله. ها قد جاء ثعبان الأصلة. وهو ثعبان ضخم يلف نفسه حولك ولكن يستطيع أن يدغدغك أيضا.

اعتاد أن يتصرف هكذا حتىٰ مع وجود أمه في الحجرة، حتىٰ لو شتمته. يا وقح، يا خنزير، أو صفعته وضربته علىٰ رأسه. كان الضرب البدني من أمه يجعله يضحك، وحتىٰ الذي من أبيه. كانت ريبيكا تخاف من أخيها الضخم وإن كانت مع ذلك معجبة به، تلك الشفاه وهي تقذف بالكلمات الغريبة كالبصاق.

ذلك اليوم، الذي أخبرها رشيل ريبيكا كيف ولدت.

ولدت! كانت صغيرة، وعقلها كان يعي دائما أنها لم توجد.

قال هارشيل باعتزاز: «ياه، إنها كانت كشيء يشبه القرد الذي يتلوىٰ بوجهه الأحمر. أقبح شيء صغير ترينه، مسلوخ، وبلا شعر أيضا».

«ولأنها أخذت وقتا طويلا، إحدىٰ عشرة ساعة، وكل واحد كان يتمنىٰ أن ينزل من المركب إلا هم، فرأس طفلتها يخرج ويرجع، والتوىٰ ذراعاها. لذلك أخذت وقتا طويلا، ولماذا كان الدم غزيرا؟»

هكذا ولدت، خرجت من أمها، نحيفة جدا وحمراء. ماذا يدعىٰ، الفرج، فتحة الأم، إنها فتحة مليئة بالشعر. لم ير هارشيل أبدا شيئا مثل هذا. معفن! كالفم الدموي المفتوح. لقد رأىٰ فيما بعد الشعر، بين ساقي ماما، وفي بطنها، مثل شعر الرجل. بالصدفة وهو يدفع باب غرفة



النوم، وكانت ماما هناك تحاول أن تختبئ لتغير ثياب النوم، أو تحاول أن تغتسل، هل رأيت هذا من قبل؟ شعر كثيف كالسنجاب.

أهلا، قالها هارشيل وهو يطرقع أصابعه في وجه ريبيكا الخالي من التعبير:

«أتظنين أني أكذب؟ أو شيئا مثل هذا؟ لكي تنظري لي كهذه النظرة؟»

حاولت ريبيكا أن تبتسم، فهناك طنين في أذنها كآلاف من الناموس.

- أهلا، أتبحثين عن ثعبان الأصلة يا حلوتي، ألست كذلك؟
- ليس ثعبان الأصلة! ليس هو أرجوك.

يحب هارشل أن يرى أخته وهي مرعوبة، فهذا يريحه نوعا ما. معللا بأنها تعتقد أنه سوف يصلح كل ذلك، ولكنه لن يفعل. كيف تعتقدين أنك ولدت، إيه؟ هل أنت إنسان مميز؟ كيف تتصورين ميلاد أي شخص؟ من فتحة أمهاتهم. ليس من الفتحة الخلفية، ليس كالقاذورات، فهذا شيء آخر، هناك فتحة أخرى تبدأ ضيقة ثم تتسع، لكل البنات والأمهات فتحات مثلها، أنت لك واحدة، أتريدين أن أريها لك؟

فتهز ريبيكا رأسها، لا، لا.



إنك لا زلت طفلة صغيرة، ولذلك لديك فتحة صغيرة في حجم حبة البسلة، هي هناك بين ساقيك حيث تتبولين، وحيث ستشعرين بالقرصة، أترين؟ إنك لا تصدقين أخاك هارشل.

فكانت ريبيكا تقول سريعا، إنها تصدقه، نعم.

هرش هارشيل في صدره وهو مقضب الجبين، محاولا أن يتذكر. هذه الكابينة القذرة التي مكثوا فيها في السفينة، في حجم بيت الكلب، بلا نوافذ، والأسرة مزدوجة رأسيا، وبعض الأقمشة البالية المبعثرة، والصراصير المنداسة، والقيء العفن بسبب مرض جوس، ورائحة العفن في كل مكان. ثم الدم الذي يخرج من ماما، والأشياء الأخرىٰ، حيث ترقد علىٰ السرير المزدوج. أخيرا وصلنا لميناء نيويورك، وكل واحد كان متلهفا ليترك هذا المكان العفن في السفينة إلا هم، إنهم يريدون أن يبقوا في السفينة لأنها ستولد. قال لها بابا وكأنه يجادلها متوقع لك أن تلدي بعد شهر. كلنا تضورنا جوعا، وماما تهذي بشدة وكأنها ليست هي بل حيوان متوحش. إنها تصرخ وكأن شيئا ما أو عضلة انكسرت في حنجرتها، لماذا لا تتكلم بصورة صحيحة الآن. هل تعرفين أنها لم تكن في حالتها الطبيعية.

هناك بعض النساء الكبار أردن أن يساعدنها، ولكننا مازلنا علىٰ ظهر السفينة، يجب أن ننزل. فلم يكن إلا بابا، مسكين إنه كالمجنون. إنه طوال الوقت كالمعتوه يقول ماذا لو أنهم رفضوا دخولنا أمريكا، ماذا لو أرجعونا للنازيين، إنهم سيقتلوننا كالخنازير. ترين، هؤلاء النازيون كانوا يطاردون بابا في كل مكان يعمل فيه، اضطر أن يرحل. اضطررنا أن نرحل، حيثما كنا نسكن، لم نكن نعيش دائما



كالحيوانات، لـم نكـن هكـذا. يـا للعنـة، لا أتـذكر جيـدا، كنـت لا أزال طفلا، أخاف طوال الوقت. قالوا لنا هناك غواصات وطوربيدات نازية تحاول أن تغرقنا. لذا سرنا متعرجين، فأخذنا وقتا طويلا حتىٰ نعبر. يتفحص أبي المسكين طوال الوقت حزام النقود ليطمئن علىٰ الأوراق والتأشيرات. يجب أن نحصل علىٰ تأشيرة بأختام وأوراق، لأننا لسنا مواطنين أمريكان، ترين! إنهم يستطيعون ألا يدخلوننا هؤلاء الأوغاد. أكيد هؤلاء الأوغاد لم يريدونا، ينظرون لنا وكأننا عفن، كأننا أسوأ من الخنازير لأننا لم نستطع أن نتحدث بلغة سليمة. كل ما قلق عليه هو أن هذه الأوراق لا تسرق. كل واحد يسرق ما يستطيع، هكذا تعلمت؛ خطف الأشياء. اجر، فالناس الكبار لا يستطيعون أن يجروا وراءك. إنك صغير الحجم تستطيع أن تختبئ كالفار. لقد تعلمت منهم، الفار أقل مني حجما. قال أبي وهو يتجول بشجاعته أنه أكل مع الفئران في المعبر. هذه نكتة من أبي عليك أن تُقدري مزاح الناس الكبار. لقد سمعته يقول لسيدة هنا في المقابر وهي تضع بعض الزهور علىٰ مقبرة وكان أبي فتح معها الكلام كان من الشجاعة أن يأكل مع الفئران علىٰ المحيط الأطلنطي. قال لنا لا تتكلموا مع هؤلاء الآخرين الذين لا تثقون فيهم، بينما يتكلم ويضحك كالكلب ينبح بكل قوة لدرجة أن السيدة نظرت إليه وكأنها خائفة منه، وظننت أن أبي سكران، إنه لا يتحكم في نفسه.

صرنا نأكل علىٰ السفينة ما يقدم لنا؛ أكل متعفن بالسوس والصراصير. التقط الصراصير ودسهم بقدمك واستمر في الأكل، إنك جائع جدا. تفعل هذا أو تموت جوعا. ظلت معدتنا تأكل حتىٰ وقت



نزولنا وكل واحد ينزف أشياء كالصديد. أصبحت حالة أبي أسوأ بسبب القرحة، لقد قال إن النازيين تسببوا له في القرحة من سنين مضت. معدة أبي ليس سليمة. انظري له، إنه ليس كما هو الآن.

أرادت ريبيكا أن تعرف كيف كان أبوها من قبل.

نظر هارشيل نظرة غريبة، كما لو أن فكرة في دماغه غير مناسبة، فهرش أعلىٰ فخذيه.

آه، اللعنة، لا أدري، لم يكن سريع الانفعال، وأعتقد أنه كان أكثر سعادة. قبل أن تبدأ المتاعب. قبل أن أكبر، يحملني، كما يفعل معك الان. اعتاد أن يناديني ليبب، أو ما شابه ذلك. كان معتادا أن يُقبلني! ياه، لقد فعل ذلك. والموسيقىٰ التي أحب أن يسمعها هو وأمي مرتفعة من الراديو الأوبرا. يغنيان في البيت. أبي يغني شيئا ما، وأمي في غرفة أخرىٰ ترد عليه بالأغاني، ويتضاحكان.

حاولت ريبيكا أن تتخيل أبويها يغنيان، ولكن لم تستطع، لم تستطع أن تتخيل أباها يُقبل هارشل!

ترين! كانا شيئا مختلفا، أصغر من الآن. لقد أرهقهما المكان الذي عشنا فيه. كانا خائفين، كما لو أن شخصا ما يطاردهما، الشرطة مثلا. النازيين. لقد ركبنا قطارات، يا لها من ضوضاء حقيقية، وازدحام. ثم السفينة الملعونة. جميل أن تنظري في المحيط الأطلسي، لكن لا، فالرياح تهب طوال الوقت، والجو بارد والناس يتدافعون ويكحون في وجهك. كنت صغيرا حينئذ، ليس كالآن، لا أحد يعبأ بي إنهم يخطون علىٰ الأوغاد! العبور أرهقهم. لقد أوشكتم أن تقتلوا



ماما، وهو أيضا، ليست غلطتك يا عزيزي، لا تشعر بالبؤس، إنهم النازيون، بفرقهم المتدفقة. كان لأمي شعر ناعم وجميل. ترين، يتكلمون لغة مختلفة. يا الله كنت أتحدث هذه اللغة المختلفة، الألمانية أفضل، ما التي أتحدثها الآن، الانجليزية، لماذا هما مختلفتان، لا أدري، هذا أصعب. لقد نسيت تقريبا تلك الأخرى وحاليا الانجليزية لست أتقنها، بابا هكذا أيضا، يتحدث بلباقة، يقولون إنه كان مدرسا، الآن، يا له من مضحك تخيلي أن بابا يدرس.

قهقه هارشيل بصوت عال، وقهقهت ريبيكا. إن الأمر مضحك: أن تتخيل بابا في الفصل، بملابس العمل القديمة، والكاب. وقطعة الطباشير في يده، يحملق وينظر هنا وهناك.

لا، لا تستطيع أن تتخيل.

كان عمر هارشيل أيام المحيط الأطلسي تسعة أعوام، فلا ينسى ما حدث، ولكن لا يتذكر. بشكل واضح، لقد تكونت غمامة على ذاكرته منذ ذلك الحين. لأن ريبيكا عندما سألته عن المدة التي تستغرقها السفينة لعبور المحيط أخذ هارشيل يعد على أصابعه حتى توقف قائلا إنها مدة طويلة، وهناك كثير من الناس ماتوا وألقوهم طعاما لأسماك القرش، لقد كنت دائما خائفة أن تموتي، مرض الدوسنتاريا في المعدة. هذا كل ما يعرفه، إنه زمن بعيد. سألت ريبيكا:

«عشرة أيام، عشرين؟»

فأجابها هارشل بغلظة:

«ليست أيام بل أسابيع»



كانت ريبيكا صغيرة، ولكنها تريد أن تعرف الأرقام والحقائق، ماذا كان حقا وماذا تم تأليفه.

قال هارشيل وهو يزمجر: «اسألي بابا» لقد كان هارشيل يزمجر دائما إذا ما أحد سأله عن شيء لا يعرفه مثلما غضب ذات مرة على مدرسته حتى أنها جرت خارج الفصل طلبا للمساعدة. ينظر هذا العنكبوت في عين هارشيل وفي أسنانه الصفراء العارية كالكلب، اسأل بابا إذا كنت تواقا لتعرف كل هذه التفاهات.

مال كالشبح عليها، مد يده صافعا وجهها بالجنب. كل ما عرفته ريبيكا بعد ذلك أنها ارتمت كدمية من قماش، مذهولة حتى أنها لا تستطيع الصراخ، وخرج هارشيل من الغرفة.

اسألي بابا. لكن ريبيكا تعرف أنها لا تستطيع أن تسأل بابا، لا أحد منهما يستطيع أن يقترب منه محتملا أن يضحكه.



شوارت! هذا اسم يهودي أليس كذلك؟

لا، إنه ألماني. لقد كان هو وعائلته بروتستانت ألمان. تنحدر عقيدتهم المسيحية من طائفة بروتستانت أسسها أحد معاصري مارتن لوثر في القرن السادس عشر.

طائفة صغيرة جدا لها تابعون قلة في أمريكا.

«ابلع كبرياءك كالبلغم يا جاكوب»

إن هذا المكان الأمريكاني الغامض ودائم التغيير بالنسبة له كحلم ليس له، هذه المنطقة التي سكن فيها هو وعائلته، هذا المكان الذي أخذ منه مأوىٰ مؤقتا، وادي تشاتاقوا. علىٰ تلال من جبال تشاتاقوا.

إنه منظر جميل؛ مزارع، غابات، حقول مفتوحة. ترغب أن تراه ولو بظهر محني، وعين عليها غشاوة، وقلب مضني من الخفقان.

وهناك الولايات المتحدة، إنك لا تتلعثم في هذه الكلمات ولكن تقولها بطلاقة وإعزاز. لن تقول أمريكا لأنها كلمة كان يستعملها المهاجرون، الولايات المتحدة هي الكلمة.

كما اعتاد يوما ما علىٰ كلمة الحلفاء، قوات الحلفاء التي في يوم ما ستحرر كل أوروبا من قوة المحور.

الفاشية، تلك الكلمة القبيحة، لم يجد جاكوب صعوبة في قولها، ولكن لا يقولها أبدا علىٰ الملأ، ولا كلمة النازي، فهو يعرف هذه الكلمات جيدا ولكن لا يتلفظ بها.



«ابلع كبرياءك، المعترف بالجميل سعيد، أنت رجل سعيد»

يريد أن يؤدي عمله، ويكتسب الاحترام والأجر الذي يدفعه له موظفو المحليات بالمقابر الذين وظفوه، والذين يحلو لهم أن ينادوه بطريقتهم الأمريكية الودودة، جاي كوب.

وظفوه كما كلب عندهم، أو واحد من عبيدهم الزنوج السابقين.

في المقابل ظل جاكوب شوارت حريصا أن يخاطبهم باحترام. فقد كان مدرسا ويعرف كيف يخفف من حدة تفاهات هؤلاء الموظفين، فكان يخاطبهم دائما. سيدي، سعادتك... كان يتحدث ببطء، بإنجليزية متعذرة، بأدب جم، وهو حليق الشعر مهندم الثياب. أمسك الكاب القماش بكلتا يديه، وهو حريص في رفع عيونه، ليس جبنا بل شراسة، مليئا بالبغض، وبتردد نحوهم، يشكرهم علىٰ كرمهم له، وتوظيفه، ومده ببيت في المقابر ليسكن فيه.

«ممنون جدا! شكرا لكم يا سادة»

(بيت، يا لها من كلمة غريبة لهذه الزريبة الحجرية القذرة، أربع غرف مزدحمة بألواح خشب في الأرضية، وجدران حجرية فظة وموقد فحم وحيد يملأ دخانه كل الفراغ حتىٰ تنشف الأنوف وتنزف. هناك طفلته الصغيرة، ابنته ريبيكا، لكم يمزق قلبه أن يراها تكح وتلفظ طعامها، وهي تمسح الدم من علىٰ أنفها)

«هذا وقت الجنون في أوروبا، أشكرك بالنيابة عن زوجتي وأطفالي أيضا»



كان رجلا محطما، رجلا أكلت الفئران أحشاءه. مع ذلك عنيد، وماكر أيضا، يرىٰ كم هؤلاء الآخرون يبتسمون له بشفقة، وبعض الاشمئزاز. فإنهم بالطبع لا يقدمون علىٰ مصافحته. لكنه يرىٰ أنهم ودودون معه.

منحوه التأشيرة، بعد تأخير طويل، ومعاناة، وإعطاء رشاوي للذين يسيرون العمل، في قنصلية أمريكا في مارسيليا. تم ختم المستندات بخاتم الولايات المتحدة.

ما لم يقله لهؤلاء الآخرين: كيف كان في ميونخ موجها للرياضيات في مدرسة أولاد وكان حكما شهيرا لكرة القدم ولما تم فصله من الكلية عمل كمساعد مطبعجي في مطبعة متخصصة في الكتب العلمية. كانت مهارته في تصحيح المسودات مشهود لها، وكذلك صبره ودقته. لم يكن راتبه كبيرا، ولكن راتب محترم بالإضافة إلىٰ بيت له هو وأسرته منزلا خاصا بهم، ويمتلكون أثاثهم، بما فيه بيانو لزوجته، في مكان جيد قريب من أبويها وأقاربها. لم يخبر هؤلاء الآخرين عمن أدرك أنهم خصومه في أوائل ١٩٣٦ أنه رجل متعلم، لأنه يعلم أن لا أحد منهم حصل علىٰ تعليم أكثر مما يسمىٰ ثانوي، هو يعلم أن شهادته الجامعية مثل نبوغه، ستجعل منه أكثر من شاذ في نظرهم، وعلاوة علىٰ ذلك فإنه سيثير الشك.

في الليل، وعلىٰ السرير الوعر، وسط الروائح الكريهة قال لآنا: «في غضون أيام، نعم، افعلي ما عليك، لا تضعفي أبدا، لا ليس قبل الأطفال، فعلينا كلنا ألا نضعف، سأوفر كل بنس، سوف ننتقل من هذا المكان القميء خلال هذه السنة، أقسم علىٰ هذا.



استدارت زوجة جاكوب شوارت، التي بجانبه، وجهها في الحائط الذي تعشش في شقوقه العناكب، دونما أي إجابة.



«لماذا تريد أن تعرف ذلك؟ من ذا يسألك عن هذه الأشياء؟ هل أحد ما سألك؟ في المدرسة مثلا؟ هل يتجسس علينا أحد ما؟»

كان الولدان، خصوصا هارشل، يشعران بالعار من أمهما. ألا يكفي أنهما ابنا حفار القبور بل وابنا زوجة حفار القبور، يا للعنة.

يقول جوست لهارشيل إن ماما لا تحتمل هذا، ويخبره هارشل أنه يعلم هذا، وماذا يفيد أنه يعلم، إنه لا يجعل الأمر هينا، الاثنان غير محقين في تفكيرهما، لكن بابا علىٰ الأقل يستطيع أن يعتني بنفسه، فهو يتحدث بالإنجليزية بشكل تفهم منه، وكذلك لدىٰ بابا، ما الذي يتصف به الكبار، له وقار.

ذات مرة، عندما كانت ريبيكا صغيرة علىٰ الذهاب إلىٰ المدرسة، وبينما هي في المطبخ مع أمها دق زائر علىٰ الباب الأمامي لكوخ عامل المدافن.

الزائر امرأة في منتصف العمر، بدينة الأرداف، وجهها عريض ومحمر كأنه شيء مدعوك بخرقة قماش، وتربط حول رأسها إيشارب قطن.

إنها زوجة مزارع يقطن علىٰ بعد ستة أميال. لقد سمعت أن أسرة شوارت من ميونيخ، هم أيضا من ميونيخ، ولدت هناك عام ١٩٠٢! وجاءت المقابر لترىٰ مقبرة أبيها، وأحضرت معها لأسرة شوارت كيك بالتفاح خبزته هذا الصباح.

أضحت ماما ترتعش لدىٰ الباب وكأنها استيقظت من كابوس، يصفر وجهها ويملأه الشحوب كأنما تصفي منه الدم. وراحت عيونها



ترمش بسرعة وتنهمر منها الدموع. تتلعثم، إنها مشغولة، إنها مشغولة جدا. ريبيكا تسمع الزائرة وهي تخاطب ماما بقسوة، وإن كانت بود، وكأنهما أختين، تنطقان الكلمات بسرعة حتىٰ أن ريبيكا لم تستطع فهم كلمة، هذه كلمات ألمانية، مثل. بنت، سلف، جيران... لكن ماما تغلق الباب في وجه المرأة. ثم تذهب بتعثر لغرفة النوم وتغلق الباب أيضا.

تقضي ماما بقية وقت ما بعد العصر في غرفة النوم، تخرج ريبيكا وتغلق الباب، وتسمع صرير السرير. تسمع ماما وهي تتحدث وتتخانق مع شخص ما بتلك اللغة الممنوعة.

«ماما» وتحشر ريبيكا أصابعها في فمها لكي لا يسمعها أحد.

تاقت ريبيكا بشدة أن تكون مع ماما، أن تحضن ماما، وماما تفعل ذلك أحيانا، فماما أحيانا تغني وتدندن بجوار سرير ريبيكا الصغير، أحيانا تضفر شعرها، وتنفخ في أذنها، وتنفخ خصلات الشعر الصغيرة علىٰ رقبتها لتدغدغها برقة، وليس كما يفعل هارشيل بعنف. تاقت بشدة أن تشم رائحة عرق أمها المختلط برائحة الطبخ وحتىٰ برائحة الكيروسين العفنة.

لا تظهر ماما مرة ثانية إلا عند المغيب، وجهها مغسول وشعرها مضفر وملفوف علىٰ رأسها بالطريقة التي تجعل ريبيكا تفكر في الثعابين الصغيرة، لقد رأتها تتجمع ملتفة معا في العشب في الجو البارد وهي مصعوقة وتتحرك ببطء. ماما زررت الفستان حتىٰ رقبتها لأنه مفكوك. ترمش بعينها المحمرة غير الواضحة لريبيكا، وبصوتها



الهامس الأجش تخبر ريبيكا ألا تقول لأبيها شيئا، لا تخبره بأن أحدا ما جاء اليوم لبابنا.

«سيقتلني لو عرف، ولكني لم أدخلها، لم أدخلها، وهل قلت لها كلمة واحدة؟ لا، لم أقل، أبدا»

من خلال النافذة استطاعوا أن يروا حركة في أقصىٰ ركن من المقابر. جنازة كبيرة وبها مودعون كثيرون، بابا سيكون مشغولا بعد مغادرة آخر مودع.

«أهلا، شخص ما ترك لنا بعض الكيك، إنه يشبه...»

إنه هارشيل عاد من المدرسة، دلف للمطبخ وهو يحمل علبة مخبوزات، مغطاة بورق شمعي. إنه كيك التفاح الذي تركته زوجة المزارع علىٰ باب البيت الأمامي.

طوت ماما يديها علىٰ صدرها، وهي تشعر بالذنب، دون أن تتكلم. تدفق الاحمرار في وجهها كالنزيف.

حشرت ريبيكا أصابعها في فمها ولم تتكلم.

قال هارشيل وهو يضحك: «بابا سيقول بعض الأوغاد يريدون أن يشفقوا علينا» ثم قطع جزءا كبيرا من الكيكة وراح يمضغها بصوت عال وهو يقول: «ولكن الرجل العجوز غير موجود حاليا»



«سوف نحتمل هذه المعيشة، لفترة»

لقد قالها مرات عديدة، شهور، وها قد مرت سنين.

عندما تقدم للوظيفة سأل عن بئر المياه باستحياء، لأنه لم يشأ أن يزعج موظفي البلدية. اتضح أنهم كانوا يقدمون له معروفا، أليس كذلك؟ مجرد أنهم يتحدثون معه، وهو يعاني من حديثه بالإنجليزية السيئة.

طمأنوه بابتسامتهم الرقيقة أن البئر نقية ولم يتسرب لها شيء من المقابر.

«سنضطر أن نتعود على هذا، في الوقت الراهن»

هل هناك أي رائحة عفنة في المقابر؟ رائحة بعد المطر ملبدة وخانقة؟ لحمة نتنة. رائحة لحمة مدودة؟ رائحة شيء يتحلل؟

لقد أصبحت رائحة جاكوب شوارت لا يخطئها أحد، لقد نفذت خلال جلده المجعد، وشعره الأشعث. كل ملابسه في فترة وجيزة يمكن تنظيفها بصابون البوراكس.

بالطبع عرف أن أطفاله عليهم أن يتحملوا التهكمات الناشئة عن الجهل في المدرسة. فهارشيل كبير بما فيه الكفاية ليدافع عن نفسه. أما أوجست فكان هيابا، خيبة أمل أخرى لأبيه، فهو معقود اللسان وسريع التأثر، وهناك أيضا ريبيكا الصغيرة سريعة التأثر جدا.

لكم يؤلمه أن يفكر في ابنته وهو لا يستطيع أن يحميها وزملاؤها في المدرسة يضحكون عليها. وحتى من مدرسيها الجهلة في المدرسة.



«ابنة حفار القبور!»

كان يخبرها بشكل جاد وكأنها في سن يجعلها تفهم ما يقول:

«كما ترين، البشر يخافون من الموت، لذلك يقولون عليه النكت. إنهم يرون في خادم الموت، ويرون فيك ابنة خادم الموت، ولكنهم يا ريبيكا لا يعرفوننا، لا أنت ولا أنا. خبئي ضعفك عنهم ويوما ما سيدفعون ثمن هذا، هؤلاء الذين يستهزئون بنا»

«كل أفعال البشر تناشد الخير»

هكذا رأىٰ هيجل، من بعد أرسطو، ففي أيام هيجل (مات سنة ١٨٣١) كان ممكنا أن تصدق أن هناك تقدما في تاريخ البشرية؛ التاريخ نفسه يتقدم من المجرد إلىٰ المادي، ذلك ما كان يفهم في ذلك الوقت. وكان هيجل يؤمن أيضا أن الطبيعة ضرورية، وحتمية، مادام الإنسان يعرف الحرية.

بالطبع قرأ جاكوب شوبنهاور، كلهم في دائرة جاكوب قرئوا شوبنهاور، لكنه لم يستسلم لتشاؤمه. العالم فكرتي، والفرد هو الارتباك. الحياة نضال وصراع لا يتوقف. كل له إرادة؛ فالحشرات العمياء المخبولة تتكاثر قبل أن تقتلها أول عاصفة للصقيع. ولقد قرأ لودفيغ فيورباخ الذي يكن له كل الحب. لقد أثاره نقد الفيلسوف اللاذع للدين، والذي عرضه فيورباخ بأنه مجرد مخلوق من بنات أفكار الإنسان. إسقاط أفكار الإنسان عن القيم العليا في شكل إله، بالطبع هي كذلك، آلهة العصور القديمة الملحدة، ياهوه اليهود المرعد، عيسىٰ المسيح علىٰ صليبه، محزون القلب وشهيد، ومبتهج



بالنصر في البعث. لذلك قال جاكوب، وهو في سن العشرين: «كل هذا خداع وحلم» مثل هذا العمى، والخرافة، وطقوس التضحية التي ألبست ثوبا متحضرا ما هي إلا طرق من نهج الماضي، انتهت أو انقرضت في القرن العشرين.

لقد قرأ كارل ماركس، وأصبح اشتراكيا متحمسا.

في بداية حبهما قالت آنا لجاكوب إن عيونها مترعة بحبه. لقد تحدث معها بعاطفة عن معتقداته الاشتراكية وكانت مبهورة بيقينه وإن كانت مصدومة قليلا. لا دين، لا آلهة، لا شيء، لقد صارت خلفيتها الدينية مثله، وكذلك أهلها كانوا مثله، فخورين باندماجهم في ثقافة الطبقة الوسطى الألمانية. في وجوده كانت تؤمن بما يؤمن به، لقد كانت تقلد كلمات معينة منه: المستقبل، البشرية، الذين يشكلون مصائرنا.

الآن نادرا ما يتكلمون معا. لقد خيم بينهما الصمت الوخيم. وجلاميد من الصمت صارت بينهما. كأنهما حيوانات في عمق البحار بلا عيون يقترب كل واحد من الآخر بألفة وهم يدركون بعضهم البعض وأحيانا يتكلمون، وأحيانا يتلامسون، ولكن ما بينهم الآن موات فقط.

آنا تعرفه كما لا يعرفه مخلوق آخر. فهو رجل كسير، وجبان، كان بلا رجولة، والخونة أماتوا ضميره أيضا. لقد حارب لكي ينقذ نفسه وأسرته الصغيرة، لقد خان عددا من أقاربه الذين وثقوا فيه، وآنا أيضا؛ ولربما فعل الأسوأ لو أنه وجد الفرصة. ما كان لآنا أن تتهمه، لأنها شريكة له، حيث أنها أم أبنائه، لكم جمع أموالا باهظة لكي يهرب



من ميونيخ، رحلتهم بالطيران خلال فرنسا، وحجزهم للسفينة في مارسيليا. لم تسأل آنا عن شيء، فقد كانت حاملا بالطفل الثالث، كان معها الابنان هارشيل وأوجست، لم يهمها سوىٰ أنها ترعىٰ أبناءها، حتىٰ لا يموتوا.

«سوف نعيش من أجلهم، أليس كذلك؟ لن ننظر خلفنا»

هكذا كان يعطي وعوده، كما يفعل الرجال، رغم أنه فاقد الرجولة، ليس له في الجنس، فالخونة قتلوا لديه الجنس أيضا. أعضاؤه الجنسية لا فائدة منها، فاكهة عطبة عفنة. شيء مثير للشفقة، مضحك. فإنه يكاد يستطيع أن يتبول من قطعة اللحم البارزة، وأحيانا بكل صعوبة، أوه هذا يكفي!

«لقد قلت، أننا نحتمل هذا في الوقت الحالي»

كما أن آنا خافت أن تتحدث عن مخاوفها من المياه الملوثة، حتىٰ بعد الأمطار الغزيرة حين تكون البئر أكثر عكارة فلا يستطيع الأطفال بلعها فيلفظونها، كذلك آنا لا تستطيع أن تتكلم عن المستقبل. ما كان لها أن تسأله عن أي شيء، كم من المال وفر، علىٰ سبيل المثال، حينما يغادرون ميلبرن.

وكم كان مرتبه، كعامل في المقابر؟ سيسأل حالا زيادة من موظفي البلدية.

لقد سأل بعد عامين من عمله كعامل مقابر بشكل مؤدب، وبتواضع، فكانت إجابتهم حذرة علىٰ نحو جاف:

«حسنا، جاي كوب، ربما العام القادم، هذا يعتمد علىٰ الميزانية، والضرائب، كما ترىٰ»



فلمح لهم بأدب أنهم لا يدفعون شيئا لابنه الكبير الذي يساعده عدة ساعات أسبوعيا، ولا لابنه الصغير الذي يساعده أحيانا، فلمحوا له أنه يسكن في كوخ في المقابر بلا مقابل، ولا يدفع ضرائب أيضا.

«أنت لست مثلنا، باقي المواطنين، يا جاكوب، نحن ندفع ضرائب»

كان يعرف أنهم يلقبونه من وراء ظهره بشوارت الكراوت... شوارت اليهودي!

(ألم يكن لشوارت أنف يهودي؟ لم ير أحدا يهوديا بالفعل إلا الآن، فمثلا جريدة الحياة، كولير، عرضت كارتون عن النازي عدو السامية، كل كاريكاتير جنبا إلىٰ جنب مع صور مضحكة عن المدنيين البريطانيين غير الأكفاء الذين يتدربون من أجل الدفاع عن الوطن)

يا للعنة! لقد تعهد أن يريهم، هؤلاء الآخرين الذين أهانوه هو وأسرته. هؤلاء الآخرون الذين كان ولاؤهم في السر لهتلر. هو أيضا يحتفظ بأسراره في نفسه، إنه يوفر مالا لكي يهرب. لقد هرب من قبل من هتلر، وسوف يهرب من ميلبرن، ونيويورك. فكان يدخر بنساته بحرص فبالرغم من أنه غير يهودي (فهو ليس يهوديا) إلا أنه يمتلك مكر اليهود القديم، لكي يمر من بين مخالب الأعداء، ويزدهر، ثم ينتقم في الوقت المناسب.



يوم أن جاء جوس من المدرسة وهو ينتحب من البكاء يسأل ماما ما هو اليهودي، من هو اليهودي عليه اللعنة، هؤلاء الأوغاد على الطريق كانوا يغيظونه. أوشكت ماما أن يغمى عليها، وهي تبدو كامرأة غريقة، وهي تربط الطرحة على رأسها ـ وتجري لكي تجد بابا في المقابر، وهي تتلعثم وتلهث، وكانت هذه المرة الأولى في ذاكرته أن يرى زوجته بعيدة بمثل هذه المسافة عن المنزل، في المقابر حيث كان يمسك بالمنجل ليحش به الحشائش والورد الشوكي المنتشر في جوانب التلال، لقد كان مصدوما ليراها مرعوبة بهذا الشكل، غير مهندمة ـ في ثياب البيت الرثة، وفي الحقيقة كانت جواربها مطوية حتى رسغ قدمها، كانت ساقاها ساطعتا البياض ومغطاة بشعر بني محمر، ساقان سمينتان، ووجهها الآن منتفخ، ومتورم. بينما كانت يوما من الأيام فتاة جميلة ورشيقة، وتبتسم بخجل وبولع لزوجها المدرس وهي تعزف لشوبان، وبيتهوفن، ومندلسون، يا الله كيف أحبها، والآن هذه المرأة الحمقاء التي تتلعثم في الانجليزية المكسرة حتى أنه يتعب لكي يفهم ما تقول، اعتقد أن هؤلاء الأولاد الملاعين من خلف الحائط يقذفون بكيزان الذرة على الغسيل المغلق على الحبل، أو عليها، وبعد ذلك راح يسمع يهودي، يهودي، يهودي

هذه إحدى أفعاله العجيبة في حياته في أمريكا

من تاجر في ميلبرن، في أحد أيام الربيع البارد الرطب ١٩٤٠ اشترى الراديو. هو جاكوب شوارت! لقد أخافه اندفاعه، وثقته السخيفة في نزاهة الغرباء. فالراديو مستعمل، وليس له ضمان.



بالطبع اشترىٰ جاكوب الراديو بدون أن يبلغ آنا، فلم يعد يتعب نفسه بتبليغها كل شيء يفعله. لقد صارا يمتعضان من بعضهما بعض بشكل غامض. استغرق الصمت التام بينهما ساعات في النهار، أو الليل، من جرح من؟ متىٰ بدأ؟ عاشا معا في الكوخ الكئيب مثل الحيوانات الصماء العمياء التي تحت البحار، لا يكاد يدرك أحدهما بالآخر. تعلم جاكوب أن يعبر عن طلباته بالتذمر، والتكشير، والإشارة، وهز الكتفين، وتحريك جسمه علىٰ الكرسي، ناظرا لآنا فهي زوجته، خادمته، يجب أن تطيعه. فهو المتحكم في الماليات، والتعاملات مع العالم الخارجي له وحده. منذ أن منع تلك المرأة المرعوبة من التحدث بلغتهم الأم حتىٰ لو كانا وحدهما في غرفة النوم، حتىٰ علىٰ السرير في الظلام، وجدت آنا نفسها في ورطة، فكرهت أن تضطر للحديث بالإنجليزية في كل وقت.

في أول مساء، بدا جاكوب طائشا ورحب الصدر؛ فدعىٰ الأسرة كلها لغرفة الجلوس ليستمعوا للراديو الذي يشبه الصندوق الخشبي والذي وضعه بجوار الكرسي الخاص به.

ظلت آنا بعيدا، بينما الأولاد وريبيكا افتتنوا به. لكن هناك خطأ في التقدير، فقد أدرك جاكوب أن الأخبار في ذاك المساء عن هجوم تم في البحر الشمالي، وأن المدمرة البريطانية سراج الليل أغرقتها السفن الحربية الألمانية، ولكن الجنود الذين نجوا من الغرق تم إنقاذهم من قبل طاقم لسفينة حربية ألمانية... في الحال غير جاكوب رأيه في أن الأطفال يستمعون للراديو، وأمرهم بالخروج من الغرفة.

«سفينة ألمانية تنقذ بحارة بريطانيين! ماذا يعني هذا؟»



«لا ليس متوقعا، هناك شناعة، لا يحق للأطفال أن يستمعوا لها»

قصد أن الأخبار غير متوقعة، لذلك فهي قبيحة!

بعد تسعة عشر عاما، وهي تسمع الراديو في غرفة نيلي يدندن ويغمغم تتذكر ريبيكا راديو أبيها الذي أصبح من أساسيات المنزل. كأنه إله حقود، يشد الانتباه، له تأثير لا يقاوم، ومع ذلك لا يمكن الاقتراب منه، ولا سبيل لمعرفته. ولأن لا أحد يمكنه الجلوس علىٰ كرسي بابا (القديم المضعضع، بمسنده وظهره الصلب، نظرا لمتاعب بابا في الظهر) فلا يمكن لأحد أن يدير، أو حتىٰ يلمس الراديو إلا بابا.

«هل تسمعون؟ لا أحد»

لقد كان جادا في صوته المتهدج. وكان المقصود بالتهديد هارشيل وأوجست، فآنا كانت تتأفف أن تلمس الراديو، وريبيكا كانت مطيعة للأوامر.

إن بابا غيور علىٰ هذا الشيء الملعون (كما تهكم هارشيل) وكأنه صديقة له. عليك أن تتعجب ماذا يفعل الرجل العجوز بالراديو، في بعض الليالي، هاها.

غمغم هارشيل من وراء ظهر الرجل العجوز بسخط: «اللعنة، أخبار الحرب، وكأن ليس في الراديو غير أخبار الحرب، ليس هناك موسيقىٰ، أو فكاهة، إن هذا لن يقتل الرجل العجوز إذا استمعنا له»

كان هارشيل كبيرا حتىٰ يعرف ماذا يذاع في الراديو، فإن له أصدقاء في المدينة أسرهم تمتلك راديوهات، ويستمعون لمثل تلك الأشياء وليس أخبار الحرب فقط.



كانوا (هارشيل، أوجست وريبيكا) من خلال الباب يتنصتون للراديو، فيسمعون الصوت يعلو وينخفض كالموجات ولكن لا يتبينون أي كلمة، لأن بابا جعل الصوت منخفضا، ماذا تقول الأصوات؟ وما أهمية الأخبار؟ ريبيكا صغيرة فلا تعرف معنىٰ الحرب (فيقول لها هارشيل شيء يشبه الشجار باستخدام البنادق، والقنابل والطائرات أيضا) ماما قالت إن الحرب بعيدة جدا، آلاف الأميال بعيدا عن هنا، وهارشيل وأوجست يعرفان عن النازيين وعن هتلر، ويقولان إن الحرب بعيدة جدا أيضا، ولن تصل للولايات المتحدة، فبينهما المحيط الأطلسي، ولن تصل إلىٰ مكان مثل ميلبرن، وقال هارشيل. لن يصل النازيون لنا في هذا المكان.

استهزأت أم ريبيكا بالراديو علىٰ أنه لعبة لبابا اشتراها وهم لا يقدرون علىٰ ثمنه، ولكنه اشتراه، إنه اشتراه، إنها لن تسامحه أبدا.

تمر الشهور في عام ١٩٤٠، وحل عام ١٩٤١. ما هي أخبار الحرب؟ قال بابا إنها قبيحة، وتزداد قبحا بمرور الوقت. ولكن الولايات المتحدة ما زالت خارج الحرب مثل الجبان الذي لا يريد أن يصاب. تعتقد أنها إذا لم تمد يدها لبولندا، أو فرنسا أو بلجيكا أو روسيا فإنها ستمدها لبريطانيا.

ماما متوترة، وبدأت تغمغم بصوت مرتفع. أحيانا تقول بصوتها الأجش

«أخبار الحرب لا تليق لأذن الصغار»

ريبيكا مرتبكة. هل بابا يريد الحرب هنا؟ هل هذا ما يريده؟



في أحد المساءات، بعد أن انتهى العشاء، لم يذهب بابا لغرفة المعيشة، بل ظل في المطبخ، لديه هو وماما مفاجأة لهم.

راح يسأل هارشل وأوجست: «هل ترغبان في أخ؟»

وراحت تسأل ريبيكا: «هل ترغبين في أختين؟»

هكذا تكلم بابا وبجواره ماما وهي متوترة جدا، وتبدو عليها الدوخة، صبية، عيونها لامعة، الأطفال يحدقون، بينما الأب ينزع صورا من مظروف لينشرها على مفرش مشمع فوق طاولة المطبخ. لقد كان مساء دافئا من شهر يونيو، والمقابر مفعمة بحيوية أصوات الحشرات الليلية، وبعض الفراشات قد دخلت المطبخ، تحوم حول المصباح المكشوف المعلق في السقف. أثناء انفعاله، اصطدم رأس أبي باللمبة فتأرجحت هالة من الضوء، وتطوحت حول الطاولة؛ فمدت ماما يدها لتعدل اللمبة.

إن هؤلاء أبناء خالتهم؛ من مدينة كوفبيرن في ألمانيا عبر البحار وعمهم ليون، وخالتهم دورا، الأخت الصغرى لأمهم

راح الولدان يحدقان، وتحدق ريبيكا... أبناء خالتهم، عمهم، خالتهم. لم يسمعوا بتلك الكلمات من أبيهم من قبل.

«تتذكرهم يا هارشيل، أليس كذلك؟ عمك ليون، وخالتك دورا، والزبيتا بنت خالتك الصغيرة، ربما لا تتذكرها، فقد كانت صغيرة حينئذ»

انحنى هارشيل على المنضدة لكي يحدق في الصور، التي تبدو منمنمة بجانب إبهام بابا المبسوط. وكان يتنفس بتأفف من أنفه:



- لماذا أتذكرهم؟
- لأنك رأيتهم يا هارشيل عندما كنت صغيرا في ميونيخ.
- ميونيخ؟ ما هذا؟! وأضاف مغمغما: «ربما نعم، وربما لا»

هدّأ ذلك من حدة بابا فأخذ الصورة من هارشيل وراح يفردها على الطاولة وكأنها شيء ثمين، كانت هناك خمس صور، مجعدة، وباهتة لحد ما. كانت ماما تقول لريبيكا «أخواتك الجدد يا ريبيكا، أترين؟ نعم؟»

فسألتها ريبيكا عن أسمائهم، فنطقت ماما أسماء الأطفال وكأنها أسماء خاصة «الزيبيتا، فرايدا، جولي»

فراحت ريبيكا تردد بصوتها الطفولي البريء «الزبيبيتا، فراييدا، جوييلي»

قالت لها ماما إن الزيبتا أكبرهن؛ اثناعشر أو ثلاثة عشر عاما، وفرايدا الصغرى في عمر ريبيكا، بينما جولي بينهما»

رأت ريبيكا صورا كثيرة في الجرائد والصحف، ولكنها لم تر صورا فوتوغرافية، تلمسها بيدها، لأن أسرة شوارت لا تمتلك كاميرا، فهي كما يقول بابا رفاهية، وهم لا يمتلكون نقودا ليشتروا شيئا للرفاهية.

هؤلاء الغرباء لم يكونوا ينتمون لشوارت، بل لمورجنستيرن، اسم مورجنستيرن اسم جديد وموسيقى[3].



قالـت ماما: «سترون، هناك متسع» هـز هارشيل كتفيـه داخـل القميص الذي سقطت نصف أزراره قائلا إن البيت أصغر من أن يسع لهذا العدد من البشر، أما جوس الذي ما زال منكفئا على الطاولـة، خائفا أن يرفع وجهه لوجه أبيه قال لمرة ثانية إن جويل يمكنه أن ينام معه، فالمكان يتسع، فالأمر بالنسبة له على ما يرام.

فقال هارشيل بصوت مرتفع:

«يا للجحيم، من ذا سينام معه وسيبلل السرير كل ليلة، كفاية أننا ننام جميعا في غرفة واحدة كالخنازير.

راح هارشيل يضحك ويفرك في أذنه اليسرى التي صفعه بابا عليها، ليظهر أنها لا تؤلمه ويقول «اللعنة أنا لا أهتم، لن أعيش في هذا المستنقع. فلو أن الحرب قائمة فسوف ألتحق بالجيش، هناك شباب أعرفهم سيلتحقون بالجيش وأنا معهم، سأطير بالطائرة، وألقى بالقنابل كاللهيب، سأذهب»

حاولت ريبيكا ألا تسمع الأصوات العالية، فأخذت تنعم النظر في فرايدا، أختها فرايدا (ولربما تصدق) إنها أمعنت النظر فيها. الآن تعرف كل منهما الأخرى. الآن بينهما سر تحتفظان به. رفعت ريبيكا الصورة للضوء لكي تنظر فيها عن قرب. آه، إنها تريد أن ترى قدمي فرايدا، نوع الحذاء الذي ترتديه فرايدا! يبدو أنها تتيقن أن فرايدا ترتدي حذاء أفضل من الحذاء الذي ترتديه ريبيكا. إن الجاكت الذي ترتديه فرايدا أفضل من أي شيء ترتديه ريبيكا. كانت ريبيكا تفكر في كوفبرين في ألمانيا فيما وراء البحار.



يبدو لريبيكا، حسبما تتخيل من الصورة، أن أبناء خالتها يقفون في الخارج، خلف المنزل في مكان ما. حيث الشجر في الخلفية، وعلىٰ العشب، ما يشبه الكلب الذي به علامات بيضاء علىٰ وجهه، كلب صغير مدبب الأنف، مفرود الذيل.

صاحت ريبيكا «فرايييدا»



في شهور الصيف لم تكن ريبيكا لوحدها، فكما تتذكر أنها كانت تلعب وحدها، ولكن الآن مع أختها الجديدة فرايدا. لطالما تتحدث البنات ويتهامسن مع بعضهن بعض، لم تعد ريبيكا وحدها بعد الآن، لم تعد في حاجة للالتفاف حول ماما، تصطدم بساقيها حتىٰ تدفعها ماما بعيدا شاكية أن الجو حر جدا ولا يحتمل الالتفاف حولها.

كان هارشيل دائما ما يعطي أخته هدايا كان يجلبها لها من مقلب القمامة. هناك دميتان أحضرهما لها، اسمهما ماجي وميني، الآن ماجي دمية فرايدا وميني دمية ريبيكا، والأربعة يلعبن معا في جانب البيت بين النباتات. ماجي أجمل الدميتين لذلك أعطتها ريبيكا لفرايدا لأن فرايدا أجمل الأختين، وخصوصا لأنها من كوفبرن بألمانيا من وراء البحار. ماجي دمية لها شعر بلاستك بني مموج وعيون واسعة زرقاء، بينما ميني بلا شعر ووجهها متآكل، ومتسخة. الطريقة التي أعطىٰ بها هارشيل ميني لريبيكا أنه رمىٰ بها في الفضاء مصطنعا صوت صراخ طفل رضيع بفمه حتىٰ ارتطمت علىٰ الأرض عند قدمي ريبيكا، فارتجفت حتىٰ بلت نفسها تقريبا. لذلك عندما تسلك ميني سلوكا سيئا أدبيها برميها علىٰ الأرض، وهذا بالكاد يؤذيها، ولكن لن ترغبي أن ترمي ماجي لأنها يمكن أن تنكسر ولأنها الأفضل سلوكا والأذكىٰ لأنها الأكبر. ماجي تستطيع أن تقرأ ولو قليلا. تستطيع ماجي أن تقرأ صحف ومجلات بابا بينما ميني صغيرة ولا تستطيع حتىٰ أن تتكلم. ولهذا فإن ريبيكا وفرايدا كانتا تتهامسان بلا نهاية وسط النباتات التي تنمو بكثافة في عز حرارة النهار لذلك كانت ماما تخرج لتراهما وهي متعجبة وواضعة يدها علىٰ وسطها.



لكم هو غريب أن تكون في تلك الأسابيع من شهر يوليو ١٩٤١ بهجة في الكوخ الحجري كطنين النحل حول أزهار نبات جذع الثعبان الهش والذي يجب ألا تلعب بجواره حتىٰ لا تلدغ، وكان هناك شعور مقزز دفين مثلما الجري السريع جدا في منحدر حتىٰ الوصول لمرحلة الخطر والخوف من الوقوع مع ذلك فاسم مورجنستيرن كان نادرا ما ينطق، وإذا نطق فهمسا. رغم أن مورجنستيرن كان يعني الكبار والصغار إلا أن ريبيكا لم تفكر أدنىٰ تفكير في آباء أبناء خالتها. ففرايدا هو الاسم الوحيد الذي تهتم به، وكأن الآخرون غير موجدين، ولاسيما الكبار غير موجودين.

أو لو أن أهل مورجنستيرن كانوا موجودين فما هما إلا غرباء في الصور، رجل وامرأة شاحبا اللون، بدآ يتلاشيان كالأشباح.



وهكـذا ظلـوا ينتظـرون في كـوخ حفـار القبـور الحجـري داخـل البوابة الأمامية لمقابر ميلبرن.

ظلوا ينتظرون في البداية بنوع مـن الصبر ثـم بعـد ذلـك بنـوع مـن القلـق وازداد القلـق في النصـف الثـاني مـن يوليـو، وفي أوائـل أغسـطس الحار الرطب في وادي تشـاتاقوا. لـم تحضـر أسـرة مورجنسـتيرن التـي كانت قريبـة لآنـا شـوارت. العـم والخالـة والأبنـاء لـم يحضـروا. رغـم إعداد الكوخ لهـم، وتنظيـف السـقيفة الخشـب ـ وتعليـق السـتائر علىٰ النوافـذ، لـم يحضـروا. وفي يـوم مـا، وسـاعة محـددة لمـا تبـين عـدم حضـورهم، وذهـب جـاكوب شـوارت لميلـبرن للتأكـد مـن هـذا جـاء صوت أبيها الذي اخترق قلبها، في غضب، وخزي:

«بالله لماذا، لماذا حدث هذا؟»

لقـد جعلهـا تشـعر بالغثيـان، والدوخـة، وكـأن الأرض تميـد مـن تحت قدميها لما سمعت صوت أبيها بهذا الشكل. وبرغم ذلك كان في صوته ابتهاج أيضا. نوع من الارتياح بأن الأسـوأ قـد حـدث، مـا توقعـه من البداية، لقد كان مصيبا، وكانت آنا شوارت مخطئة لكي تأمل.

«أعادوا تسعمائة لاجئ، أعادوهم للموت»

دفعـت ريبيكـا البـاب ودخلـت المطبـخ، كانـت حافيـة القـدمين، وترتعـد. رأت كيـف بابـا ينظـر إليهـا غاضـبا، بوجهـه المحمـر غضـبا، وعيونه التي تنظر شزرا، وليس فيها أي حب نحوها في تلك اللحظة أو حتىٰ اهتمام. تهتهت؛ ماذا يحدث؟ أين فرايدا؟ ألن تحضر فرايدا؟

طلب منها أبوها أن تخرج من هنا، حالا.



تأوهت ريبيكا: «ماما؟» ولكن أمها لم تلق لها أي اهتمام، متجهة بعيدا للحوض وهي تشهق. لقد أخفت يد أمها الملتهبة وجهها، وراحت تنتحب في صمت. كان جسمها المنساب يهتز كما لو أنه مبتهج. راحت ريبيكا تجري لتمسك بذراع أمها ولكن أبوها منعها قائلا:

«قلت لا»

حدقت فيه ريبيكا ورأت كم هو يكرهها، هرولت للخارج، وهي تتعثر، حافية القدمين. لقد كانت المقابر مكانا ممنوعا، فما كان مسموحا لها أن تتجول بين صفوف المقابر، التي هي مكان الراحة للموتىٰ في الأرض وهي ممتلكات الآخرين. هؤلاء الآخرون الذين يدفعون لجاكوب شوارت، هي تعرف ذلك، لقد أخبروها كثيرا أن الآخرين لا يريدون أي طفلة تجوس بلا هدف بين المقابر التي هي من ممتلكاتهم. حتىٰ أخواها كانا ممنوعين من دخول المقابر إلا ليساعدا أباهما.

تجري الآن ريبيكا، والدموع تغطي عيونها. تشعر بألم في المكان الذي ضغط عليها أبوها في كتفيها. كانت تهمس «فرايدا»، ولكن لا فائدة، فهي تعرف أنه لا فائدة، فهي وحيدة الآن، وستظل وحيدة، فلا أخت لها.

إنها تسمع صرخات المسافرين علىٰ ماريا، في ذاكرتها، ترىٰ ماريا وهي تحترق، إنها ترىٰ الحريق بنفسها، ترىٰ أختها فرايدا وهي تحترق حية.



«لماذا؟ اسألي الله، لا أنا، لماذا يحدث هذا؟»

كانت تختبئ في المقابر لساعات وهي مرعوبة، لا أحد يناديها، لا أحد يفتقدها، ما إن ترىٰ سيارة أبيها البيك اب تبتعد حتىٰ تخرج من مخبئها وتهرول للمنزل ولأمها. كانت أحيانا تأخذ حزمة من زهر البنفسج تقطفها من إحدىٰ الأصاصي.



لـم يعـد يقـال مـن الآن في الكـوخ الحجـري في مقـابر ميلـبرن أي كلمـات مثـل أبنـاء خالـة، أو مورجنستيرن، أو سـفينة، أو ماريـا. ومـن المؤكد لا يقال «كـوفيبرن» أو خالـة دورا، أو «فرايـدا» لكـي لا تسـمع أمهـا أو تتخيـل في حـالات التشـوش أنهـا تسـمع، وحتـىٰ لا يسـمع بابـا فيغضب ويبصق عليها.

سألت ريبيكا أخويها ماذا حدث؟ ماذا حدث لأبناء خالتها؟ هـل فعلا ماريا احترقت؟ ولكن هارشيل يهز كتفيه ويبوّز قائلا: كيف لـه أن يعرف، هو لم يعتقد أبدا أن أحدا سيجيء لميلبرن، ليس عـبر المحيط حيث الغواصات والقنابل. وكـذلك هنـاك مشـاكل تخـص التأشيرات كما كان بابا قلقا لهذا الشأن.

«أترين، ليس هناك متسع لأحـد. هـؤلاء النـاس التعسـاء أتعبونـا، جدا. وكما ترين هذا المنزل لا يسع لأحـد آخـر، وكـذلك تـرىٰ شـئون الهجرة في الولايات المتحدة»

تساءلت ريبيكا: ماذا تكون شئون الهجرة في الولايات المتحدة؟

«الشرطة، كـالجنود، إنهـم يحرسـون الولايـات المتحـدة حتـىٰ لا تـزدحم بالمهـاجرين، مثـل هـؤلاء الـذين يفـرون مـن هتلـر، أنـت لا تستطيعين أن تلـوميهم. ولا تسـتطيعين أن تلـوميهم هنـا أيضـا حينمـا يمنعون الناس من الدخول، لماذا أدخلونا»

وقال هارشيل وهو يبتسم ويهرش في مقدمة وسطه:

«لا أعـرف، ولكـن تـرين أني سـألتحق بالبحريـة، آمـل أن أدخـل الحـرب قريبا»



في أواخر صيف ١٩٤١ أو في مقدمة الخريف، ماما في السرير نائمة، أو راقدة مستيقظة ومغلقة عينيها، أو راقدة مستيقظة وعيونها مفتوحة، ولكن غير مركزة. مغطاة بخيط رفيع كالمخاط الجاف لاصق في رموشها. لو أن ريبيكا همست: «ماما؟» فلن تكون هناك إجابة كالعادة، ربما رمشت كأنها تهش ذبابة.

فهؤلاء الآخرون كانوا دائما يراقبون بشغف أسرة شوارت في كوخها الحجري في المقابر. كل من في ميلبرن، ونيويورك كان يراقب بشغف. منذ عادت سفينة ماريا لميناء نيويورك وكل واحد راح يضحك، ضحكهم الدنيء كالضباع. لك أن تتخيلي كيف كانوا يضحكون وهم ينطقون «مسز شوارتز»، «مسز وارتز»، «زوجة حفار القبور» التي ما عادت تظهر في المدينة وكان يُعتقد أنها مريضة بداء ضموري مثل السل، ورم في المخ، سرطان الرحم.

لن يتم استدعاء طبيب لأن آنا شوارت ترفض تماما دخول أي غريب في مكان ملجأها، وأيضا جاكوب شوارت يرىٰ أن مرضها ليس بالأمر الذي يستدعي أطباء، لقد أصبح التوفير غريزة فيه. لم يعد في حاجة للتأمل في هذه الأكليشهات التي حفظها ليعيد تلك العبارات غير المنتهية المتاحة له في تلك اللغة الجديدة، والتي لا تزال ضعيفة ولكن تتحسن، أوراق الدولار لا تنمو علىٰ الشجر، فلا تفقدها...

عندما يسكر بابا يصبح مزعجا، وعدوانيا، ويتخبط في الأشياء، فتسمع ريبيكا من سريرها حيث ترقد في الظلام مفتحة العينين تتوقع حدوث شيء في الحقيقة لم يحدث طوال ثمانية أعوام. أحيانا لما يسكر بابا يصبح مرحا، وثرثارا، يكلم نفسه، وتارة يسب وتارة



يضحك. لم تكن هناك أي استجابة مسموعة من آنا شوارت. عندما يرقد على السرير تسمع صرير السرير وكأنه ينكسر، وغالبا ما تسمع أزمات كحة، كحة ببلغم متقطعة. من المحتمل أن بابا لا يتعب نفسه في خلع ملابسه، حتى في خلع حذائه الملطخ بالطين والمعقود رباطه.

إن هذا الحذاء مشوه الشكل سيتم قطعه من قدمه بعد موته، لأنه منغرس في لحمه كالحافر.

لم يعد هناك وجبات في الكوخ الحجري، فقط حلقات من الأكل النهم والمنعزل. فغالبا ما يتم التهام الطعام من طاسة القلي الحديد الثقيلة والتي تظل بشكل أو بآخر على الموقد باستمرار. ولذلك لكونها مكسوة بطبقة من الدهن فهي لا تحتاج لتنظيف. كان هناك دائما خبز، كسر ولقم من الخبز، لقد كانت جاكوب شوارت مؤمنا بأهمية اللبن للأطفال. حتى لا تتقوس عظامكم أو تنكسر مثلي. عندما يكون منتبها وليس سكرانا يتذوق اللبن بنفسه، فيشرب مباشرة من الزجاجة كما لو أنه يحتسي بيرة، فيتجرعها بنهم. وراح يمضغ التبغ، حتى أن اللبن تشرّب رائحة التبغ، بعد أن شربه.

تشرب ريبيكا اللبن وهي تشعر بغثيان، فليس أمامها خيار حيث كانت تقضي معظم الأيام جائعة.

تخرج آنا شوارت من غرفتها في الوقت المناسب وتستأنف، إلى حد ما، واجباتها كزوجة وأم. في نفس وقت كارثة بيرل هاربر يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١، حيث أعلنت الولايات المتحدة بعد طول انتظار دخولها الحرب ضد قوات المحور، ولسوف يستعيد جاكوب شوارت طاقته الثائرة القديمة.



- في عالم الحيوان سرعان ما يتم التخلص من الحيوانات الضعيفة، فاخفي ضعفك يا ريبيكا.
- نعم بابا.
- عندما يسألك هؤلاء الآخرون من أين أنت، هؤلاء الناس أهلك، فيجب أن تخبريهم: من الولايات المتحدة، لقد ولدت هنا.
- نعم بابا.

«لماذا هذا العالم مستنقع، إيه! اسألي من يتخذ القرار فيرمي النرد! ليس هناك من هو أكثر رمية نرد. ليس هناك من هو أكثر من ظل يمر علىٰ وجه البحر»

راح يقوم بإيحاء، ويده الجرباء ذات الندوب مضمومة علىٰ أذنه وهو يضحك:

«هنا؟ إيه؟ أزيز الأجنحة؟ بومة منيرفا تحوم هنا في الغسق»

فابتسمت بحزن، نعم بابا.

كانت تتساءل، هل هناك بومة؟ أعلىٰ الأشجار الطويلة، نعم هناك نعيق بوم أحيانا، في الليل. هذه الصرخات العالية التي ينخفض صوتها بسرعة، هذا يعني أنها بومة. لكن ما هي نيرفا، ليس لديها فكرة.

إن نفس أبيها أيضا الذي يفوح برائحة الكحول والعطن أحيانا والعفن يدفعها للقيء. وكذلك ثيابه المتيبسة من القذارة، وجسمه غير المغسول، وشعره الملزق، والسوالف الشعثاء. ومع ذلك فهي لا



تستطيع أن تهرب منه، لا تتجرأ أن تهرب منه. لأنها الصغرىٰ بين أولاده، غير المرغوب فيها، أصبحت المفضلة عند جاكوب شوارت. فأولاده خذلوه، لا يستطيع حتىٰ أن ينظر فيهم. فهارشيل متجهم، ومهمل وكاره للعمل مع أبيه في المقابر، بدون أجر، وجوس كان ينمو نحيفا بأطرافه الطويلة التي تشبه أطراف العنكبوت، وتحديقه الدائم كما لو أنه خائف هكذا، في تلك المساءات كان يتجه بابا لبنته الصغيرة يأخذ يديها ويشدها له، يضحك، ويداعب، يهمس لها بتلك الأشياء الخيالية التي لا تفهمها، كيف لها أن تقاومه، إنها لا تستطيع أن تفلت منه

وهناك ماما التي لا تتغير. طوال فترة طفولة ريبيكا ماما لم تتغير.

رغم أن ماما واعية للذات بشكل مريض ومرتعبة من أن يكون أحد يتجسس عليها غفلت، لتعاسة ولديها، تماما عن كيف تنشر الغسيل علىٰ الحبل في هبوب الريح التي توضح معالم ظهرها، ومؤخرتها، وفخذيها من خلال ثيابها غير الملبوسة بعناية. لقد رأيا أمهما في مرة من مرات الحرج، في الخارج، عندما مر موكب جنازة ببطء بجوار الكوخ الحجري. فاشتكىٰ هارشيل أن ثدي أمه كان متدليا كشطر البقرة، ولماذا لا تلبس ستيانا مثل باقي النساء لكي يجعل الثدي معتدلا وثابتا؟ فدافع جوس أن أنه لا تحتمل، بسبب أعصابها، وعلىٰ هارشيل أن يعي ذلك. فقال هارشيل إنني أعرف ذلك! ولكن هذا لا ينفع.

في ساعات الوحدة هذه، حتىٰ بعد أن دخلت الصف الأول. وهي تتبع أمها كالكلب، تأمل أن تقول أمها. ريبيكا



ساعديني في هذه، أو تعالي هنا يا ريبيكا. وتجري لها ريبيكا بلهفة.

في هذه الساعات تتذكر ريبيكا كيف عملتا معا، غالبا في صمت، منذ أن كانت ريبيكا طفلة صغيرة حتىٰ بلغت ثلاثة عشر عاما، حين ماتت آنا شوارت.

كانت أم ريبيكا منتعشة، لا تشعر باختناق في صوتها إلا عندما كانت تحذر ريبيكا من الخطر.

«لا تمشي علىٰ هذه الطريق! ابتعدي عن الناس الذين لا تعرفينهم! وحتىٰ لو تعرفينهم، لا تركبي مع أي أحد سيارة أو حافلة! وابتعدي عن هذه القناة! فهناك صيادون يجيئون للصيد، وهناك ناس علىٰ المراكب!»

«لا تجعلي أي شيء يحدث لك، أنت الملومة لو حدث شيء لك»

«أنت بنت! خذي حذرك في المدرسة، هناك أشياء كثيرة تحدث للبنات في المدرسة، أشياء سيئة. الأولاد ينادونك كأنهم من سرداب، أو من داخل أشياء. أو يختبئون في المصرف، ابتعدي عنهم بقدر ما تستطيعين، أنت بنت!»

أوشكت ريبيكا أن تشعر بأن هذا جرح، كونها بنتا.

كانت مُدرسة ريبيكا في الصف الأول في مدرسة ميلبرن الابتدائية اسمها مس لوتر التي عرفت نفسها في أول يوم أنها مسيحية. مس لوتر امرأة نحيفة، لها شعر رمادي اللون، وأسنان تبرز من بين شفاهها



المزمومة عندما تبتسم. لقد أخبرت ريبيكا والآخرين أن لديهم. شُعل بسيطة. في أجسامهم، في محيط قلوبهم، هذه الشعل لن تخرج أبدا، عكس النار العادية.

عرفت ريبيكا، التي لم تسمع بهذا من قبل، في الحال، أن هذا الأمر قد يكون حقيقة، لأن موقد الفحم، وموقد الحطب كلاهما يحفظ البيت دافئا من التجمد في أيام الشتاء القارسة، كذلك هذه الشعل داخل الإنسان تحفظه من التجمد أيضا. تقريبا ترى ريبيكا هذه الشعل في بابا وماما، خلف عيونهما، إلا أنها تعرف أنه يجب ألا تتكلم معهما في ذلك، لأن أي سلطة خارج البيت ستغضبهما.

أي أفكار من هؤلاء الآخرين لأطفالهما سوف تغضبهما، وهناك شعلة بداخلي أيضا، لقد جعل البوح ريبيكا سعيدة.



«ريبيكا! هل أنت هنا؟»

لكزتها مس لوتر، فأفاقت من شرودها، وقامت تشق طريقها بين الصفوف وهي ترتعد لمقدمة الفصل. زئير من الدماء يختلط في أذنيها بتصفيق الحضور عاليا كالنار المضرمة. صفوف من الغرباء، هؤلاء الآخرون الذين يمقتهم بابا، ومع ذلك يبتسمون لها وهم يصفقون بشدة وكأن في هذه اللحظات العابرة في حياتهم بنت شوارت ذات الشعر الداكن والنظرات الغجرية، بنت حفار القبور، لم تكن بالشخصية البائسة.

«ريبيكا، تهانينا»

كانت مرتعدة جدا لترد شكرا. لم تستطع أن ترىٰ بوضوح وجه الرجل الذي يخاطبها، بنظارة براقة، وكرافتة مقلمة، وقد أخبروها عن اسمه ومن هو، ولكنها بالطبع نسيت ذلك.

وصلت باستماتة لهذا الرجل الذي سلمها كتابا ضخما، معجما. كان هناك ضحك مكتوم بين الحضور، لم يتوقع أن يكون المعجم ثقيلا، كادت ريبيكا أن تسقطه علىٰ الأرض. ضحك الرجل ذو النظارة البراقة، وأمسك به قبل أن يقع: «أوه، يا صغيرتي» وأعطاه بعناية لها وفي هذه اللحظة رأته ينظر إليها باستغراب، كمن يحفظها بنت شوارت بنت حفار القبور الطفلة الصغيرة التي أرسلت للمدرسة كالبدائيين.

في حالة من الحرج والارتباك عادت ريبيكا لمكانها ولمقعدها وكانت مس لوتر تبتسم لها بينما تم نداء الاسم التالي.



في أبريل عام ١٩٤٦، كانت ريبيكا عشرة أعوام، وكانت الفائزة في مسابقة الاستهجاء في مدرسة ميلبرن.

«ريبيكا شوارت، من فضلك الحضور هنا»

تشبث بها أحد الأشخاص، وأصبحت محاطة بالكبار. من بينهم امرأة ترتدي قبعة ونظراتها تحدق فيها بإمعان، والرجل ذو النظارة اللامعة والكرافتة المقلمة، مدير المدرسة الذي أمسك بكوع ريبيكا ويذهب بها للمجموعة لأخذ صور لجورنال ميلبرن الأسبوعي، ولجريدة وادي تشاتاقوا. كانت ريبيكا أصغر الفائزين في المنتصف في المقدمة، وطلب منها ان تبتسم فابتسمت، وبدأت فلاشات الكاميرات.

وبعد أن انتهىٰ التصوير ذهبت ريبيكا لباب الخروج، وسمعت مس لوتر تناديها: «تريدين أن أوصلك بالسيارة» فلم ترد ريبيكا ولم ترجع.

لم يكن في حسبانها أن ترىٰ المعجم لأي فرد في أسرتها. فأبوها عندما أخبرته بمسابقة التهجي لم يعرها اهتماما، وكذلك أمها لم تسمع لها. إنها ستضع المعجم تحت سريرها، فهي تعرف أنهم سيسخرون منه. هناك خوف من أن يلقي به أحدهم في الموقد.

من فترة طويلة كان شوارت يأمل أن يفلح أبناؤه في الدراسة ولكن لم يفلح هارشيل ولا جوست وبالتالي صار لا يهتم بالمدارس. لقد كان يستهزأ بكتب ريبيكا للمرحلة الابتدائية فكان حين يتصفحها يقول إنها قصص أطفال، قمامة. فبرغم أنه كان يقرأ الجرائد والمجلات بشغف إلا أنه كان يرميها في القمامة أيضا. ومنذ أن انتهت



الحرب لم يعد يستمع للراديو بعد العشاء ولم يرغب لأحد في الأسرة أن يستمع له، فكان يقول دائما عبارته. ما الكلمات إلا أكاذيب. وهو يلوي وجهه مازحا. أو يبصق إذا كان يمضغ التبغ.

يكره جاكوب شوارت الجمهوريين، فهو ديموقراطي أليس كذلك؟ حفظت ريبيكا هذه الأسماء جيدا، فما كان يهم بابا يجب أن يهمها أيضا.

«هؤلاء الآخرون، هم أعداؤنا. نحن قذارة بالنسبة لهم، يقشطوننا من أحذيتهم»

«ما هذا بحق الجحيم؟ أنت؟»

كانت صدمة بالنسبة لبابا، رمىٰ بابا جريدة ميلبرن الأسبوعية علىٰ المنضدة وفردها أمامه وأخذ ينظر إلىٰ ابنته، يشتاط غضبا ويشعر بالإهانة، ماذا يعني قول هذا وهو يمسح فمه:

«لم أعرف شيئا عن هذا أبدا، أليس كذلك؟ يا للجحيم، لا أريد أيا من أبنائي يفعل شيئا من ورائي»

تلعثمت ريبيكا وقالت إنها أخبرته بهذا، حاولت أن تخبره، ولكنه استمر في غضبه، لقد كان من هؤلاء الذين يشطحون في غضبهم. شد الصحيفة قريبا من الضوء ليرىٰ دليل الجريمة عن قرب، وأخيرا نظر إلىٰ ريبيكا:

- أهذه أنت، يا للعنة، من وراء ظهري يا بنيتي؟!
- لقد أخبرتك عنها يا بابا، مسابقة التهجي.
- تهجي! ماذا؟



- مسابقة تهجي، كلمات تأخذها في المدرسة.
- كلمات؟ يا للقرف، لقد قلت لك أن كل كلمة ينطقها الانسان قرف.

جاء هارشيل وجوست على سماعهما الصوت العالي، وتفحصا في دهشة صفحة الفضيحة والمقال، فقال جوست إنها شيء جيد.

قال بابا مغمغم:

«هاتي الجائزة اللعينة، أود أن أراها بنفسي، هيا بسرعة»

ذهبت ريبيكا لتحضر المعجم من تحت السرير، تعرف أن هذا سيسبب لها المتاعب، لماذا تخبئ المعجم تحت السرير.

كما لو أن أي شيء يمكن أن يخبأ من جاكوب شوارت. كما لو أن أي سر يجب ألا يكشف، مثل ملابس داخلية قذرة أو ملايات سرير، قبل فوات الأوان.

احضرت ريبيكا معجم ويبستر لأبيها، فهي تطيعه في الوقت الذي تخاف منه وتكرهه، ووضعه فجأة على الطاولة بهدوء وكأنه خاف. فهذا كتاب كبير وأكيد باهظ الثمن.

في الحال رأى بابا خطأ في الاستهجاء، فضحك بصوت أجش ضحكة المنتصر:

«إيه، أرأيت، إنهم أهانوك، إشتير، إنهم أهانونا، فليس هذا خطأ غير مقصود بل مقصود، خطأ في كتابة اسم طفلة ليهزأوا ممن سماها. قدم بابا الكتاب لهارشيل الذي حدق فيه غير قادر على القراءة. بنوع من الإحباط دفع بالكتاب كما تدفع ثعبانا بسيخ:



«يا الله، خذوا هذا الكتاب بعيدا عني، عندي حساسية» مما جعل بابا يضحك، فقد كانت عنده نقطة ضعف أمام نكات ابنه الأكبر، فاعترض جوس:

«يا هارشيل، لقد أحضر شخص من الأسرة شيئا، إنه أمر لطيف» أراد جوس أن يقول المزيد، ولكن بابا وهارشيل سفهاه.

أغلق بابا المعجم. حانت الآن اللحظة، وأيقنت ريبيكا أنه لما يتكئ بتجهم، ويفتح بابا الموقد، ويلقي بالكتاب داخله.

ولكن بابا بدلا من ذلك قال باكتئاب: «يا للعنة، لا أريد أيا من أبناء جاكوب شوارت أن يتسلل من وراء ظهري كابن عُرس. في هذا المكان الكريه الذي يراقبنا فيه كل واحد، في المرة القادمة يجب أن تتأكدي من أن الصورة اللعينة سيراها كل شخص».

«خذي هذا الكتاب الملعون ولا تجعليني أراه مرة ثانية»

خطفت ريبيكا الكتاب الثقيل، وهي تشعر باليأس حتى ضحك أبوها وأخواها، لدرجة أن الكتاب كاد أن يسقط من يدها، هرولت لسريرها، وراحت تخبئه تحت السرير مرة أخرى، وسمعت من خلفها جاكوب شوارت يحاضر ابنيه:

«ما هي الكلمات، الكلمات حقيرة وأكاذيب، ستعرفون ذلك»

وهنا جاءت ضحكة هارشيل الصفيقة:

«إذن أخبرنا عن شيء ليس بحقير، بابا، أنت عبقري، إيه»



كان التوقيت صيفا، فهي تعرف أنه لا مدارس، فكانت تتسكع في الغابات المترامية خلف المقابر، أو علىٰ ممر القناة حيث ترىٰ البوارج وتشاور للبحارة الذين يشاورون لها، وحتىٰ عند مقلب قمامة المدينة حيث كانت ممنوعة من أن تذهب وحدها بدون أصدقائها.

إن ريبيكا لها أصدقاء في ذلك الوقت معظمهم بنات مثلها، يسكنّ في أطراف ميلبرن، في طريق المحجر، وطريق البريد، وطريق القناة. كانت هذه البنات يسكنّ في بيوت فلاحي متواضعة، وكبائن من ورق قطران، أو مقطورات مركونة علىٰ بلوكات خراسانية وسط مساحات العشب المترامية. لم تكن ريبيكا محتقرة بين هؤلاء البنات كابنة حفار القبور، لأن آبائهن -إذا كان لهن آباء- لا يختلفون عن جاكوب شوارت.

وإخوتهم -إن كان لهن إخوة- لا يختلفون عن هارشيل وجوست.

الجنازة في مقابر ميلبرن تعني أن جاكوب شوارت أعد المقبرة في اليوم السابق... حفر القبور عملا شاقا، فجاكوب شوارت يحفر بالمعازق، كان عملا يقصف الظهر ولا سيما أنه لا يمتلك آلات ميكانيكية تساعده.

غشىٰ عيون ريبيكا رؤيتها لأبيها في خلف المقابر. جاكوب شوارت رجلا قصير القامة، كأنه مخلوق خرج من التربة، محنيا قليلا، ظهره محني، ورأسه مائل، لذلك يبدو أنه دائما يتشكك في كل شيء. مصاب في رباط ركبته، لذلك كان يمشي بعرج، إحدىٰ كتفيه أعلىٰ من



الأخرىٰ. يرتدي دائما ثياب العمل، وطاقية علىٰ رأسه، يعرف مكانه بين المعزين والمديرين الذين يناديهم. سيدي. مدام، يراعيهم دائما.

تكلم هارشيل عن رؤيته أباهم في المدينة في الطريق وهو يتجه للبنك في تشاتاقوا، منظر الرجل العجوز وهو يرتدي ثياب وحذاء عمل حفار القبور، ورأسه يتدلىٰ لأسفل لا تعرف فيم ينظر، يسب أي شخص يصطدم به ولا يتنحىٰ عن طريقه سريعا.

«ملايين من البشر ماتوا، ودفنوا في قبورهم قطعا من اللحم. اسألي الله، لماذا يحدث هذا»

حدقت ريبيكا في أبيها حينما يكون غير مدرك بوجودها، أحيانا ترتعد وكأنها تراه بعين أخرىٰ، الستائر علىٰ النوافذ في عز الظهر.

جاء صوت غريب من غرفة المعيشة؛ سريعا ومتقدا مثل كسر كأس، وغلق باب.

بما أن بابا لم يعد يستمع للأخبار بعد العشاء كل ليلة، فالراديو ما عاد يستخدم. ولم يكن بابا ليسمح باستخدامه مزمجرا أن الكهرباء لا تنمو علىٰ الشجر، لا يريد أن يستهلكها. ولكن ريبيكا الآن تسمع الراديو.

«ماما، هل يمكنني أن آتي»

ليس هناك إجابة، فراحت ريبيكا تفتح الباب بحرص. أمها في الداخل جالسة بجوار الراديو، لقد جاءت بمقعد وجلست بجواره، لم تجلس علىٰ كرسي بابا. رأت ريبيكا كيف أن قرص تشغيل الراديو يتوهج باللون البرتقالي وكأنه شيء حي. تأتي عبر الشبكة المتربة



أصوات جميلة، عزف سريع، تسمع ريبيكا وهي مندهشة، أهو صوت بيانو؟ موسيقىٰ بيانو؟

لا شيء هناك بعد ماما وهي تميل علىٰ الراديو، تتمايل وتبتسم مع الموسيقىٰ، لا شيء بعد هذه اللحظة، بعد هذه السعادة.

ما بين فواصل الموسيقىٰ، تخبرها أم ريبيكا أن هذا ارتر شانبل، هذا بيتهوفن، هذه اسمها سيمفونية كذا، فتستمع ريبيكا باعتناء دون أن تعي كثيرا من معاني الكلمات التي تقولها أمها... عيون أمها جميلة، سوداء، متلألئة، وبقوة مذهلة، تجعلك ترتبك إذا اقتربت منها. تقول وهي تبحث عن يد ريبيكا وتضغط عليها كما لم تفعل من سنين:

«عندما كنت فتاة في بلدي الأولىٰ عزفت هذه السيمفونية، ليس كما يعزفها شنابل، ولكن حاولت»

عادت موسيقىٰ البيانو، الأم وبنتها تستمعان، وريبيكا تتشبث بيد أمها كما لو أنها تخاف أن تقع من مكان عال.

يا له من جمال، ودفء هذا الجمال، سوف يبقىٰ في ذهن ريبيكا طوال حياتها.



جاء هارشيل يخبط ويزعق عند باب المطبخ. لقد كان هارشيل طويلا، وثقيلا كالحصان، غير حليق، صوته فظ كالنهيق. ينفث في أصابعه، فالجو خريف بارد.

صباح الهالوين، ١٩٤٨، ريبيكا اثنتا عشرة سنة، في الصف السابع.

الوقت بعد الفجر بفترة قصيرة. هناك صقيع ونتفات من الثلج في الليل. ريبيكا تساعد أمها في المطبخ. لم يظهر جوست من غرفة النوم بعد. بابا يقف ببذلته الواقية يضخ الماء في الحوض، وهو يكح ويبصق بصوت مزعج وبنفس الطريقة التي تجعل ريبيكا تشعر بالغثيان. نظر بابا لهارشيل بحدة سائلا:

- ما هذا؟
- يجب أن تأتي للخارج بنفسك يا بابا.

تتبع بابا هارشيل في الخارج وهو يعرج. يمكن لريبيكا أن تتبعه لولا أنه عاد بحكم طبيعته ليحذرها: «عودي للداخل»

في هذا الوقت استيقظ جوس وخرج مهرولا من غرفة النوم بشعره المنكوش، وثيابه غير المهندمة، إنه في التاسعة عشرة من عمره، تقريبا في طول هارشيل، ولكن أقل منه في الوزن، نحيف وشخصية غير جادة، كانت آنا عند في المطبخ، رفعت المقلاة من على الموقد ووضعتها جانبا، وهي تصيح: «الأوغاد»

كان هارشيل في المقدمة، ويتبعه بابا وهو يتطوح كالرجل السكران، ويحدق حوله. كانت الليلة التي تسبق الهالوين تسمى بليلة



الشيطان. كانت المقالب يقوم بها أناس مجهولون يتسللون ليلا، ومن المفترض أن تتقبلها كمزحة.

مقابر ميلبرن هدفا لمقالب ليلة الشيطان، يتحدث هارشيل بقرف، وبصوت يرتعش، وجاكوب بالكاد يستمع لابنه. في الليلة الفائتة، قفل البوابة الحديد الأمامية وربطها بالسلسلة، فقد علم ما يتم في المقابر في ليلة الشيطان، ففي السنوات الماضية كان يتم تخريب المقابر، حاول أن يظل متيقظا ليحمي الممتلكات، ولكنه مرهق جدا، ومخمور فنام في منتصف الليل، وعلىٰ أية حال ليس معه سلاح، ليس معه بندقية...

المخربون لم تمنعهم البوابة الحديد فقد تسلقوا حائط المقابر، كما ترىٰ هدموا جزءا من الحائط.

لم يكن هناك شيء يمنع هؤلاء المدمرين من الشباب والأولاد من الدخول. لا تجعل أعداءك في الخارج إذا لم تكن مسلحا. إنه لن يفعل ذلك الخطأ مرة أخرىٰ.

«ابتعدوا يا أوغاد، يا أولاد الكلب»

هش هارشيل الغربان بالتصفيق، بينما أبوه بدا أنه لم يلحظ شيئا

«غربان! ما يعنيه بالغربان هذا الأحمق»

لقد سقط كثير من شجر البتولا وتكسر، ولم يعد صالحا. وانداس كثير من الشواهد القديمة والهشة والتي يرجع تاريخها لعام ١٧٩١ وتهشمت. وتقطعت إطارات السيارة البيك أب الفورد موديل ١٩٣٩ الخاصة بعامل المقابر ونامت العجلات علىٰ الأرض مثل



مخلوق منهك بلا أسنان، وكتبت على أجناب السيارة بالقطران عبارات قبيحة معززة بصيحات السخرية.

وكذلك مكتوبة العبارات على الزرائب وجدران الكوخ الحجري، وأصبحت العبارات مرئية من بعد وكل زائر يمكنه رؤيتها.

هرول جوست للخارج وتبعته ريبيكا، مدثرة نفسها من البرد، ارتبكت في البداية بسبب خوفها. كم هو غريب أن أباها صامت، بينما هارشل يسب بألفاظ سوقية. أبوها صامت بشكل غريب، فقط ينظر في الكتابات اللامعة التي بالقطران.

«ماذا تعني هذه الكتابات يا بابا؟»

تجاهلها أبوها، فمدت يدها على الكتابة التي على جانب الزريبة التي جفت. لم تتذكر ما الكلمات بالضبط، ولكن تتذكر أنها كانت قبيحة، وتشير لألماني، نازي، قوات المحور التي هزمت في الحرب.

«لكنما الحرب انتهت منذ مدة طويلة، أليس كذلك؟»

راحت ريبيكا تحسب المدة، فلقد كانت في الصف الرابع عندما انطلقت صفارة الحريق لتؤجل الدراسة في المدرسة في ذلك اليوم. هي الآن في الصف السابع، أي مر ثلاث سنوات منذ أن استسلم الألمان في مايو ١٩٤٥، إن هذه المدة طويلة بالنسبة لها فهي طفلة صغيرة.

لكنها الآن لم تعد طفلة صغيرة، فقلبها ينبض بالغضب والنقمة.

مسحت ريبيكا عيونها التي دمعت في البرد. البرق يضرب في السماء من الجهة الشرقية، وكانت هناك شروخ وتصدعات في



السحاب. وهي ترى العبارات البذيئة بوضوح. الصليب المعقوف. وتذكرت أن هكذا ينادونهم. كيف تمسح هذا والقطران الأسود الجاف أصعب من البوية؟ كيف يمكن تنظيفها، وإزالة القطران، كم ستنزعج ماما؟ وكيف يمكن إخفاء هذا عن ماما؟

«لماذا هم يكرهوننا؟»

ريبيكا تتكلم بصوت مرتفع حتى يسمع أخواها وأبوها ما تقول.

ويبدو أن أباها سمعها، فاستدار نحوها وهو يعرج:

«ماذا؟ ماذا أخبرتك؟ فلتذهبي للداخل أنت مع أمك»

أصبح جاكوب شوارت غضوبا فجأة، وأخذ يلكز فيها، وهو يتحرك برجله العرجاء سريعا ممسكا ريبيكا من أعلى ذراعها دافعا إياها للبيت:

«أنا قلت لك للداخل، وإياك أن تقولي لأمك أي شيء، سأكسر رقبتك»

قد تترك أصابعه أثرا في لحم ريبيكا، هكذا ترى ريبيكا لمدة أيام. إن الكدمات أصبحت مثل الصليب المعقوف، قبيحة، وقرمزية اللون.

الطريقة التي لفظ بها كلمة ماما، بمقطعها القصير من فمه تبدو كالشتيمة.

«إنه هو الذي يكرهنا»

«ولكن لماذا؟»



في ذلك اليوم، عيد الهالوين ١٩٤٨، أرادت منها أمها أن تمكث في البيت ولا تذهب إلىٰ المدرسة ولكنها رفضت وأصرت أن تذهب كالعادة.

تضحك ريبيكا وتقول لماذا يقدم أحد علىٰ مثل هذا العمل السخيف؟ فيقول وهو يميل برأسه ليضفي بعض الحكمة:

«لأن هناك دناءة في العالم، ونحن نعيش في العالم»

لقد رأت ريبيكا في طريقها للمدرسة أنها ليلة شريرة للهالوين في ميلبرن. فورق التواليت مطوح علىٰ أطراف الشجر، القرع العسلي مهروس علىٰ عتبات البيوت، وصناديق البريد محطمة، وقف الطلبة في المدرسة الثانوية الاعدادية يشيرون ويضحكون علىٰ الشبابيك الملطخة بالشمع، وعلىٰ الطماطم والبيض الذي يلطخ الجدران، والقرع العسلي المهروس علىٰ الأبواب، وكأنه أجسام محطمة في حالات غضب صاخبة. أخذت ريبيكا تفكر كم من الشر يمكن أن يُرتكب كل لحظة، في كل ليلة، ما لم يوقفه أحد.

ومع ذلك لم تلحظ ريبيكا وجود قطران في المدينة أو صلبان معقوفة.

تساءلت ريبيكا لماذا الصلبان والقطران توجد فقط في المقابر، علىٰ بيت الأسرة؟



إنهـا لا تسـتطيع أن تسـأل أي شـخص، ولا حتـىٰ صـديقاتها المقربات. ولا حتىٰ يتكلم معها أحد عن الصلبان المعقوفة إذا كن يعرفن.

في حصة اللغة الانجليزية، يا للعنة، تقوم مس كروس التي تحاول أن تجعل الصف السابع مثلها بأن تجعلهم يقرءوا بصوت مرتفع قصة قصيرة عن الهالوين والأشباح، قصصا مختصرة من. أسطورة التجويف النائم. لمؤلف قديم مات، اسمه واشنطن ايفرن. لقد كانت مس كروس، التي كان لبانها يظهر لامعا عندما تبتسم، هي التي تجعل التلاميذ يقرءون نثرا قديما لا ينتبه له أحد، فالكلمات قديمة لا يستطيع أحد نطقها، ناهيك عن فهمها (تتساءل ريبيكا إذا كانت مس كروس نفسها تفهم هذه الكلمات) صف بعد صف، وتلميذ بعد تلميذ يتلعثم في الفقرات المكثفة وبطيئة الإيقاع (أسطورة التجويف النائم) التلاميذ متلعثمين ومتجهمين، وخصوصا الأولاد الذين كانوا يقرءون بشكل سيء جعل المدرسة الحانقة تقاطعهم وتطلب من ريبيكا أن تقرأ وعلىٰ باقي الفصل أن يصمت ويستمع.

احمر وجه ريبيكا وتلوت علىٰ مقعدها.

أرادت أن تخبر مس كروس أنها مصابة بالتهاب في الزور ولا تستطيع القراءة، ولكنها لم تستطع.

بدأ الجميع يحدق فيها، حتىٰ صديقاتها، أو من اعتقدت أنهن صديقاتها، رحن ينظرن لها بامتعاض.

«ريبيكا، ابدئي»



يا لـه مـن شـبح! بالنسـبة لريبيكـا التـي كانـت مـن بـين التلاميـذ الجيـدين، الواعيـة بنفسـها عنـدما يختارهـا أي مـدرس. فالقصـة بطيئـة ومعقدة، وجملها طويلة وكلماتها صعبة. عندما تخطئ ريبيكـا في نطـق كلمة وتصححها لها مس كروس بدقة يضـحك التلاميـذ. ويضـحكون عندما تنطق ريبيكا بعض الكلمات السخيفة مثل. إيشابود كران، بلتس فان تاسل، هانز فان ريبر...

مـن بـين ثلاثـين تلميـذ في الفصـل هنـاك خمسـة أو سـتة الـذين يحاولـون أن يستفيدوا مـن القصـة، فينصـتون، أمـا الآخـرون فيقلقـون، ويلهون. راح الولد الـذي يجلس خلـف ريبيكـا يهزهـز مقعـدها الـذي كان متصلا بمقعده.

هنـاك شـيء مـا يضـربها بـين لـوحي كتفيهـا، حفـار القبـور! حفـار القبور اليهودي!

«ريبيكا، من فضلك استمري»

توقفت، تاهت عن مكان القراءة، مس كـروس تضـايقت وبـدأت تشعر بالإحباط.

تتساءل ريبيكا ما هـو اليهـودي، تعلمـت ريبيكـا ألا تسـأل، أبوهـا منعها من السؤال.

في غشـاوة مـن الخجـل والارتبـاك راحـت تتلعـثم في القصـة. في رؤيتهـا للـدمار الـذي أحـل بالمقـابر في ذلـك الصـباح، وقـرع العسـل المهـروس، والغربـان التـي تحـوم بأجنحتهـا في المكـان بشـكل مـزعج



حين يصفق هارشيل بيديه. لقد رأت العبارات القبيحة التي أخافت أباها.

تشعر بأصابعه تقترب من أعلىٰ ذراعها، علمت أن هناك بعض الكدمات، ولكن لم ترد أن تراها.

كان لطيفا من أخويها أن احتجا عندما جرها أبوها هكذا. أما في المنزل عندما كان أبوها بذيئا معها، ويظهر بعض إيحاءات التهديد، فالأحرىٰ أن تزمجر أمها أو تأتي بصرخة تحذير، ليس مجرد كلمات، ولأن آنا شوارت وزوجها لا يتكلمان إلا نادرا أمام الأطفال، فعليها أن تأتي ولو بمجرد صوت، أو رفعة يد، أو إيحاءة لإثنائه عن شيء ما.

«إيحاءة تعني. أني أراك، أراقبك، إيحاءة تعني أني سأحميها، بنتي»

لكم كرهت شخصية إيشابود كران الغبية القبيحة التي ذكرتها بجاكوب شوارت، ولكم أحبت أن بروم بونز الوسيم والأنيق أن يقذف بقرعة العسل علىٰ إيشابود، ويخيفه فيخرجه من التجويف النائم. تعتقد ريبيكا أنه يستحق ذلك لكونه مغرورا وشاذا.

بمجرد أن انتهت ريبيكا من قراءة القصة. أسطورة التجويف النائم، شعرت ريبيكا بالدوران وكأنها تحبو علىٰ يديها ورجليها لساعات. لقد كرهت مس كروس، لن تبتسم مرة أخرىٰ لمس كروس. ولن تتطلع لتأتي المدرسة بعد ذلك. صار صوتها أجش وتلاشىٰ مثل صوت شبح إيشابودكران علىٰ بعد، يؤدي لحنا هستيريا في هدوء. التجويف النائم.



«لسنا نازيين! أتعتقدون أننا نازيون؟ لسنا كذلك، لقد جئنا هذا البلد منذ اثنىٰ عشر عاما. الحرب انتهت والألمان انهزموا، لا علاقة لنا بالنازيين، نحن أمريكان مثلكم»

عاد جاكوب شوارت للبيت بنفس الطريقة وتجاهل نداء زوجته ليدخل البيت، ولكنه ظل عند البوابة الرئيسية، يذهب ويجيء والمطر يتساقط رذاذا، حتىٰ جاء الظهر وجاء مساعدا المأمور بمقاطعة تشاتاقوا في عربة شرطة. فهما الرجلان اللذان عرفا شوارت، أو سمعا عنه، فسلوكهما معه مألوا، مرتبك:

- ما المشكلة يا سيد شوارت؟
- يمكنكم أن تروا إن لم تكونوا عميانا، شاهدوا.

أخبرهما جاكوب شوارت أنه بإمكانه وأبنائه أن ينظفوا معظم ما تم إتلافه، ولكن لا يستطيعون تنظيف القطران، لا يستطيعون تنظيف الزفت، كيف يزيلونه

«علىٰ المجرمين الذين فعلوا ذلك أن يزيلوه، يجب أن تقبض عليهم الشرطة، وتجبرهم علىٰ إزالته، سوف تجدونهم؟ وتقبضون عليهم؟»

«انتهاك قدسية الممتلكات، إنها جريمة حقا، أليس كذلك؟»

استمع مساعدا المأمور لجاكوب شوارت بشكل محايد، كانا مهذبين، ولكن غير مهتمين بشكواه. لقد قاما بفحص صوري للتلفيات، بما فيها علامات الصلبان المعقوفة، وقالا له إنها ليلة هالوين، إنها مجرد شقاوة أطفال، وليست شيئا شخصيا.



«كما ترىٰ يا سيد شوارت، المقابر هي الهدف في ليلة الشيطان، في كل مكان في الوادي. الأطفال الملعونون، ازدادوا سوءا. من الحظ أنهم لم يشعلوا النار مثلما فعلوا في أماكن أخرىٰ. لا شيء شخصي يا سيد شوارت، لا شيء ضدك أنت ولا أسرتك»

تكلم المساعد الأكبر بصوت منخفض، وهو يتشدق بخنفة، ويدون ملاحظات غير منهجية بعقب قلم رصاص. بينما زميله يهمز بجزمته أحد الشواهد، وهو يتكلف ابتسامة ويكتم تثاؤبا.

لم ير جاكوب شوارت من خلال عيونه الملتهبة إلا سخريتهما له.

لقد رأىٰ، كما تخترق الشمس طبقات السحاب، ويداه المجهدتان ترتعشان شوقا لمجرفة، أو سيخ، أو قدوم.

إنه لا يمتلك أسلحة، بينما مساعدو المأمور يمتلكون مسدسات في أجربة علىٰ أردافهم. إنهم قرويون ذو وجوه متجهمة. إنهم قوات النازية الخاصة. هؤلاء القطيع الذين يؤدون التحية لهتلر، ويستعدون للموت في سبيل هتلر. عليه أن يشتري بندقية ذات خزنة كبيرة ولها ماسورتان للدفاع عن نفسه أمام هؤلاء. لكنه لا يمتلك حتىٰ بندقية الآن، لا يمتلك إلا يده المضعضعة التي لا تقوىٰ علىٰ شيء أمام المسدس.

سوف يقال في كل مكان في ميلبرن كيف راح يهذي جاكوب شوارت بشدة، لقد كانت لكنته السخيفة قوية، ولكنه عمليا جعلها مفهومة.



«أنتم لكم علاقة بهؤلاء الأطفال، أنتم تعرفونهم»

كان جاكوب شوارت يخطئ في الكلام من شدة حدته، وكان ولداه يسمعان هذيانه من إحدىٰ الزرائب، وهما يشعران بالخجل.

يا لها من فورة! كأنما قزم يقفز، ويقوم بإيحاءات ويبصق كثيرا فلا تفهم نصف ما يقول. المساعدان يتمازحان فمن الحظ أنهما مسلحان. فهذا الشوارت المسكين يبدو كقرعة عسل مهروسة، يجري فيه دم سينيكا، بشكل ما، اكتسب هذه السمعة. في وادي تشاتاقوا بين هؤلاء الذين يعرفون هارشيل دون أن يعرفوا أسرته.

لقد ترك المدرسة في سن السادسة عشر، حيث إنه فُصل مؤقتا من مدرسة ميلبرن العليا بسبب مشاجرة، وأثناء فترة الفصل من المدرسة بلغ السادسة عشرة فترك المدرسة. يا للعنة، لقد تحرر! لقد تخلف في الصف التاسع، كان الأكبر بين التلاميذ، يشعر بالخزي والخطر. في الحال وجد له عملا في ورشة خشب. فأصدقاؤه يعملون هناك، لم يتخرج أي منهم من المدرسة العليا، فكوّنوا مبالغ طائلة.

لا يزال يعيش في البيت، ولا يزال يساعد الرجل العجوز في المقابر أحيانا. إنه يشعر بالأسىٰ لجاكوب شوارت. في كل مرة كان يتشاجر فيها مع الرجل العجوز، يفكر في ترك البيت، ولكن لما بلغ الحادية والعشرين في أكتوبر ١٩٤٨ لم يغادر البيت. لقد ربطه الكسل بالكوخ الحجري، وربطته أمه، وجباتها التي كان يلتهمها بشراهة، ميلها له دائما في صمت دون عتاب يقول أحبها، لا أستطيع أن أتركها معه.



ويقول: أختي أيضا، لم أستطع أن أتركها معهما.

أما أخوه جوس يقدر أن يهتم بنفسه. جوس على ما يرام. وترك المدرسة أيضا في السادسة عشرة تحت إلحاح أبيه، لكي يساعده في عمل المقابر، كأي عمل شائع، وقت كامل.

هارشيل ذكي في ذلك؛ كيف للابن الأكبر لمهاجر من أصل ألماني أن يكتسب سمعة بأنه سينيكا. هارشيل بنفسه ما كان ليستطيع أن يقول هذا. مؤكدا أنه لم ينشر مثل هذا الادعاء. ولم ينكره أيضا. شعره الأشعث الأسود المرسل دون لمعان، عيونه أيضا السوداء التي تبرق دون لمعة، نزقه وسلوكه الشاذ في الكلام، كل هذا ينم عن خلفية شاذة لنوع ما، ربما غير معروف. الرجل البارع كان يبتسم للاعتقاد بأنه سينيكا خير من كراوت.

ببلوغه الثامنة عشرة حمل وجها خشنا وحادا عليه ندبات حول فمه وعيونه وأذنه بسبب مشاجرات باللكمات. في سن العشرين أصيب في مشاجرة مع شاب أصابه بزجاجة بيرة مكسورة، نتج عنها اثنتا عشرة غرزة في جبهته (ولكونه كتوم، وعنيد لم يخبر هارشيل الشرطة عمن فعل ذلك، أراد أن ينتقم لنفسه في الوقت المناسب). أسنانه دائما متعفنة، فقد فقد الكثير من أسنانه سواء الأمامية أو الخلفية، عندما يبتسم يبدو فمه وكأنه يغمز، أنفه مكسور ومفلطح عند القصبة. بالرغم من أنه كان يخيف معظم بنات ميلبرن كان جذابا لنوع معين من النساء، المطلقات والمنفصلات اللاتي كن يقدرن أشياء معينة في هارشيل شوارت. يعجبن بوجهه، وفطرته الطيبة وسلوكه المندفع غير المتوقع. ضحكته العالية كالنهيق. جسمه القوي المفتول



الذي يشع حرارة كالحصان. قضيبه المتماسك حتىٰ ولو صاحبه يترنح من السكر أو في غيبوبة. كانت هناك بعض النسوة يمررن أنامل أصابعهن علىٰ جلده، صدره، ظهره، جوانبه، بطنه، أفخاذه، سيقانه، لقد كان خشنا كجلد الحيوانات، مغطىٰ بالشعر المنفوش، والمليء بالشامات والغمازات كأنها طلقات.

هؤلاء هن النسوة اللاتي لهن شهية فظة وحبوبة، واللاتي كن يغظن عاشقهن الصغير بسؤاله أي جزء منه سينيكا؟

ليس سرا أن هارشيل له سجل في الشرطة في مقاطعة تشاتاقوا. لقد تم حجزه أكثر من مرة بحكم القانون.



قال بجدية وبإصرار:

«ابني ولد صالح! مثله مثل أي ابن من أبنائكم. من أبنائكم يا أهل ميلبرن، لا يؤذي أحدا أبدا» وأضاف: «ابني هارشيل، الذي ذهب حيث لا أعلم كان دائما ابنا صالحا، يكد ليعطي أجرته لأمه وأبيه، إنه سوف يعود ليدافع عن نفسه، أعلم هذا»

هكذا ادعىٰ جاكوب شوارت عندما ذهبت الشرطة لتسأله عن هارشيل. كان المسكين عنيدا، في عدم معرفته ووضعه الجبان وهو يمسك بطاقيته القماش، ويتحدث بسرعة بلكنته الانجليزية الصعبة. لقد كان الأمر يتطلب رجالا أكثر حنكة من هؤلاء الشرطيين سطحي التفكير ليصفوا مكر حفار القبور وخبثه ويقولوا فيما بعد إن جاكوب شوارت المسكين لم يكن سليما في عقليته.

والد ريبيكا نصحها بأنه من الحكمة أن تخفي أمام أعدائك ذكاءك كما تخفي خوفك.

لم تستجوب الشرطة آنا شوارت طويلا، راحت ترتعد وترتعش منهم كالحيوان الليلي الذي يفزعه ضوء النهار. فظنت من ارتباكها أن هارشيل هو الذي أصيب ويتلقىٰ علاجه في المستشفىٰ. صوتها مهتز ويكاد يسمع، ولهجتها الإنجليزية صعبة لدرجة أن الشرطة لم تكد تفهم ما تقول.

استجوبت الشرطة جوست، شقيق هارشيل الأصغر والذي ادعىٰ عدم معرفته بأي شيء. ربما تستطيع أن تساعد أخاك؟ ولكنه يهز رأسه في حيرة، فكيف يمكنه أن يساعد؟



وهناك ريبيكا بنت الاثنا عشر عاما، وقالت أيضا إنها لا تعرف شيئا عما فعله أخوها الأكبر، ولا أين ذهب، كانت تهز رأسها دون أدنى كلمة حينما يسألها رجال الشرطة.

استعد رجال الشرطة للرحيل، ولكنهم كانوا غير مرتاحين لأسرة شوارت فوعدوا بالعودة مرة ثانية. وراح جاكوب شوارت بابتسامته الصفراء يودعهم حتى الباب، وأخذ يخبرهم مرة أخرى أن ابنه الأكبر يصلي للرب دائما، ولا يرفع قبضته أبدا حتى في وجه هؤلاء الذين يستحقون الأذى. وما كان لهارشيل أن يهجر أسرته فهو ابن بار.

«المتهم بريء حتى تثبت إدانته، أليس هذا قانونكم؟»

أطلق والد ريبيكا وهو يرى الشرطة تذهب بسيارتها الخضراء البيضاء ضحكة بحيوية نادرة:

«جستابو، أوغاد، ولكن أغبياء لكي يقادوا كالقطيع، سوف نرى»

ضحك جوس، واصطنعت ريبيكا ابتسامة، بينما الأم تسللت لغرفة في الخلف وهي تبكي. عندما رأت جاكوب شوارت وهو يتمشى متباهيا في المطبخ، ويمضغ بعض التبغ، قالت:

«وكأن شيئا سارا حدث لهارشيل لا أمر بالقبض عليه»

في الأيام التالية بدا أن جاكوب شوارت فخور بما فعله هارشيل أو ما يقال إنه فعله. تغلب على عادته في الاقتصاد وراح يشتري عدة صحف تنشر عن الاعتداء. أفضل ما رآه ما نشرته ميلبرن ديلي في صفحتها الأولى:



ثلاث اعتداءات عنيفة في الهالوين منسوبة لشاب في الحادي والعشرين.

الولاية تعتبر الهارب خطرا.

«في كل واحد منا هناك شعلة لا تموت يا ريبيكا، الشعلة تضيء بالرب، وتزدهر بحبه»

لكم احتاجت ريبيكا أن تصدق هذه الكلمات التي قالتها مدرستها السابقة؛ مس لوتر، لكن صعب؟ مثلما حاولت أن ترفع نفسها فوق السطح الذي من ورق القطران وهي تستعمل ذراعيها فقط، عندما كانت صغيرة تقلد أخويها. أخذا يضحكان من أختهما الصغيرة وهي تحاول خلفهما، ذراعاها ضعيفان، وساقاها نحيفتان، تنقصها العضلات. يتسلقان السطح ببراعة كالقطط، بينما هي تقع على الأرض.

أحيانا كان يساعدها أحد أخويها فيرفعها للسطح، وأحيانا لا.

«في كل واحد منا شعلة، يا ريبيكا صدقيني»

سخر شوارت من هؤلاء الآخرين لكونهم مسيحيين، فكلمة مسيحي تخرج من فمه كالهسيس.

قال لها أبو ريبيكا إن المسيح هو مسيح اليهود المخبول الذي لا يستطيع أن ينقذ نفسه ولا أحد غيره من الموت ولا من الجلبة التي حوله، بعد ألفي عام تقريبا بعد موته، يعلم الله. الأمر يشبه النكتة عندما تقفز كلمة الله من فم جاكوب شوارت كاللسان اللعوب. يقول بابا إن إلهنا يطاردنا ليحشرنا، يدوس بقدميه الكبيرتين ليحطمنا تماما. ولكن



هناك مخرج، تذكروا، دائما يا أبنائي هناك مخرج، إذا استطعت تصغر لتصبح كالدودة.

ثم يضحك بغبطة، حتىٰ تلمع أسنانه الصفراء.

لذا أصبح لريبيكا سر، بعيدا عن أسرتها؛ أمنيتها أن تؤمن بصديق مس لوتر المسيح يسوع، عدو جاكوب شوارت.

لقد أعطت مس لوتر لريبيكا انجيلا ورقيا يمكن وضعه بين الكتب، وتستطيع أن تأخذه خلسة للمنزل. «هذا سرنا يا ريبيكا»

لم تعرف مس لوتر أن أسرة شوارت لا تمتلك انجيلا، وأن ريبيكا لم ترغب في أنها تعرف ذلك. هناك أشياء كثيرة تخجل منها ابنة حفار القبور. ومع ذلك لا تريد أن تخدع أبويها، وهي الآن في الصف السابع لم تعد تلميذة لمس لوتر، ولا تراها إلا نادرا. ومع ذلك فهي تتذكر كلمات مس لوتر؛ عليك أن تؤمني بيسوع، ابن الله وسوف يدخل قلبك، سوف يحبك وسوف يحميك للأبد. لذلك حاولت أن تؤمن، ولكن لم تستطع.

كان مسموحا لريبيكا أن تتكلم ما لم تحرك شفتيها، أو تنبس بأي صوت.

«هل سيعود هارشيل للبيت؟»

يقول لها عيسىٰ في صوت لطيف وخافت: «في يوم من الأيام سيعود لك أخوك»

«هل سيقبض عليه البوليس ويؤذيه؟ هل سيذهب للسجن؟»



فيقول لها عيسىٰ: «لا شيء من هذا سيحدث، لا يا ريبيكا»

ريبيكا! عيسىٰ يعرف اسمها!

أخبرت ريبيكا عيسىٰ بأنها خائفة، أنها تتعرض للخطر لو تكلمت بصوت عال، فقال عيس بعتاب خفي:

«لماذا هذه الضجة يا ريبيكا، أنا بجانبك»

لكن هل عيسىٰ يعرف أن شيئا ما سيحدث لهم، أن شيئا ما خطير سيحدث لأمها؟

هذه هي المرة الأولىٰ التي تذكر ريبيكا أمها لعيسىٰ.

في الحقيقة يشبه عيسىٰ هؤلاء الرجال الذين علىٰ عيونهم بعض القذىٰ، المشردين، الذين يقال لهم منبوذون، الذين يتسكعون في محطات السكة الحديد وفي أسوأ الحانات التي في جنوب الشارع الرئيسي. هؤلاء الرجال الذين يلبسون ثيابا رثة، والذين كانت أمها تحذرها منهم دائما بأن تبعد عنهم وتتجنبهم.

عيسىٰ هذا يشبه جاكوب شوارت الذي يبتسم لها بسخرية، لو تصدقينني إذا أنت مغفلة.

مرت سيارة تتخبط علىٰ طريق المحجر، فاختفىٰ.



«لا شيء سيحدث، هذا ليس مقدرا»

هـذه هـي كلمـات عيسـىٰ المتشـرد السـاخر. ريبيكـا سـمعتهم وهـم يسـخرون منهـا طـوال الشـتاء وفي بدايـة الربيـع القـارس مـن عـام ١٩٤٩ والـذي سـيكون آخـر عـام لهـا في المنـزل الحجـري في المقابر.

قيل إن نهاية أسرة شوارت حانت بعد سلوك هارشيل الإجرامي وهروبه، ولكن في الحقيقة مرت ثمانية شهور. كان ذلك وقت الركـود والارتباك، عندما يحبس المرء في شـلل النوم، لحظة تحطيم الحلم، وتفتيتـه. عرفـت ريبيكـا أن نوبـات أبيهـا في الغضـب واليـأس والقلـق والكآبة تتناوب باستمرار وغير متوقعة.

علـىٰ عكـس هارشـيل لا يسـتطيع جـوس أن يواجـه أبـاهم، وجاكوب شوارت رجل إذا لم تعارضه أصبح أكثر تهكما ووقاحة. لقد رأت ريبيكـا في المدرسـة كيـف إذا تجاهلـت مشاكسـات الآخـرين ازدادت المشاكسـات قـوة. أنـت لا تسـتطيع أن ترضـي البلطجي. ولا تستطيع أن تنتظر من البلطجي أن يمل من وقاحته، ويبحث عن هـدف آخـر. فريبيكـا إن لـم تـدافع عـن نفسـها فـورا فلـن يـدعها المشاكسـون لسبيل حالها. ولو مؤقتا علىٰ الأقل.

يالجوسـت المسـكين، الـذي لا يجـد عمـلا خـارج المقـابر، ولا حياة له خارج الكوخ الحجري؛ فأبوهم رفض أن يبحث لـه عـن عمـل ويكتسب قوته، مثلمـا فعـل هارشيل، ولا يمتلـك جـوس القـوة ليـترك البيت، فأمهم تعتمد عليه...



منذ أن ترك هارشيل البيت، وأصبح الاضطهاد أسوأ، وإن بدا منذ مدة طويلة منذ أن جعل جاكوب شوارت جوس يترك المدرسة في سن السادسة عشرة.

هذه حقيقة يجب أن يقر بها جوس. فدرجاته في المدرسة انخفضت جدا... لقد قلقت ريبيكا من أن أباها يصر في يوم من الأيام علىٰ أن تترك المدرسة أيضا. لقد رفض تماما عالم التعليم، والكتب، والكلمة. وكانت ماما تتمنىٰ ذلك أيضا فكانت تقول. أنت بنت، ولا تريدين أن يحدث لك شيء ما.

«ريبيكا حائرة، أهي تعاقب لأنها بنت أم لأنها ابنة حفار القبور؟»

في يوم من الأيام، عندما كان جوس يساعد أباه في إزالة آثار عاصفة في المقابر غضب جاكوب شوارت جدا منه، لأنه عمل بتكاسل وشرود، فراح يسبه ورفع الجاروف متظاهرا بأنه سيضربه به. بالطبع كان جاكوب يمزح فقط. لكن جوس ارتعد، نظرة الخوف المميت التي ظهرت علىٰ وجهه جعلت الرجل العجوز يشتاط غضبا ويفقد أعصابه، فضربه علىٰ ظهره بظهر الجاروف. وأصر جاكوب شوارت، غبي! حمار! لم تكن الضربة خطيرة، ولكن جوس تمادىٰ في العناد وقع مصطدما بشاهد مقبرة وجرح نفسه، استدار جوس جهة أبيه وأخذ يحدق فيه، لم تكن علىٰ وجهه الآن نظرة الخوف المميت، بل هناك نزيف من الدم يسيل من جرح بجبهته، وراح ينظر بكراهية للرجل العجوز، انتفضت أصابعه وأمسكت بجرافة معدنية متشعبة الأسنان.

اشتاط جاكوب غضبا وابنه يتقدم نحوه رافعا الجرافة:



«أتجرؤ، هل تتجرأ، اذهب وارضع من أمك... تحاول أن تضرب أباك، أتحاول، أيها الطفل الكسيح، لا، لن تفعلها»

يمسك جوس بالجرافة بيده المرتعشة، ولكن فجأة، أسقطها من يده، ولم ينطق بكلمة...

عند عودة جوس للمنزل تنتظره آنا وهي ترتعش من الانفعال.

- أهو فعل فيك ذلك؟
- لا يا ماما، أنا وقعت وأصبت نفسي»

حاولت آنا أن تحتضنه وهي مرتبكة، وهو الذي ما كان ليحتضن أو يقترب منه في ذلك الوقت.

راحت تقول وهي تستعطف وتترجىٰ: «إنه يحبك يا أوجست، ولكن هذه هي طريقته، يؤذي من يحب، النازيون... »

«اللعنة علىٰ النازيين، هو نازي، عليه اللعنة»

أخذت آنا تغمس فوطة في الماء البارد وتضمد جبين جوس النازف. لكن ليس عنده صبر لتمريضها له، فهو يكاد لا يشعر بألم، فالنزيف يضايقه فقط، وبغلظة غير متوقعة أبعد أمه:

«قرف، أنا بخير، دعيني أذهب» وذهب لغرفة النوم وراح يفرغ كل الأدراج علىٰ السرير، والتقط أشياءه القليلة من الدولاب، وكوّم كل شيء. يمكنه أن يصنع ربطة بسيطة بالبطانية الفانلة ويضع فيها حاجياته القليلة. لم تصدق أمه المذهولة ما ترىٰ؛ ابنها الوحيد الباقي، المبتهج، الذي يبتسم، ويضحك لنفسه؟ أوجست الذي لم يبتسم إلا نادرا منذ صباح الصليب المعقوف.



علىٰ أرضية المطبخ، وفي الصالة، وفي غرفة النوم بقع دم تلمع كالعملات الغريبة من أثر جوس، رأتها ريبيكا عندما عادت من المدرسة للبيت الحجري المنحوس.

«كالآخر ذهب ولم يقل لي وداعا، رحل دون أن يراني ولم يودعني»



كل من ابنيه ذهب، وكان يعتقد في لحظات الغضب أنهما تركاه، وكرجل غريق يفكر في أن ابنيه قد أُخذا منه. إنها مؤامرة من أعدائه، فهم يكرهونه.

الربيع بارد جدا! يا للجحيم، كانت هناك جنائز كثيرة، حفار القبور مشغول جدا، يا لهذه السنة الملعونة سنة ١٩٤٩، لقد فقد ابنه الأصغر أيضا، هذا النحيف الأواه ذو الجلد المقرّح، أوجست. أوجست، تمت تسميته علىٰ اسم عم آنا الذي توفي أيام تزوج جاكوب وآنا. لفترة كان غضبانا منه نظرا لسلوكه الوقح، وغبائه واختفائه حينما يريده لكي يقنعه بالسلوك الحسن ولكن بدا له الأمر بعد ذلك أنه منطقي، فأوجست أيضا خطف منه، لكي يجعلوا جاكوب شوارت بلا مساعدة. لو أن الصبي لم يأخذ علقة، أو يسيل الدم من وجهه...

بطيء الفهم، نعم، ولكن يعمل بجدية، ولد صالح، وأوجست يعرف القراءة أيضا، علىٰ الأقل يعرف كيف يعمل الحساب.

«لن أظل بلا سلاح، لن أظل خنوعا»

شيء غريب وفظيع، هذا الشلل الذي أصاب هؤلاء الذين أعلنوا أنهم أعداء الرايخ، كأنهم مخلوقات مخدرة، والحيوان المفترس قادم. هتلر لم يكن مضللا، هتلر كان صريحا، واضحا. لقد أرغم جاكوب شوارت نفسه وقرأ كفاحي، علىٰ الأقل قرأ في كفاحي... الثقة المجنونة، العاطفة، معركتي، حملتي، نضالي، حربي.



ضع بجانب مهاترات هتلر، منطق هتلر الشيطاني، كم هو تافه، وكم هو ضعيف، وما هي إلا مجرد كلمات، والكلمات ما هي إلا أعمال عظيمة للفلسفة، ما الكلمات إلا أحلام البشر للرب.

وهنا، بين أعدائه في وادي تشاتاقوا، لن يكون جاكوب شوارت مخدرا، لن يكون مُباغتا، ولن يكون أعزل. لن يعيد التاريخ نفسه.

إنه يعتب علىٰ أعدائه أيضا أنه، هو جاكوب شوارت، الراقي، المتعلم والذي هو مواطن ألماني رسميا، كيف يدفع لهذا السلوك البربري.

هو، مدرس الرياضيات السابق في مدرسة أولاد معتبرة، الموظف المحترم في أكثر المطابع تميزا في ميونخ والمتخصصة في المطبوعات العلمية؛ يصبح الآن حفار قبور، قائم بأعمال مقابر لهؤلاء الآخرين، أعدائه! يجب أن يحفظ قبورهم المسيحية، ويقوم برعاية مقابرهم، الصلبان! عملية الصَلب! وتلك الملائكة التماثيل. نعم كان يقوم برعاية المقابر، عندما لا يكون هناك أحد يراقبه كان يروي القبور ببوله الساخن، فعل ذلك هو وهارشيل من سنين مضت، وكانا يضحكان كنهيق الحمير.

أما جوس فلا، فجاكوب كان يفكر بأنه لا يمكن يمزح مع جوس بهذا الشكل. أن يتبول مع والده، أن يفك البنطلون ويخرج قضيبه، ما كان الصبي ليفعل ذلك إنه يخجل أكثر من خجل البنات، هذا ما آل به خزيه، أنه فقد أبناءه. لذلك يجب أن يخبر إدارة المحليات، وإلا صار الوضع في منتهىٰ الارتباك.



«سوف ترى، حالا ستنفتح عيونك العمياء»

هؤلاء القرويون المعاتيه يجدعون أنوفهم تقززا من رائحته، عندما رأوا أنه غير حليق، رجل بشع بظهره المحني، يقلب طاقيته القماش في يديه، قالوا له في شفقة، واحتقار، وهم يشرحون له بصفاقة ورياء أن الميزانية، الميزانية، ربما العام القادم، العام القادم سنرى، شكرا لقدومك يا جاكوب.

«اسمها إبادة جماعية، أنت صغيرة، وجاهلة فلم تتعلمي إلا لِماما في هذه المدرسة، ولكن ستعرفين أنه في عالم الحيوانات سرعان ما يتم التخلص من الحيوانات الضعيفة، يجب أن تخفي ضعفك يا ريبيكا»

كان يتكلم بحماس عنيف كما لو كانت تجرؤ أن تشك في ذلك، وفي الحقيقة كانت تومئ دائما بالإيجاب.

ليس لديها فكرة عما يتحدث، وقلقة من أنه في عز حماسه يمكن أن يبصق عليها لأنه يمضغ حشوة من التبغ، وكانت تسيل عصارة المضغ على ذقنه. كلما ازداد حماسه زاد رذاذ التبغ من بين شفتيه. ولا يتوقف إلا لكي يدخل في نوبة سعال.

«هل تصغين لي يا ريبيكا، هل تسمعينني؟»

صار حزينا، فلم يعد معه أولاد، لقد عقم، يا للعار لم يعد له رجال، ما إلا بنت واحدة، يجب عليه أن يحب البنت التعيسة، فليس له خيار.



يا للعنة، لقد نكدت عليه، تلك الفتاة الجبانة ذات البشرة الداكنة مثل بشرته، ونظرة غجرية من عيون جميلة غامقة لامعة وليست عيون ضيقة. إن اللوم يقع علىٰ آنا، لقد لام علي آنا بشكل غامض، ولكن ليس لأنه لا يحب الفتاة. من يدري لماذا، أحيانا تلام الأم في الأسرة علىٰ إنجاب البنت.

«طفل آخر، لا، لا أستطيع»

في هذا السرير الغارق في الدم، في الكابينة التي بلا نوافذ، في هذا المكان القذر، كيف يمكن لطفلة أن تختنق بسهولة، ويا لها من رحمة أن تختنق، فلتطبق يد كبيرة علىٰ هذا الوجه الذابل الأحمر كالطماطم المسلوقة قبل أن تستطيع التنفس والصراخ، قبل أن يدرك الأولاد أن لهم أختا. ومع ذلك لم تمت ريبيكا بل عاشت. كيف يحتمل إنجاب طفل في هذا المستنقع من القرن العشرين.

والآن قد بلغت الثانية عشرة. يشعر جاكوب في حضورها بأن قلبه النكد انكمش بشيء ما لا يستطيع تحديده.

لم يكن حبا، ربما شفقة. لأن ريبيكا بلا أدنىٰ شك هي بنت جاكوب. إنها تشبهه أكثر من الولدين. فلها نفس الوجنات الحادة التي له، ونفس تفريعة الشعر التي علىٰ جبينه (عندما كان شعره كثيفا). لها نفس عيونه القلقة، كانت ذكية مثله، ومرتابة. مختلفة كثيرا عن أمها ذات الوجه الجميل والجميلة أنثويا، بشرة شقراء، شعر بني فاتح، ولها ضحكة جميلة، تجعلك تضحك معها ولو علىٰ أتفه الأشياء. عندما كانت تضحك آنا من زمن بعيد. لكن ابنتهما ريبيكا لم تكن تضحك. ربما أدركت كطفلة أنها لم تكن لتعيش. لها روح هستيرية وعنيدة، مثل



أبيها، قلبها مثقل بالحزن، حواجبها تنمو مستقيمة وبكثافة كالرجال، فلم يتعطف عليها رجل قط بقوله. جميلة...

لم يكن جاكوب يثق في النساء، فالنساء كما قال شابنهاور: مجرد جسم، وللولادة. النساء تغري الرجل (الضعيف، والشهواني) للمعاشرة، ورغما عن رغبته، للزواج الأوحد. حسنا! ها هي ابنته التي تشبهه تماما إلا أنها أنثىٰ صغيرة تبدو لجاكوب منفرة، كما لو أن جاكوب شوارت لم يعرف نفسه جيدا، ولا يثق في نفسه.

يقول موبخا: «نعم أنت جاهلة الآن، فلا تعرفين شيئا عن هذا العالم المستنقع»

وأمسك بذراعها، هناك شيء ما يريد أن يريها إياه في الخارج، يخبرها كيف في القرن العشرين، وبأفعال من ألمانيا، وما يسمىٰ بقوات المحور تم تدمير كل مجهودات الحضارة من الإغريق وخارجها، بفعل اللهو الشيطاني إما بالمحو أو الإهمال، وذلك لمصلحة الوحش المفترس. الألمان لم يخفوا ذلك. عبادة الوحش لمفترس... لا أحد منهم الآن حي نادم علىٰ الحرب، فقط نادمين علىٰ خسارتهم في الحرب، علىٰ إذلالهم، وإهانتهم، وتحطيم أمنياتهم بإبادة عدوهم.

«كثير هنا كان يؤمن بهم يا ريبيكا، كثير هنا في ميلبرن. كثير من النازيين كانوا محميين، وسيظلون محميين، لن تتعلمي شيئا من هذا في كتب المدرسة، كتب التاريخ المدرسية سخيفة، لقد تصفحتها. لقد انتهت الحرب الآن ظاهريا، منذ ١٩٤٥. لكن انظري كيف يكافئ هذا البلد المحاربين الألمان. كم من ملايين الدولارات تعطي لألمانيا



عرين الحيوان المفترس! ولماذا؟ إن لم تكن مكافأة لهم. لكن داخليا الحرب تستعر، لن تنتهي الحرب حتىٰ يموت آخر واحد فينا»

كان مشارا، لعابه لم ينقطع، ولكن لحسن الحظ في الفضاء فتستطيع ريبيكا أن تتجنبه. ابنته الغبية العنيدة لم تكن قادرة علىٰ رؤية ما هو أمامها، ما تحت قدميها! لقد نفذ صبره معها، راح يقبض علىٰ كتفها ويهزها بشدة حتىٰ راحت تئن من الألم. أنت واحدة منهم! واحدة منهم! هيا اذهبي وابكي عند أمك، ودفعها بعيدا عنه، علىٰ الممر، علىٰ الحصىٰ المدبب بحدة، وتركها هناك تنتحب وتدعك في أنفها، وهي تحدق فيه بعينين واسعتين، ومرعوبة. وراح يمشي غاضبا وهو يسب ويلعن ليحضر جرافة ليزيل هذه الصلبان المعقوفة المستفزة.

العفاريت! لم يفكر في هذا.

إنه رجل العقل، فلم يفكر في مثل هذه الأمور، ولا زال.

عفريت! إنه ماكر ورشيق الحركة كالثعبان، قد يسيطر علىٰ أنثىٰ ضعيفة العقل. لقد رأىٰ منذ مدة في حديقة الحيوان بزيورخ ثعبانا غريبا بثمان أرجل، كوبرا، لدنا بشكل مدهش، يسري في مجرىٰ مستديم، يسري الثعبان علىٰ ضلوعه العديدة كالمياه، في جلده المحرفش اللامع الجميل. دارت عيناه في رأسه، وشعر كأنه يغمىٰ عليه، متخيلا كيف يدخل العفريت الثعبان في جسد الأنثىٰ.



أعلىٰ ما بين رجليها ثم إلىٰ أعلىٰ. لذا فهو لا يثق فيهن؛ زوجة أو ابنة، ولأنه رجل عقل لا يريد أن يؤمن في العفاريت ومع ذلك فربما كان هو التفسير.

كان عقل آنا مثل جسدها لدنا بفعل الزمن؟ فصحتها لم تتحسن منذ حملها الثالث، وألم الولادة الثالثة. في الحقيقة هي لم تتحسن منذ رحلتها من ألمانيا.

شعر أنها تلومه، لأنه زوجها وهو رجل، ولكن ليس بالرجل الذي يحميها ويحمىٰ أطفالهما.

مع ذلك آنا تعود في الليل للحياة، في نومها، في أحلامها الشهوانية. آه، لقد علم ذلك، فقد سمع أنينها، وأنفاسها اللاهثة. شعر بارتجافات جسدها. سريرهما يفوح برائحة عرقها العفنة، وإفرازاتها الأنثوية.

أول مرة ظهر فيها عفريت آنا حدث في عبور المحيط. ظلت تهذي، وتغمغم، وتهتاج وتضربه بقبضتها، ليس في عيونها أي حب أو تقدير له. عيون شيطانية! عيون صفراء غامقة! لقد خرجت من بين شفتيها أشنع الكلمات والكفر والفحش في ألمانيا كلها، لم تكن كلمات الزوجة البريئة أو الأم، لقد كانت كلمات الشيطان العفريت.

في ذلك اليوم رأي آنا في ركن ما في الزريبة وهي تلف المولود الصغير في شال قذر، فقالت: هل تريد مني أن أخنقها؟ لم يدر أهي جادة في هذا أم مجرد أنها تغيظه؟



الآن لا يثق في آنا أن تعد له الطعام. فمن عاداتها أن تغلي مياه البئر، ليقينها ويقينه أن مياه البئر ملوثة، لكنها صارت لا مبالية ومهملة. وبذلك أصبحا تدريجيا مسجونين، وهو لا يثق فيها مع الرجال الآخرين، فأي رجل يرىٰ آنا يرىٰ في الحال أنوثتها واضحة كالعري. لأن هناك شيئا ما مهملا ومثيرا جنسيا في جسم آنا المغضن والطري، ووجهها البناتي المنساب، ونظرتها المتبلدة اللدنة التي تثير رغبة الرجل، حتىٰ لو كانت منفرة.

لقد أصبحت آنا مراوغة وجريئة. فهو يعرف أنها تعصيه بتجرؤها علىٰ تشغيل الراديو، أكثر من مرة. لم يضبطها مرة تفعل ذلك لأنها كانت كما يعرف ذكية. والآن احترقت توصيلات الراديو ولا يمكن استبدالها، فلا أحد يستطيع أن يستمع لهذا الراديو اللعين، وفي هذا علىٰ الأقل ما يبعث علىٰ الرضا.

هناك أيضا ريبيكا، ابنته. لقد بدأ جسمها النحيل الطويل في الامتلاء، وبدأ يأخذ تقسيمات الأنثىٰ. يلمحها من الباب نصف المفتوح وهي تغسل نصف جسمها الأعلىٰ وهي تركز بنوع من العبوس. حدثت له صدمة عندما رأىٰ صدرها الصغير الأبيض بدأ في النمو بحلماته المبرعمة كحبات العنب، ولما رأىٰ تحت إبطيها تلك الشعيرات الداكنة، وساقيها... لقد أيقن أنه لا يمكن أن يثق فيها بعد الآن منذ أن رفضت الإقرار بعلامات الصلبان المعقوفة في الممر. بل ومن قبل ذلك عندما رأىٰ صورتها في الصحيفة. مسابقة التهجي! ريبيكا إيثر شوارت! عندما سمع عن هذا الأمر أول مرة وكانت قد أخفت ذلك عنه وعن آنا.



كان يعرف أن البنت تنمو بسرعة. فمنذ أن دخلت المدرسة تحولت لواحدة منهم. لقد رآها مع بنت جريب القذرة، إنها تنمو، وستتركه، علىٰ الرجل أن يسلم ابنته لآخر مهما ادعىٰ انتماءها له، فهذا أمر منته.

«لذلك عليّ أن أقسىٰ قلبي تجاههما»

يدرك أحيانا أثناء ربيع ١٩٤٩ بأمطاره القليلة أن سخطه لم يكن بسبب هؤلاء القرويين الجهلة الذين يحيطون به، ولكن بسبب هؤلاء اليهود الذين كانوا من سنه منذ زمن طويل حينما يتجهون بقلنسواتهم وشال الصلاة وهم يغمغمون لربهم السخيف.

الإله يهوة بركان خامد. تأتي له تلك الحقائق أثناء الليل وهو جالس في المطبخ أو في مدخل البيت وهو يشرب السيدر التي يأتي بها من معصرة علىٰ الطريق لكونها رخيصة وقوية في نفس الوقت، وبجواره البندقية تحسبا للمتسكعين والمخربين، فهو لا يخاف من الموتىٰ. إنما العفاريت ليسوا بموتىٰ فهم أحياء، لا يشبعون. في هذا المكان الذي لفظه فيه التاريخ وتركه كالقمامة، لا زال سخطه العميق علىٰ هؤلاء العجائز بلحاهم السوداء الذين كانوا من سنه أيام الفتوة في ميونيخ فقد كان يرىٰ الرعب في عيونهم وكأنهم أخيرا بدأوا يفهمون؟

«لا أحد، أترىٰ؟ الله لا شيء وليس في أي مكان»



قالت لـ جريب وكأنها تـوا فكـرت في ذلـك: «يمكنك أن تظلي معي يا ريبيكا، تنامين معي في السرير فهناك متسع»

تتحدث كاتي دائما باندفاع من لا يرىٰ مسافة بين ما يرغب فيه وما يعبر عنه في حينه. تلعثمت ريبيكا فهي لا تعرف ماذا تقول.

«ماما من المؤكد لن تمانع، فهي تحبك جدا»

«ماما تحبك جدا»

من تأثرها لم تتكلم ريبيكا في البداية، ودون أن تلاحظ أين تمشي ارتطم إصبعها في صخرة وهي تسير علىٰ طريق المحجر.

كاتي جريب هي الوحيدة التي أسرت لها ريبيكا بأسرارها، كاتي الوحيدة التي كانت تعرف مدىٰ رعب ريبيكا من أبيها.

«ليس مما يفعله بي، ولكن مما يفعله بماما، عندما يكون مخمورا بالليل»

تتمتم كاتي وكأن ما تجرأت ريبيكا أن تقوله ليس مفاجئا لها:

«بابا نفس الشيء غير أنه غير موجود حاليا، لذلك ماما تفتقده»

راحت البنتان تضحكان معا. يجب أن تضحكي من هؤلاء الكبار، إنهم سخفاء.

بالطبع ليس هناك متسع لريبيكا في بيت جريب الخشبي الآيل للسقوط. ليس هناك مكان لبنت في الثانية عشرة، تقريبا الثالثة عشرة، أطول من سنها، جبانة ومكتئبة.



بشكل ما صارت كاتي، في الصف السابع، الصديقة المقربة لريبيكا.

كاتي فتاة ذات عظام عريضة وشعر قش وأسنان لها رائحة كمياه مصرف كريه، ووجه كبير مورد كعباد الشمس. ضحكتها عالية ومعدية. نهودها كالنتوءات المتأرجحة على صدرها كقبضة يدها المختفية في الجاكت الاستعمال التي ترتديه.

كاتي أكبر من ريبيكا بسنة، ولكن في غرفة تجمع الطلاب في الصف السابع صارت صديقة مقربة لريبيكا، لأن لا أبو ريبيكا ولا أمها سمحا لها أن تتخذ أي صديقات. هؤلاء الآخرون لا يمكن أن تثقي فيهم.

أسرة جريب هي أقرب جار لأسرة شوارت على طريق المحجر. لليورا جريب خمسة أبناء منهم اثنان، أصغر اثنين، معاقان ذهنيا، أحدهما ولد في السابعة ولم يزل في الحفاضة ولا يستطيع أن يعمل تواليت بمفرده، أما الثاني فبنت في السادسة ولا تزال تهذي بالكلمات ولا تستطيع الكلام كالأطفال الآخرين. كان منزل جريب مغطى بالأسفلت في الجوانب، بقرب مقلب القمامة. وكانت ريبيكا ترى أنه أسوأ من منزل شوارت، فعندما كانت تهب الريح من تلقاء مقلب القمامة كانت رائحة القمامة العفنة والإطارات المحترقة تملأ منزل جريب.



أبو كاتي هو بوود جريب، لم تره ريبيكا قط، يقال إنه في بلاتسبورغ على حدود كندا، رهن الاعتقال في أكثر سجون الرجال تأمينا.

رهن الاعتقال! يا لها من كلمة تقال عندما يذكر بوود جريب.

كم هي مفاجأة لريبيكا عندما علمت أن ليورا ليست أصغر من آنا، فكلاهما في أوائل الأربعينات، ولكنهما مع ذلك مختلفتان. فشعر ليورا أصفر يشد العيون، وكانت تضع ماكياجا يجعلها تبدو أكثر شبابا ونضارة، عيونها متيقظة وضاحكة حتى في غياب بوود جريب (محكوم عليه من سبع إلى عشر سنوات بتهمة سطو مسلح)، كانت ليورا في معظم الأوقات في حالة معنوية مرتفعة.

تعمل ليورا خادمة نصف وقت في فندق الجنرال واشنطن في ميلبرن الذي يُدعى بأنه أول فندق في منطقة وادي تشاتاقوا.

تقود ليورا سيارة دودج سيدان ١٩٤٥ تركها في رعايتها زوجها الموضوع رهن الاعتقال. أحيانا عندما تكون في حالة مزاجية مرتفعة تقتنع أن تذهب بكاتي وريبيكا للمدينة، تقر كاتي أنهم يفتقدون أباهم أحيانا، ولكن الوضع بدونه أسهل، فلا خناقات كثيرة، ولا أصدقاؤه يتسكعون حول البيت، ولا الشرطة تأتي في عز الليل لتسلط أضواءها على المنزل فيرعبونهم جميعا.

لقد أسرت كاتي لريبيكا أن ليورا لها عشاق تقابلهم في الفندق وأنهم من المفترض ألا يعرفوا ذلك، ولكنهم يعرفون.



كـان الرجـال يعطـون بعـض الأشـياء لليـورا، أو يتركونهـا لهـا في غرفات الفندق، ومن ثـم تعطيهـا ليـورا لبناتهـا، أو أنهـم يعطونهـا نقـودا فعلية، والتي في رأىٰ ليـورا، كمـا تتغنـىٰ بهـا ليـورا وكأنهـا صـوت راديـو يقول، مرحبا بك دائما.

كانت ليورا في الحقيقة تشرب أحيانـا وتصير وقحـة فعـلا فتأنـب وتنكد علىٰ أبنائها، ولكنها في معظم الأوقات تكون لطيفة معهم.

تنتاب ليورا أحيانا بعض الكآبة، فهـي لا تختلـف كثيـرا عـن كـاتي وريبيكا إلا أنها تدخن سيجارة من سيجارة وتشرب البلاك هورس من الزجاجة مباشرة (مع ذلـك فـإن سلوكها أنثـوي حسـاس، حينمـا ترفـع اصبعها الخنصر وهي ترفـع زجاجة الخمر) كانت ريبيكا تتوق لتعـرف ماذا تقول آنا شوارت عن هذه المرأة.

والطريقة التي تشخر بها وهي تضحك عندما يكـون ورق اللعـب ضدها، وكأنما سوء الحظ كان نوعا من النكت.

شغل نوع من الطنين رأس ريبيكا. فقد كان يجب عليهـا أن تخـبر كـاتي بأشـياء لـم تكـن لتقولهـا. كـم هـي تخـاف مـن أبيهـا أحيانـا، وكـم تشتاق لأخويها، ولكم تمنت لو أنهما أخذاها معهما.

كلمات ريبيكا مستهترة ومتهـورة، مثلمـا شـخص مـا في مسلسـل هزلي فقد قالت:

«أتمنىٰ لو أخذاني معهما للجحيم لو أن ذلك ما ذهبا إليه»

قالت ليورا وهي تنفث الدخان من أنفها:

«هارشل شخصية كنت دائما معجبة به، هل هو حي؟»



اندهشت ريبيكا للسؤال، ولم تعرف أن ترد في لحظتها.

«أقصد هل تسمعون أخباره؟»

فغمغمت ريبيكا: «لا، وهذا ما تعرفه»

استمرت ليورا في طريقتها غير المترابطة لتتحدث عن هارشيل.

تأثرت ريبيكا، لتعرف كم يعرف هؤلاء عن أخيها أكثر مما تعرف عنه أسرته. إنه شيء غريب أن تكون قريبا من شخص ما ولا تعرف عنه مثلما يعرف عنه الآخرون. وهذا جعل ريبيكا تفتقد هارشيل أكثر رغم أن الطريقة التي اعتاد أن يغيظها بها لم تكن لطيفة. راحت تقول ليورا بحماس أنثوي:

«إن ما فعله هارشيل مع هؤلاء الأوغاد يستحقونه، أحيانا تضطرين أن تأخذي حقك بيدك»

أخذت ريبيكا تفرك في عينيها فما تقوله ليورا عن أخيها جعلها توشك أن تبكي، مثلما ترفع مرآة قليلا، فترى زاوية لم ترها من قبل، وتكون مفاجأة لك، ففي المدرسة لا تقال كلمة واحدة طيبة عن هارشيل، إلا أنه هارب من القانون، ومطلوب من قبل الشرطة، وقد تم إرساله إلى أتيكا حيث سجون الزنوج من بافالو، لكي ينال ما يستحق.

تحول ليورا سيجارتها من يد لأخرى، وهي تنفض الرماد، من المؤكد تأثير البلاك هورس هو الذي جعل ريبيكا تقول ذلك، لقد جعلها تشعر بالاختناق والضحك في نفس الوقت.

قالت ليورا بعد تفكير:



«يقال إن أباك من الصعب أن تفهميه، أنا لا أدعىٰ أنني أفهم جوزيف شوارت»

جوزيف، ليورا لا تعرف اسم أبيها تماما، انكمشت ريبيكا من الخجل، فاسم شوارت يلدغها عندما تسمعه، فبمجرد أن تسمع الناس تنطق به تعرف أنهم يتكلمون عنه، سواء شخصيا أو عموما فذلك يصدمها، ومع ذلك سمعت ريبيكا نفسها تقول، في شبه تحد:

«لست مضطرة أن تفهميه، فأنا موجودة، وماما»

فقالت ليورا بحرص، ودون أن تنظر إلىٰ ريبيكا: «ماذا عن ماما يا ريبيكا؟ إنها منعزلة، أليس كذلك؟»

أعطت ريبيكا ضحكة حزينة، فراحت كاتي تقول وكأنها تجادل مع ليورا: «ماما أنا قلت لريبيكا إنها من الممكن أن تمكث معنا إذا أرادت ذلك»

فقالت ليورا وهي تأخذ آخر نفس من سيجارتها: «حسنا»

تضحك ريبيكا، فمفعول السائل اللاذع ما زال له تأثير، شعرت بأن هناك فقاعات من الغازات في جوفها فخافت أن تتقيأ ما بداخلها، وصارت خدودها محمرة جدا كما لو أنها صفعت عليها.

حدث كل ذلك ولا زال كونروي ومولي يلعبان الكوتشينة، لا يدريان بالتغيير. فليس لديهما أدنىٰ فكرة عن أن ريبيكا خدعت والديها، ليس كما وضعت كاتي الموضوع لليورا، وأن ريبيكا سوف تمكث معهم بعد تردد من ليورا. كان كونروي عريض المنكبين دائم التنفس بخنفة وله عادة سيئة وهي أنه دائم الفرك في انفه بظهر يده لدرجة أن ريبيكا فكرت. لو أن الأمر بيدي لخنقته «وتملكتها الرغبة في



أن تقول ذلك لليورا، وراحت ريبيكا تمسك ورق اللعب في يديها بشدة.

«قلب، سباتي، كومي» كانت تقول ذلك محاولة أن تثبت أنها جادة في اللعب.

«هل الشايب القلب ينفعك؟ أم عشرة سباتي؟ أم بنت وولد؟» كانت تتمنىٰ أن تحصل علىٰ سبع ورقات من نوع واحد فتضعها علىٰ الطاولة بتباه، فيبحلق كل فرد في أسرة جريب.

لم ترد شيئا إلا أن تستمر في لعب الورق مع أسرة جريب للأبد. والضحك والدعابات وارتشاف الجعة. تمنت لو أنها حين تدعوها ليورا للعشاء تعتذر وتقول. شكرا، لا أستطيع، إنهم يريدونني في المنزل. لكن بدلا من ذلك رمت ريبيكا بورق اللعب فجأة، فسقط بعض الورق علىٰ الأرض، دفعت ريبيكا بالكرسي بعيدا عن الطاولة محدثة ضجة، عليها اللعنة لو أنها حاولت أن تبكي، واللعنة علىٰ أسرة جريب لو أنهم توقعوا ذلك.

«أكرهكم أنتم أيضا، اذهبوا للجحيم»

قبل أن يقول أي فرد كلمة صفعت ريبيكا الباب وأسرعت للخارج، وتعثرت علىٰ الطريق. نظر الجميع داخل المنزل إليها في اندهاش.

حدث ذلك في أبريل بعد أسبوع من رحيل جوس.

«بابا العجوز السكير، أنا أكرهه»



لم تستطع تصديق أنها تلفظت بهذه الكلمات، وأن أسرة جريب سمعتها، بالطبع سيخبرون كل واحد، حتىٰ كاتي التي تحب ريبيكا ستخبر كل واحد له أذن.

في المدرسة تجاهلت ريبيكا كاتي جريب تماما وللأبد.

«هاللو ريبيكا»

«دعوني لحالي، اذهبوا للجحيم»

كانت هناك حلقة من البنات في وسطها كاتي يتبسمن باحتقار وهن يتكلمن عن ريبيكا، كانت ريبيكا تريد ذلك، أليس كذلك؟ تريدهن أن يكرهنها ويدعنها لحالها.

طوال الربيع، كانت العداوة تلاحقها كرائحة المطاط المحترق. بنت حفار القبور يمكنها أن تذهب وتلعب في نفسها.



في أحد أيام الأسبوع يوم ١١ مايو ١٩٤٩، تأخرت بعد المدرسة بقدر ما تستطيع خوفا من عودتها للبيت وكأنها تدري بما ينتظرها، راحت تصيح بأمها، يرتفع صوتها برعب طفولي. فزعت وهي تقترب بخطىٰ مضطربة نحو الباب الذي كان نصف مفتوح، ذلك الباب خشن الخشب الذي دهنه بعد تخريب ليلة الهالوين بطبقة كثيفة من الأخضر الغامق لكي يخفي تحتها العلامات. راحت تنادي:

«ماما، ها هي أنا»

ومن خلف أحد أركان البيت هناك، كما لو أنه تهكم من ذعرها، منظر بعض الملابس علىٰ حبل الغسيل مثل الفوط الرثة، وملاءة ترفرف في الهواء لذلك كان من المنطق لريبيكا التي تؤمن بالتفكير السحري أن تخبر نفسها. لو أن أمي نشرت غسيلا اليوم... لو أن اليوم... الغسيل... يوم الغسيل.

ما زالت تلهث وتجري، تجري طوال طريق المحجر، لقد مرت ساعات منذ أن انتهىٰ اليوم الدراسي. الساعة حوالي السادسة، والشمس ما زالت في كبد السماء، قلبها يخفق في صدرها كالجرس المشوش، كحيوان يشتم الخوف، جريح، ينزف دما، تستشعر غريزيا أن شيئا ما قد حدث، تفكر في أمها، التي سجنت في هذا المنزل. كيف لا تدخل ريبيكا، وهي تعرف أن أمها هناك، داخل المنزل.

«اسألي الله لماذا تحدث هذه الأشياء، لست أنا»

في ذاك الربيع، في ذلك الفصل، فصل التجوال غير الممنهج والجريء، تتجول كالكلب الضال. مترددة أن تعود للمنزل الحجري



في المقابر الذي ستتذكر في يوم من الأيام أنه بني علىٰ تل كبير كالزنزانة أو المدفن، كرهت أن تعود للمنزل رغم أنها تعرف أن أمها تنتظرها. كرهت أن تعود منذ أن ترك هارشيل المنزل، منذ أن ترك جوس المنزل وراح يسافر مجانا في الحافلات المتجهة غربا. لقد بدأت تستطعم اللغة الغاضبة، في البداية همسا ثم بصوت عال. خفق نبضها بشدة وأشعل حنجرتها بمتعة كراهيتها لأخويها اللذين هجراها هي وأمها وتركاها للرجل المجنون جاكوب شوارت.

بعد انتهاء الربيع أصبح من الصعب أن تستمر ريبيكا في المدرسة طوال اليوم. مرة بمرة وجدت نفسها تخرج من المدرسة وهي لا تدري ماذا فعلت غير أنها ما عادت تحتمل الفصول الخانقة، والكافتريا التي تبعث رائحة الحليب والأطعمة المحترقة، ولا الطرقات المليئة بزملائها وهم يتدافعون لبعضهم البعض كالبلداء، أو كالحيوانات العمياء وهي تندفع علىٰ منحدر. خرجت من المخرج الخلفي لا تعبأ بمن يراها أو يبلغ عنها. فإذا سمعت أي صوت ينادي خلفها بصرامة وتحذير. ريبيكا! ريبيكا شوارت أين ذاهبة؟ لم تتعب نفسها لتنظر خلفها ولكنها تندفع للخارج وهي تجري.

صارت درجاتها في المتوسط أو أقل من المتوسط، حتىٰ في اللغة الانجليزية أفضل مادة لديها. لقد أصبح مدرسوها قلقين عليها، كما تقلقين علىٰ فأر محشور في ركن.

لقد بدأت تصبح ريبيكا شوارت مثل أخويها، تلك الفتاة التي كانت يوما ما واعدة.



يتسكع الرجال علىٰ الجسر وهم يتكئون علىٰ الدرابزين الذي يعلو عن المياه بحوالي ثلاثين قدما، وهم يدخنون ويرتشفون أحيانا من زجاجات مخبأة في شنط ورقية. هذا مكان الخفوت، يميل للصمت مثله مثل المقابر حيث ترقد الأشياء في صمت.

لماذا جاءت ريبيكا هنا، هي لا تدري، ولكنها احتفظت بمسافة بينها وبين الغرباء.

بعض الناس محاربون قدامىٰ، أحدهم يسير علىٰ عكاز، وهو ينحي وجهه بعيدا، آخر يرتدي نظارة إحدىٰ عدستيها مظلمة مما يدل علىٰ أن له عينا واحدة، الآخرون لم يكونوا كبارا في السن ولكن وجوههم مجعدة وبها بعض الإصابات، هناك أيدي مرتعشة، وسيقان ورقاب مجبسة، هناك رجل سمين جدا بركبة مبتورة، يتمدد أحيانا علىٰ لوح معدني في الجو الصحو ويتشمس كالزواحف، مقزز ولكن جدير بالمشاهدة، شعره أشيب وخفيف كشعر جاكوب شوارت ولو أن ريبيكا تجرأت واقتربت فسوف تسمع أنفاسا محشرجة متقطعة كأنفاس أبيها حينما يهتاج. في إحدىٰ المرات، استيقظ الرجل السمين من استرخائه وراح يراقبها بابتسامة باهتة وجفون ترتعش. أرادت أن تبتعد ولكنها لم تستطع. فهي تعرف أنها لو جرت بعيدا عن الرجل الزاحف فسوف يناديها وكل الناس سترىٰ ما يحدث. لم يكن بينهما إلا مسافة تقرب من عشرة أقدام، لم تعرف ريبيكا كيف اقتربت كل تلك المسافة.

«ليس هناك مدرسة اليوم يا بنية، إجازة، أليس كذلك؟»



كان يمزح، وإن بدا وكأنه يهددها بأن سيبلغ عن هروبها من المدرسة.

لم ترد ريبيكا، اتكأت علىٰ درابزين الجسر وهي تحدق في المياه تحت، القنال في الأرياف هادئة ومنبسطة، أما هنا عند ذلك الهويس فالتيار سريع وخطير، يندفع علىٰ الهويس بهيجان مستمر، ويخض رغوات الموج، ويصنع إزعاجا رهيبا، وكأنه نار هائلة. لا يمكن أن تسمع أصوات المرور علىٰ الجسر، وأصوات دقات ساعة البرج الخاصة بالبنك الأول في تشاتاقوا، لا تسمع صوت الآخرين إن لم يزعقوا.

«أنا أكلمك، يا بنية، هل اليوم إجازة؟»

لا تزال ريبيكا ساكتة، لا هي أعطت إجابة، ولا هي ابتعدت. كانت تراه بركن عينها وهو ممدد لاهثا. كان يقهقه، ويفرك بيديه علىٰ أسفل بطنه البدينة جدا، وكأنها غدة درقية.

أيام صداقة ريبيكا لكاتي اعتادت أن تأتي لمحلات البحرية مع كاتي، لأن المحلات تعرض دائما أشياء أوكازيون. تذهب البنات لمحلات وولويرث، نوربان، ومونتجمري، ليس للشراء غالبا ولكن للفرجة. لم تجرؤ ريبيكا الذهاب لهذه المحلات بدون كاتي. فهي تعرف كيف سينظر إليها الباعة بعين الارتياب والكره. لأنها تبدو كالهنود (لقد كانت هناك أرض خاصة للسينيكا في شمال شلالات تشاتاقوا) ومع ذلك كانت تذهب للفرجة علىٰ الفاتارين، أشياء كثيرة! ينعكس عليها طيف البنت الشاحبة بشكل مبهر.



وحدة الحياة المنعزلة، الذي عزاها أنها غير مرئية، لا أحد يهتم بأن ينظر إليها.

في مرة وحيدة رأت ريبيكا أباها في ميلبرن، في وسط البلد وهو يعبر الشارع تجاه البنك الأول في تشاتاقوا.

برز جاكوب شوارت فجأة، وهو ينضح بلون قرنفلي غامق، بوجهه العفريتي، وظهره المكسور، وهو يعرج في ملابس العمل المتسخة، وطاقية القماش وكأنها من مادة أنشف من القماش، أخذ طريقا جانبيا، لا يدري كيف ينظر إليه الآخرون باستغراب وانزعاج، ثم أكمل طريقه.

انكمشت ريبيكا ورجعت داخلة في حارة، فهي تحرص ألا يراها أبوها.

لقد حذرها هارشل من قبل أن تكون حريصة ألا يراها أبوها خارج المنزل، فهو يغضب جدا ويعتقد أنك تراقبينه وتتجسسين عليه لصالح ماما لكي تعرف ماذا يعمل، إنه لمعتوه.

حدث ذلك في أبريل ١٩٤٩، عندما قفل جاكوب شوارت حسابه في البنك واشترى البندقية.

في ذلك اليوم، ١١ مايو، لم تحتمل الذهاب للمدرسة، وراحت تتجول بدلا من ذلك عند محطة السكة الحديد، وممر القنال. هناك رائحة نفاذة وعفنة تصدر من مقلب القمامة، فلكي تتجنبها عبرت القنال من جسر طريق درام. توجد تحت الجسر أماكن كمخبأ لريبيكا.

«أكرههما، أكرههما كليهما، يا ليتهما ماتا»

كلاهما، وبعدها سوف...



لكن ماذا تفعل بعد ذلك؟ أتهرب مثل أخويها، وإلىٰ أين؟

أخذت هذه الأفكار تأتي لها وتثيرها تحت الجسر حيث تقرفص بين الحجارة والصخور، والمواسير الصدئة، والخرسانات المكسرة، والقضبان المعدنية البارزة من المياه الضحلة قرب الشاطئ. كل هذا كان بقايا إنشاء الجسر منذ عشرين عاما.

هي الآن بنت ثلاثة عشر عاما، مر عيد ميلادها دون أن يُذكر في المنزل الحجري، مثل أشياء كثيرة تمر دون أن تذكر.

يجب أن تذهب للبيت، فالوقت متأخر بعد الظهر، وماما تنتظرها. دائما هناك أعمال منزلية تنتظرها، ولكن آنا في الأساس تريد بنتها في البيت. بالطبع ليس لتتكلم معها أو حتىٰ تلمسها، فهي نادرا ما تنظر إليها، ولكن لكي تعرف أن ريبيكا في البيت وفي أمان.

في الجانب السفلي من الجسر الخشبي هناك وجوه فاتنة! وجوه أشباح تنعكس إلىٰ أعلىٰ من المياه المتماوجة تحت. حدقت ريبيكا في تلك الوجوه التي كانت غالبا وجوه أبناء خالتها الذين فقدتهم، فرايدا، الزبييتا، جويل، وكذلك وجه هارشيل ووجه جوس. تساءلت ريبيكا وهي حالمة هل هي ترىٰ تلك الوجوه أم لا.

لم تعرف لماذا أرجعوا أبناء خالتها وأهلهم إلىٰ العالم القديم، لكي يموتوا هناك، كما قال أبوها كالحيوانات.

«لماذا؟ اسألي الله لماذا؟»

«اسألي ذلك المنافق روزفلت»

في طريقها للبيت، علىٰ طريق المحجر سمعت أصوات طلقات نارية، كانت تنادي: «ماما، ماما» وهي تترجىٰ بشكل طفولي.



علىٰ أية حال دخلت البيت الحجري، موقنة أنها ربما يكون من الأجدر ألا تدخل، فهناك خطر ما، ثم نادت بعد ذلك علىٰ أبيها: «بابا؟»، تتعقل حتىٰ في هذه اللحظة من الرعب، إنه ود لو أنها تقدره، تحترمه.

لقد كانت في مطبخ البيت الحجري، وهي تسمع صوت معركة في إحدىٰ الغرف في الخلف، هل هي غرفة نوم أبويها؟

لهثت وهي تغرق في عرقها البارد، يخفق قلبها بشكل مضطرب وكأنه طير جريح يصفق بجناحيه. كل ما كانت تعرفه أنها نسيت... الغسيل؟ يوم الغسيل؟ صوت طلقات الرصاص، لم تعرف كم طلقة سمعتها. لم تتذكر أنه عبأ البندقية، أو أعدها للانطلاق، فهناك فرق بين شيء يحدث انفعاليا وشيء يحدث بتعمد.

سمعتهم، الأرضية تهتز تحت صراعهم. كان أبوها هائجا، صوته متحمس، وصرخات أمها المتقطعة، والتي أدركت ريبيكا فيما بعد أن آنا تتضرع للحياة، في حين آنا لم تضرع من قبل علىٰ مسمع من ريبيكا. عدم اكتراثها بجسدها، وتماسكها العنيد ذهب، اختفي كأنه لم يكن. تحاملها الذي يبدو وكأنه إذلال وحزن انتهىٰ. المرأة تتوسل من أجل الحياة وجاكوب شوارت يقاطعها كما لو أنه شامت:

«آنا، لا، إنهم قادمون، آن الأوان»



«كل واحد منا بداخله شعلة حية، والله هو الذي أضاء هذه الشعلة، تذكري ذلك يا ريبيكا»

تتردد كلمات روز لوتر في أذن ريبيكا، لا زالت تحاول أن تؤمن بها.

لم تزل بنت ثلاثة عشر عاما، قاصرا. فتوضع في الولاية تحت الوصاية حتىٰ تبلغ الثامنة عشرة، وإن جاز لها في السادسة عشرة أن تترك المدرسة وتعمل لكي تعول نفسها، كما فعل ذلك أيتام فقراء في الماضي.

«مع ذلك فإن الله هو الذي دبر هذا يا ريبيكا. يجب أن نؤمن بذلك... أنا النور الذي جاء للعالم، من يؤمن بي لن يرىٰ الظلام... »

«يا رب، سأؤمن بك، ساعدني لكي أؤمن بك»

عرفت أنه يراقبها. إنها تراه أحيانا بطرف عينها، لكنه عندما أدارت برأسها اختفىٰ. تتذكر علىٰ نحو غامض أنه يشاكسها. تتظاهر بأنها لا تتذكر.

بمرور الوقت عرفت أن الرجل الذي قتله أبوها في المقابر اسمه سيمكو؛ واحد وخمسون عاما، يقيم في ميلبرن فيما قبل، غير معروف بالنسبة لجاكوب شوارت، وأن قتله علىٰ يد جاكوب شوارت ليس مبررا. لقد مات في طريقه لمستشفىٰ شلالات تشاتاقوا في سيارة الإسعاف؛ بسبب إصابته بطلقات نارية في صدره. وذراعه اليسرىٰ عندما رفعها في محاولة فاشلة لحماية صدره ضد انفجار هذا الوابل



من الرصاص القريب، تمزقت إربا وتبعثرت شظاياها مع العظام البيضاء الناتئة.

«هذا الموت انتهاك، وظلم. هذا الموت جريمة»

أما موت أسرة شوارت أقل بالطبع. فقد ترىٰ الأمر منطقيا، فموت آنا شوارت بطلق ناري من مسافة قريبة، وكذلك انتحار جاكوب شوارت بطلق ناري من مسافة قريبة. قد يسأل الغرباء الابنة عما تعرف، وماذا يمكنها أن تخبرهم به. تتكلم ببطء وارتباك وبصوت خافت ينتهي بصمت حائر حتىٰ أن البعض يصدق أن بها مرضا عقليا، أو هناك اضطراب عقلي مثلها مثل باقي الأسرة، كآنا الزوجة مثلا أو أحد الأبناء أو كليهما. وهناك الأب المعتوه.

كيف تركت ريبيكا البيت الحجري في ذلك اليوم، ومن أخذها وأين ذهبت، لم تستطع ريبيكا أن تتذكر كل هذا.

في عام ١٩٤٩ تم هدم البيت الحجري القديم الذي في المقابر، منذ حادثة الانتحار لم يجرؤ أحد علىٰ العيش فيه، ولم يحاول أحد أن ينظفه. لذا قررت البلدية أن تهدمه وتبني آخر جديدا ليسكن فيه عامل المقابر الجديد وأسرته.



لن تنتظر لتبلغ عامها السادس عشر لكي تترك المدرسة، فسوف تفصل في نوفمبر ١٩٥١، ولن تعود. ففي ذلك اليوم قد لاقت ما فيه الكفاية، يا للعنة لقد لاقت ما فيه الكفاية، فلكم ضايقوها في المدرسة الثانوية، والمدرسون يعرفون ذلك، والمدير يعرف، ولكن لم يفعل أحد أي شيء ليتدخل. ففي ممر الصف العاشر، علىٰ السلم، جاءت فتاة كبيرة تدعىٰ مينيزر ودفعت ريبيكا من الخلف، وبدلا من أن تتصرف وكأنها لم تلحظ شيئا، وتدير لها الخد الآخر، كما نصحتها مس لوتر، وأن تبتعد سريعا دون أن تنظر خلفها، عادت ريبيكا وألقت بكتبها علىٰ من تعدت عليها وراحت تضربها وكأنها ولد ليس بلكمات هوائية ولكن في الصميم وما تحت الكتفين، فجاء ولد آخر واعتدىٰ علىٰ ريبيكا، وجاء آخرون ليعتدوا عليها، فراحوا يسبونها، ويخربشونها، ويضربونها. وانتشر الهياج في الممر كاشتعال النار في الهشيم، وفي الحال سقطت ريبيكا علىٰ الأرض وراحوا يركلونها، ويضربونها، ويركلونها، ويضربونها.

لقد كانوا يكرهونها لأنها أخت هارشيل، وهارشيل ترك وجه جيب مينيزر مشوها ومليئا بالندوب. إنهم يكرهونها لأنها بنت حفار القبور المعتوه الذي قتل رجلا اسمه سيمكو، رجل مشهور في ميلبرن، وهرب من الإعدام بالكرسي الكهربائي بقتل نفسه. لقد كرهوا ريبيكا لأنها صلبت أمامهم، ولم تذل نفسها. لأنها تصرفت بغرور، وكبرياء، سواء مع زملائها أو مدرسيها الذين كرهوا وجودها. فأجلسوها مع التلاميذ المشاكسين والأشقياء في آخر الفصل.



كل الذين اشتركوا في المشاجرة تم فصلهم من مدرسة ميلبرن الثانوية، وأمرهم المدير بترك المدرسة فورا. لم يفرق بين أحد حتىٰ ريبيكا التي هوجمت في البداية، فهو لا يريد مشاحنات في المدرسة. تهيأت هناك فرصة للالتماس في بداية السنة الجديدة، ولكن ريبيكا رفضت. لقد تركت المدرسة، ولن تعود.

إنها حرة! تستطيع أن تساعد نفسها، إنها تستطيع علىٰ أية حال أن تسكن في وسط البلد في ميلبرن. ليس في بنسيون السيدة سكيميدت سيء السمعة، ولكن في المنطقة في شارع فيري، في بناية آيلة للسقوط مكونة من عدة غرف مكتظة، وشقق صغيرة. هنا كاتي جريب وابنة عمها الكبرىٰ لافيرن تسكنان، ودعتا ريبيكا أن تسكن معهما، نصيبها في الإيجار بضعة دولارات أسبوعيا

«ما تستطيعين أن تدفعيه يا ريبيكا»

في الأسابيع الأولىٰ نامت ريبيكا علىٰ كومة من البطاطين علىٰ الأرض، لم يكن يهمها ذلك النوم المتعب أينما كان! لقد عملت في البداية كجرسون، وعملت موظفة في التجارة، وأخيرا عملت كخادمة في فندق الجنرال واشنطن، ما أحبته في ذلك العمل هو العزلة. رفع الملاءات من الأسرة، ولم الفوط المتسخة من الحمامات، وكنس السجاجيد، فتصبح في حالة ما يشبه الحلم. تحب لحظات أن تجد باب الغرفة غير مغلق فتدخل، حيث لا يلاحظها أحد، فلكونها عاملة غرف معها مفتاح عام يفتح جميع الغرف. إنها هي ريبيكا شوارت التي لم تكن شيئا تستطيع الآن أن تدخل جميع غرف فندق الجنرال واشنطن، بعيدا عن الأنظار.



يعطيها الرجال الكبار بقشيشا أكثر مما يعطي الصغار. وإذا تبادلت بعض الكلمات مع النزيل أو ابتسمت له يترك بقشيشا.

ترغب في إرهاق نفسها، لكي تستطيع أن تنام في الليل بدون أحلام، وإن حلمت فبلا ذكريات... إنه حظ سيء وأنت تعرفين ذلك، في بعض الأيام تسلك وكأنها تسير نائمة نادرا ما تدري بما حولها في ممرات فندق الجنرال واشنطن ذي الأسقف العالية، الذي لم يدخله جاكوب شوارت في حياته.

«ها أنا عاملة غرف، يا بابا!»

هل هذا انتقام منه؟ أم أنه انتقام من أمها؟



تجنـور منـدوب أو وكيـل مصـنع بيـرة. يسـافر للولايـات يتنـاقش مـع الفنـادق أو أصـحاب الحانـات والمطـاعم نيابـة عـن مصـنعه بـلاك هـورس للبيـرة في بـورت أوريسـكاني. راتبـه يعتمـد علىٰ العمولـة. يقـال عنـه إنـه حـاد الطبـع، وعامـة أكثـر وكيـل نـاجح لمصـانع البيـرة. يـأتي ميلبيـرن بـين الوقـت والآخـر ويقـيم في فنـدق الجنرال واشنطن. يترك بقشيشا كبيرا.

يقـال أن تجنـور رجـل غـامض، يقـال عنـه أنـه رجـل صـعب أن تعرفيه، ولكن كلما عرفته تأثرت به، يقال أنه رجل يحب النساء، ولكنه يمثل خطرا علىٰ النساء، لا، زير نساء. له نساء يعجبن به، متناثرة في كل الولايـات بالجانـب الشـرقي لبحيـرة إيـري في الشـمال الغربـي لبحيـرة شامبلين علىٰ الحدود الكندية (هل لتجنور نساء في كندا أيضا؟ لاشك في ذلك) ومع ذلك يقال إن تجنور حامي النساء، فلقد تـزوج مـن عـدة سنوات ولقد ماتت زوجته الشابة في حادث مأساوي.

ويقال أن تجنور لا يثق في أحد.

ويقـال إن تجنـور قتـل رجـلا، ربمـا دفاعـا عـن الـنفس، بيديـه، بقبضـــته. في مشـــاجرة في حانـــة، في أدينـــورداكس، أو بـــورت أورسـيكاني في شـتاء عـام ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، في حـروب البيـرة سـيئة السمعة.

«لو أنك رجل فما كنت لتتورط مع تجنور، ولو أنك امرأة... »

وابتسمت ريبيكا وهي تفكر. إنه لـم يـؤذني، هنـاك شـعور خـاص بيني وبينه.



«إن شخصـا مـا يريـدك يـا ريبيكـا، إذا كنـت أنـت عاملـة الغـرف غجريـة الشـكل ذات الشـعر الأسـود التـي تعمـل في الطـابق الخامس»

هذه أول مرة تسمع فيها ريبيكا أن نيلز تجنور مهتم بها.



لسوف يصبحان حبيبين، في الوقت المناسب، فتجنور يجب أن ينالها. فيمكن أن يتزوجها إن لم يجد وسيلة أخرىٰ، يناديها بنيتي، ليغيظها. أحيانا يناديها فتاتي الغجرية. لقد أخبرته ريبيكا أنها ليست غجرية أنها ولدت في الولايات المتحدة مثله.

لم تشأ ريبيكا أن تقع في حب نيلز تجنور أو أي رجل آخر. فهي تدرك أن الحب طُعم مسموم! الحب الجنسي، الحب الحسي...

الحب هو المصيدة التي ستدخلك في الجُحر. ولن تستطيعي أن تخرجي من هذا الجحر.

الحب الجنسي، معناه احتياج، احتياج فظيع، لذلك يؤلم بين الفخذين. تعرف ريبيكا معنىٰ ذلك (تخمن) وتعرف أنه أشد عند الرجال، شيء لا يستهان به. إنها تتذكر أخاها هارشيل عندما كان يأتي لها وهو يئن ويضج ويريد أن يحك نفسه في مؤخرتها عندما كانت صغيرة. تظهر حاجة الولد للبلل الساذج في عيونه، ولربما تحسب التأوّه الذي في وجهه تأوّها روحيا (إذا نظرت في الوجه فقط، وفي العيون الزائغة وهي تلمع). هارشيل الذي كانت أمه تجره بعيدا عن أخته الصغيرة وتضرب هذا الطويل النحيل علىٰ رأسه.

تفكر ريبيكا في تجنور باستمرار، لم تر ريبيكا تجنور لعدة أسابيع. لقد وصل ميلبرن وهو يقود سيارة ستودباكر زرقاء باخضرار، صالون، بنوافذ واسعة في الخلف والأمام، لم تر ريبيكا ذلك في أي سيارة:

«هل أعجبتك؟ أترغبين في نزهة بها؟»



وافقت، بالطبع وافقت.

تحب ريبيكا أن تركب مع تجنور السيارة الستودباكر الزرقاء المخضرة التي لا تشبه أي سيارة، ولأنه يحب لو أنها تضم نفسها بشدة له وهو يسوق، لو أنها رمت برأسها علىٰ كتفه. راح يمرر يده علىٰ ركبتها، علىٰ فخذها من بين طبقات الثياب الشتوية. راح يدلك يدها ثم من خلال كُمّها صعدت يده لأعلىٰ ذراعها فشعرت بقشعريرة، وكأنما يده كانت تتحرك من تلقاء نفسها أو بناء علىٰ توافق مع رغبة ريبيكا. بدأت تشعر بالإثارة والتوتر؛ فبالنسبة لريبيكا صعب التمييز بين الإثارة الجنسية وبين التوتر. فهي تريد أن تنفلت بعيدا عن الرجل، وفي نفس الوقت تريده ألا يتوقف.

كان جسدها يحترق، يشتعل في صدرها، وفي شيئها، كأنما أشعة شمس سائلة منتشرة في كل أعماقها، لقد أخبرها تجنور أنه مجنون بها، أنه يود أن يكون معها. يكون معها، إنها تعرف ما يقصده، إنه الجنس، هذه الرغبة، فلا حب محتمل إلا من خلال الرغبة الجنسية. يجب أن تحترس من الرجل، إنها تخشىٰ أن تصبح. حاملا مثل بنات كثيرة تعرفهن في ميلبرن، متسربات من مدارس ثانوية، منهن من هي أصغر منها سنا وأصبحت أما. لقد حذرها تجنور أنه ليس رجلا للزواج.

في حانة بيردستاون، توفرت له غرفة، غرفة خاصة بسرير مزدوج، وحمّام، وهي في الطابق الثاني متاحة لعميل شركة صناعة المشروبات بلاك هاوس متىٰ جاء لعمل. راحت ريبيكا تتساءل وهي قلقة هل من المفترض أنها تنام مع تجنور علىٰ هذا السرير؟



لـم يعـط تجنـور أي علامـة لشـيء، فهـو في الحقيقـة جلـف في تصرفاته. تركها في الغرفة ونـزل علىٰ أنـه سيأخذ تقريبا ساعة ما بين الشرب والحديث عن العمل مع مدير الفنـدق. استخدمت ريبيكا الحمام بحرص، ونشفت يدها ليس بالفوط التي تم غسلها تـوا والتي هـي طبـق الأصـل مـن فـوط فنـدق الجنـرال واشـنطن، ولكـن بـورق التواليت. وجلست علىٰ كرسي وثير بجوار نافذة مفتوحة، لـم تشأ أن تتمدد علىٰ السرير، علىٰ مـلاءات مزركشة خزفية اللون تبعث علىٰ ارتعاشات الشتاء.

«مفاجأتي! ما مفاجأتي»

«تجنور لا تمزح!»

خان بيردستاون أصغر من فندق الجنرال واشنطن، وإن ماثله في العمر. مثل ذلك الفندق، كان الخان محطة لمركبات البريد في الأيام السالفة. أقدم أجزاء الفندق والخان هي صالات البار، فمن المعروف أن الدعارة تقدم كخدمة فيها للرجال.

علـىٰ ريبيكـا أن تفكـر، وهـي ترتعـد في غرفـة مـن غـرف حانـة بيردستاون: من مدة طويلة والفتيات والحريم يصنفن كعاهرات، لكم كـنّ خائفـات ويائسـات في بريـة وادي تشـاتاقوا. لقـد كـنّ بـلا مـأوىٰ ومفلسات وبلا أُسر وبـلا أزواج يقومـون بحمـايتهن. ومـن المؤكـد أن بعضهن متخلفات عقليا، وفي وقـت مـا يصبحن حوامـل، ومريضـات. ومع ذلك فهناك شيء ما كوميدي في قول مثل هـذه الكلمـات. عـاهر، بيـت دعـارة. فـلا يمكـن أن تنطقـي بهـذه الكلمـات السـوقية دون أن تبتسمي ساخرة.



لقد رأت ريبيكا بعين ناقدة أن هذه الغرفة تم ترتيبها علىٰ أكمل وجه. فهذا السرير الذي يرتفع قليلا عن وضع السرير في فندق الجنرال واشنطن، برأسه الأبسط، وأعمدته القديمة في الموديل تمت صناعته بدقة. ولقد تم ترتيب الستائر الثقيلة الرديئة بشكل ما. وفاحت رائحة خفيفة من المنظف. ورائحة أقوىٰ من القِدَم، والجبس المتعطن. السجاجيد تقريبا مهلهلة في أماكنها، والجدران مكسوة بورق حائط لرسومات زهور علىٰ خلفية بيضاء ضاربة للصفرة شاحبة. السقف به بقع مياه وكأن عناكب بأرجلها الطويلة تسللت فوقه. والشباك الطويل الكئيب الذي بجوارها، محاط بستائر ثقيلة، ويطل علىٰ أرض بور ثلجية تتقاطع مع عدد كبير من مسارات الكلاب، والآن تغيب الشمس، فهذه المسارات مظلمة وكأنها علامات غامضة في شفرة.

عاد تجنور ومزاجه عال، وعيونه الذابلة تنظر بحرارة لريبيكا. فهي لم تخلع معطفها ولا حتىٰ فكت أزراره، فضحك، وطلب منها أن تخلعه: «إنك تبدين كمن ينتظر أتوبيس، يا حلوتي. إننا لن نرحل الآن، إننا سنتناول العشاء هنا، مؤكد، فخذي راحتك». عندما قامت ريبيكا تتحسس الأزرار المغطاة بالقماش، راح تجنور يشد في الأزرار فسقط أحدهم وتدحرج علىٰ السجادة بطريقة من الممكن أن تُضحك ريبيكا في غير هذا الوقت.

جذب تجنور معطفها ورماه علىٰ الكرسي فوق معطفه الذي رماه من قبل. ابتسم لها بأسنانه الكبيرة اللامعة، وراح يملس علىٰ كتفيها وشعرها وقبلها في فمها قبلة عميقة، وبدا فمه كأنه يبتلع فمها كما يبلع



ثعبان فريسته العاجزة. لسانه يحمل طعم الويسكي والدخان، ومع ذلك فهو مقبول بشكل غريب.

اندفعت ريبيكا بعيدا عنه وراحت ترتعش بلا إرادة.

«لا أستطيع يا تجنور أن أبقىٰ هنا، هل تتوقع مني أن أمضي الليلة هنا؟ هل هذه هي المفاجأة، لا أستطيع، كما ترىٰ ليس معي حاجياتي، ليس معي غيار من الثياب، يجب أن أذهب للعمل صباحا يا تجنور. يجب أن أكون الساعة السابعة في الفندق، إنهم سيفصلونني إذا... »

تركها تجنور تثرثر بتوتر، وهو يبتسم لها، مذهولا.

«لن يستطيع أي سافل أن يفصلك يا روح قلبي، صدقيني»

ماذا يعني هذا؟ بدأت ريبيكا تشعر بالدوار.

«لا أستطيع أن أقضي الليلة هنا...»

«لم أقل إننا سنقضي الليلة هنا، أنا فقط قلت إن هذه الغرفة لي، وها هي لنا»

وراح يتكلم كأب ينهر طفلا صغيرا عنيدا. شعرت ريبيكا بوخزة، فهي لا تستطيع أن تحتمل التوبيخ.

دخل تجنور الحمام دون أن يقفل الباب، فسدت ريبيكا أذنيها بيديها لكي لا تسمعه وهو يطرطش البول باستمتاع وتمنت ألا يطرطش علىٰ قاعدة التواليت أو علىٰ الحائط، لأنها ستضطر أن تنظف بعده لو فعل ذلك، فهي لا تريد أن تترك تلك الآثار لتنظفها عاملة الغرف.



في نفس الوقت الذي عاد فيه تجنور للغرفة وهو يغلق سوستة البنطلون، ويصفر، كان هناك نقر خفيف علىٰ الباب، لقد طلب زجاجة ويسكي وكاسين، وطبق مكسرات. صب تجنور الويسكي بشكل رسمي له ولريبيكا وهو يصر:

«ليس من المعقول أن أشرب وحدي يا ريبيكا. يا فتاتي»

نقر كاسه بكاس ريبيكا، وشربا معا، مر الويسكي في جوف ريبيكا وكأنه نار.

«أتذكر أول مرة رأيتك فيها»

لم يُشر من قبل عن أول مرة تصادفا فيها، وحتىٰ الآن غير واضح قصد تجنور، وتعلم ريبيكا أنها يجب ألا تسأله. فهو لا يحب أحدا أن يقاطعه، ورغم أنه يختار كلماته بعناية لم يزل جلفا في كلامه.

«إني أراك جميلة، لقد رأيت ذلك الآن. لقد رأيتك في زي عاملة الغرف، والحذاء المفلطح الرديء. ولكن تحتاجين أن تبتسمي يا حلوتي قليلا. إنك تتحركين وأنت شاردة الفكر، وكأن أفكارك تجعلك غير سعيدة»

مال تجنور للأمام وقبلها في فمها قبلة خفيفة. يبتسم لها، وعيونه تلمع كلمعان شعره الفضي، وهو يلهث بأنفاسه. تحاول ريبيكا أن تبتسم، ابتسمت ريبيكا.

«هكذا أفضل يا حلوتي، أفضل بكثير»



جلست ريبيكا على الكرسي ذي السنادة الصلبة، الذي جره تجنور بجوار السرير حيث يجلس تجنور على حافة السرير، وهو حران قليلا، تفوح منه رائحة العرق، عرق الرجال، رغبة الرجال، دخان السجائر ورائحة الويسكي، التي تخيم على ريبيكا. تفكر أنها انجذبت لتجنور بسبب جسمه، إنه رجل يجعل فتاة ليست صغيرة مثل ريبيكا تشعر بأنها ثمينة كالدمية.

أخرج من جيب بنطلونه حزمة من أوراق الدولارات، وألقى بها على السرير بجواره، وهو يراقب ريبيكا عن كثب. وكأنها حيلة كوتشينة: «هذه لك، يا فتاتي الغجرية»

راحت تحملق ريبيكا في أوراق البنكنوت وهي منبهرة: «لي! ولكن لماذا؟»

الأوراق مجموعة من فئة العشرات، وواحدة من العشرينات، وحزمة من الخمسات والدولارات، ثم ورقة أخرى من العشرينات. على العموم كانت كلها حوالي عشرين ورقة.

راح تجنور يضحك من تعبيرات وجه ريبيكا.

«لقد أخبرتك أن هناك مفاجأة في بيردستاون، ألم أقل ذلك؟»

«ولكن لماذا؟»

وحاولت ريبيكا أن ترسم ابتسامة مرة أخرى. وراحت تتذكر كم هي هامة بالنسبة لها، في هذه اللحظة.

كما حدث في اللحظة الحرجة عندما راح أبوها جاكوب شوارت يصوب البندقية نحوها.



فقال تجنور موضحا بعض الشيء:

- هناك شخص ما يهتم بك، لربما يشعر بالذنب تجاهك
- لا أفهم يا تجنور.
- لقد كنت يا عزيزتي في كويبيك الأسبوع الماضي، في مونتريال لعمل ما، فرأيت أخاك هناك.
- أخي؟ أي أخ؟.

فتوقف تجنور علىٰ أنه لا يعرف أن لريبيكا أخين وأردف: «هارشيل»

«هارشيل!»

اندهشت ريبيكا، فلم تسمع باسم أخيها منذ مدة طويلة، ولقد ظنت أنه مات.

«لقد أرسل هارشيل لك هذه النقود، هي فعلا ليست كثيرة، ولكنه أرسلها لك لكي تأخذيها لأنه لا يستطيع المجيء لهنا، وإلا تم القبض عليه، ولذلك أحضرتها أنا لك»

لم يخطر في بال ريبيكا أنها تشك في ذلك، فتجنور كلامه مقنع. من السهل دائما أن تصدقيه علىٰ أن تشكّي فيه.

استأنف تجنور كلامه بحيوية متجددة: «ولكن هذه ليست مفاجأتي لك يا ريبيكا هذه لهارشيل أما الآن فلمفاجأتي»



وقف تجنور وراح يدس يده في جيب جاكته الملقىٰ علىٰ الكرسي وأخرج منه لفافة في روق لامع، ليست صندوقا، ولكن مجرد لفافة تنطوي علىٰ شيء ما.

أخذت ريبيكا تفكر في الحال: «إنه خاتم، إنه سيهدي لي خاتما»

من السخف أن تفكر ريبيكا بهذا الشكل. وراحت تركز نظراتها علىٰ العلبة اللامعة بتلهف والتي راح يقدمها تجنور بتباه وكأنه يفنط. أوراق كوتشينة ويوزعها.

«أوه يا تجنور، ما هذا؟»

ارتعشت يدها، فلم تكد تفتح اللفافة. إذ بداخلها خاتم، حجر حليبي اللون غير شفاف، بيضاوي الشكل، بحجم حبة القرع العسلي. الإطار لونه فضي، معتم بعض الشيء.

لا يزال الخاتم جميلا، فلم يعطها أحد خاتما من قبل.

«أوه، تجنور»

شعرت ريبيكا بالضعف، فهذا ما كانت تتمناه، ولكنها أصبحت الآن تخاف منه. تخاف وهي تتحسس الخاتم أن يسقط من يدها.

«هيا يا فتاتي، البسيه، جربيه»

لما رأىٰ تجنور الدموع في عيون ريبيكا، تقدم وأخذ الخاتم بأصابعه الخشنة وحاول أن يدخله في أصبعها الأوسط من يدها اليمنىٰ. الخاتم ملائم لأصبعها.

فقالت ريبيكا بصوت خافت: «جميل جدا، أشكرك يا تجنور»



غلب على ريبيكا الانفعال. ومع هذا فهناك جزء من عقلها لم يزل متيقظا. هذا هو الخاتم الذي سرقه من الحجرة، من الرجل الذي أوشك أن يقتله، إنه ينتظر أن تتعرفي عليه، لكي تتهميه.

حولت ريبيكا الخاتم لأصبعها البنصر وإن كان أوسع قليلا. باست تجنور، وسمعت نفسها وهي تضحك بانبساط:

«هل هذا يعني أننا مخطوبان يا تجنور؟»

فشخر متهكما: «طبعا، ماذا يعني أن أعطيك خاتما جميلا كهذا، إنه يعني كذلك» وكان يشعر بالغبطة وهو يقول ذلك.

ارتمت بين ذراعي تجنور، وراحت تقبله دون حساب، كفتاة رمت نفسها من ارتفاع كبير لتغطس في المياه التي تظن أنها تستقبلها بسلام لا بعنف.

«تجنور، أنا أحبك، لا تتركني يا تجنور».



ورحل بعد ذلك مرة أخرىٰ، فهو في سفر مرة ثانية. بعد يوم وليلة من عودتهما من بيرستاون رحل ولم يقل إلا «مع السلامة».

«أحباء الآن، لقد مارسنا الجنس معا، يحب كل منا الآخر»

كلمات قذرة خطها الأولاد علىٰ حيطان وأرصفة ميلبرن. في صباح الهالوين، يا سفلة، مكتوبة علىٰ جدران المدارس والمحلات.

اعتقدت ريبيكا أن الكلمات تكذب، لديها الثقة أن تجنور سيعود لها، لأنه وعدها. فهناك الخاتم، والممارسة التي تمت بينهما، الطريقة التي أحبها بها تجنور بجسده، لم تكن مزيفة.

إن الأحداث الجنسية لا توجد منعزلة، أو لتُمارس مرة واحدة، وتُنسىٰ. إنها تعيش وحيدة في الذاكرة، يتم استرجاعها، تخيلها، معايشتها مرة أخرىٰ، لتعيشها ثانية بحضور غير متوقف.

لم يكترث تجنور وهو يمارس معها الجنس بصرخاتها المكتومة، فكان يتحرك فوقها كصخر ينهار من أعلىٰ وزنه! هذا الثقل وهذه الحرارة، لم تمر ريبيكا بتجربة مثل هذي. فلكم هي مذهولة، حتىٰ إن عيونها راحت تزوغ وهي مفتوحة. فالرجل يدفع بنفسه داخلها، وكأنما ما يفعله هو حياتها، يا للهول، إنه لا يستطيع أن يتحكم في ما يجري بداخله كأنه لهيب يسري. إنه يكاد يعرفها، فما كان ليبالي بما تفعله من محاولات لتدغدغ جسمه، أو تقبله، أو تنطق باسمه.

حاولت بعد ذلك أن تداري النزيف، ولكنه لمح ذلك فراح يصفر: «يا للعنة!»



إنهما عاريان، على سريرهما في حانة بيردستاون، حيث قضيا تلك الليلة معا.

لقد صارا أليفين، فوهلة العري تحولت لألفة، ألفة وجسدان يلتصقان بالعرق، لو أنهما تبادلا القبلات لنبعت القبلات من ود وألفة، لقد صارا عشيقين، وهذا لن يتغير.

تبتسم ريبيكا، وهي شغوفة لتعرف. إن ما فعله بها تجنور، وبجسمها، يشبه طلقة رصاص لا يمكن ردها.

«ستكونين بخير، لن تنزفي حتى الموت»

نظرت في المرآة التي أعلى الحوض وهي مندهشة من أن ترى وجهها المحتقن، وشعرها المنكوش، لم يعد على شفتيها روج، تورمت شفتاها، عيونها فاترة، وبها خيوط حمراء خفيفة. أنفها دهني لامع. لكم صارت دميمة! كيف يحبها أي رجل؟

وراحت تبتسم، إنها الآن تخص نيلز تجنور، والدليل هذا الدم، سوف يتوقف النزيف في الصباح، فهو ليس نزيف الدورة الشهرية الذي يستمر أياما. الدم ليس غامقا كالدم الآخر، وليس متجلطا. ورائحته مختلفة، ستغسله، وتغسله تماما، وتشطف نفسها تماما، فلن يفكر فيه الرجل مرة ثانية.

لقد تمزق غشاء البكارة، ريبيكا تعرف هذه الكلمة من المعجم الذي معها، وكيف تتشابه الكلمة مع كلمات أخرى في الرسم والنطق، مثل باكر، وبكار.

وراحت فجأة تتذكر وهي في كنيسة بريسبيتارين، بجوار روز لوتر التي كانت طيبة معها جدا، لم تكن ريبيكا في الحقيقة تستمع للوعظ.



كـل تفكيرهـا يـذهب للرجـال، والـذكورة، والجـنس. ولكـن بقلـق، وازدراء، فلم تعرف تجنور بعد.

الساعة العاشرة؛ توقف تجنور بسيارته الستيدباكر أمام المنزل في شارع فيري، ليس تجنور مـن الـذين يصعدون ويطرقـون بـاب الشـقة، ولكـن يقـف في المـدخل وينـادي. ريبيكـا. مـن بيـر السـلم وهـو نافـذ الصبر.

تحب ريبيكا أن يمزح معها تجنور، بطريقته العادية التي تجعلهـا تضحك، وتتهيج. ولكن هذه الطريقة كانت كأنه حشر يـده في داخلهـا، وخلاها تتلوىٰ وتتأوه علىٰ سبيل المزاح. راحت ريبيكا تخبئ وجهها، فهذا التفكير قبيح. من أين جاء هذا التفكير القبيح؟

«ماذا حدث يا صغيرتي، أتبكين؟»

سحب تجنور يديها من علىٰ وجهها، لـم تكـن تبكـي، ولكـن لـم تشأ أن تنظر في عينيه.

«تمنيت أن تحبيني أكثر هذه الليلة، أعتقد أن هناك شيئا مـا خطـأ حدث بيننا»

راح تجنور يتكلم بمزاح حـزين، فلقـد أُحـبط، ضـعفت معنوياتـه بإرادتهـا التـي تتنـاقض مـع إرادتـه، لـم يكـن معتـادا علـىٰ النسـاء الـلاتي يعارضنه لمدة طويلة، فقالت له ريبيكا:

- أنا أعزك يا تجنور وأنت تعلم هذا.
- إلا أنك لن ترغبي في الذهاب معي للفندق.
- لأني لست عاهرتك يا تجنور، لست عاهرة.



فجفل تجنور وكأنها صفعته، فهذا الحديث من امرأة، كان صدمة شديدة بالنسبة له، فبدأ يتلعثم.

«لماذا تقولين هذا، لم يقل أحد هذا، يا ربي، أي حديث تتحدثينه يا ريبيكا؟ لست أنا بالرجل الذي يذهب لعواهر، لست كذلك»



في المطبخ علىٰ الطاولة بجوار التليفون المقرفص الأسود الدائري تركت ريبيكا مذكرة:

«عزيزتي كاتي، وعزيزتي لافيرن، مع السلامة، سأتزوج ريبيكا»

إنه زواج مدني، كما أخبرها بذلك، سريع لا يحتاج أكثر من خمس دقائق، إنه مر كلمح البصر، كمؤشر في الراديو يحول بين المحطات.

«هل يا ريبيكا... »

راحت ريبيكا تكح، وتشهق، يا للكسوف!

«تقبلين هذا الرجل زوجا بالقانون... »

راحت ريبيكا في نوبة ضحك، وفزع

- قولي نعم يا عزيزتي...
- نعم أقبل
- وأنت يا تجنور؟
- نعم أقبل

وراح يرنم بصوت صارم صوريا: «بالسلطة التي خولتها لي ولاية نيويورك ومقاطعة نياجرا أعلن في هذا اليوم ١٩ أنكما... »

في مكان ما في الخارج، مرت علىٰ بعد سارينة سيارة طوارئ، فابتسمت ريبيكا، الخطر سافر بعيد

«يا عريس عليك أن تُقبل عروسك، بحرص!»



ولكن تجنور اكتفي بأنه طوق ريبيكا بذراعيه، كما لـو أنـه أراد أن يحوطها بجسمه. أحست بقلبه الذي في حجم قبضة اليد يخفق بجـوار وجهها الدافئ المكدوم. تمنت لو أنها طوقته بـذراعيها، ولكنـه أمسـك بها بإحكام. ذراعه قوية العضلات، ومعطفه الرياضي يحـك في جلـدها بخشـونته. حامـت أفكارهـا كالبـالون المتطـاير. أنـا الآن متزوجـة، أنـا زوجة!



إنها الآن في انتظار الحمل. فهي زوجة رجل، وعما قريب تصبح أما لطفل. إنه في سفر دائم، فهو يرىٰ أنها هي الحياة الوحيدة.

في تلك السنين لم يعيشا في مكان محدد. كما اعتقدت ريبيكا فإنها كل شهر تقترب من الحمل، تمنت ريبيكا أن يكون أول مولود ولدا، وتسميه نيلز، أما إذا كانت بنتا فهي لا تدري.

تجنور كثير التنقل، فالعمل في مصنع البيرة يمثل تحديا شرسا. لأن تجنور وكيل للمصنع فله راتب ثابت، وراتبه الحقيقي كان يأتي من العمولات، يبعثر لها النقود علىٰ السرير في غرفة الفندق، فكما فعل في بيردستاون، فعل في بينغامتون، وبحيرة جورج، وسكوهاري، ينزع ورق الدولارات من محفظته؛ عشرين دولار، أو عشرة، وأحيانا خمسين، ويطيّر الورق في الهواء لكي تستقر علىٰ السرير كالفراشات الجريحة.

«إنها لك، يا غجرية، إنك زوجتي، ولست عاهرتي»

استيقظت ذات صباح كان صدرها ممتلئا، وحساسا بشكل غير طبيعي، وشعرت أن بطنها منتفخة. وشعرت في جسمها بقشعريرة كتيار كهربي بسيط يسري في جسدها. ولأنها شعرت فجأة بالخوف أيقظت تجنور الذي نامت علىٰ ذراعيه لتبث له توجساتها. شعرت كأن شخصا ما يدفعها نحو درابزين، تقاوم بصعوبة، كان رد فعل تجنور مفاجئا لها، توقعت أنه سيزمجر، ولكن لم يفعل، لقد استيقظ تماما، وأخذ يفكر، إنها تحس أن عقله تتقلب فيه الأفكار، لم يقل شيئا، ولكنه قبلها قبلة قوية، وراح يدلك في صدرها، ويمص في الحلمات مرهفة الحس. فجفلت ريبيكا، قال لها:



«كيف تشعرين؟ هل تريدين المزيد؟»

ضمت ريبيكا إليها الرجل بشدة، ضمة حياة، وبدأت تكتب وهي مستلقية علىٰ السرير، علىٰ ورقة من أوراق الفندق، علىٰ طاولة السرير الجانبية كاس ويسكي فارغة من كاسات تجنور من الليلة الماضية:

«عزيزتي كاتي، وعزيزتي لافيرن، لي لكما أخبار سارة، أنا حامل، لقد أخذني تجنور لطبيب في بورت اوريسكاني، وأخبرني بأن الولادة في شهر ديسمبر»



إنها زوجة نيلز تجنور، وتحمل طفل تجنور، لقد كانت أياما، وأسابيعا وشهورا في منتهىٰ السعادة. ومع ذلك مثلها مثل أي زوجة شابة ارتكبت ريبيكا خطأ.

كانت تعرف أن تجنور لا يحب سلوكها الودود أكثر من اللازم مع الرجال، وقد قال لها ذلك صراحة، وحذرها أكثر من مرة. والآن هي حامل، بشرتها تتوهج بشحوب غامق كما لو أنها مضاءة من الداخل بشمعة. واحمرار في وجنتيها، وغالبا تلهث، وعيونها تدمع، أردافها ونهودها كبيرة بشكل حريمي. يغيظها تجنور، إنها تأكل أكثر منه. تقريبا كل ساعة، فالجنين بداخلها ينمو.

«هناك رجال مهووسون بالنساء الحبلىٰ، المرأة المنتفخة كالحوت الضخم، ما زال هناك رجال... »

ثم تلاشىٰ صوت تجنور وهو يعبر عن الدهشة والتقزز: «ترين أن تجنور ليس من هذه النوعية الشاذة»

تسكن أسرة ميلتزر علىٰ بعد ربع ميل من الطريق، وهي أقرب جار لريبيكا في طريق المزرعة الفقيرة. يمتلك السيد ميلتزر. محطة بنزين ميلتزر. حيث هناك لافتة علىٰ الواجهة «إسو» بالخط الأحمر. هناك علاقة ما بين ميلتزر وتجنور لا تعرفها ريبيكا. فالرجلان يعرف كل منهما الآخر، ولكنهما ليسا أصدقاء.

حذرها تجنور: «انتبهي، وإياك أن ترغي مع هذه المرأة، فمثل هذه المرأة القبيحة العجوز أبناؤها كبار، سوف تطلب منك أشياء كثيرة ليست من شأنها، فاهمة؟ أعتقد أنك فاهمة»



وأخذ تجنور يملس علىٰ رأس ريبيكا وشعرها، منذ الإجهاض وهو لطيف معها، وصبور. ولكن ريبيكا تعلمت ألا تتكلم باستهتار مع أي واحد، سواء كان تجنور موجودا أو غير موجود.

إنه بيت ريفي آيل للسقوط، في زقاق يتسم بالقذارة، ليس في مكان من المتوقع أن يسكن فيه نيلز تجنور! توقعت ريبيكا مكانا يؤجره تجنور في إحدىٰ مدنه المفضلة، علىٰ الأقل في تشاتاقوا بدلا من الريف. أليس كذلك؟ مكان خاص لا يظهر أي منزل آخر من نوافذ البيت. ولا حتىٰ الطريق الضيق الممهد بالحصىٰ. لا شيء إلا الدخان المتصاعد ببطء من جهة الشرق. لا يمكن أن تخمني في أي اتجاه تقع شلالات تشاتاقوا. كل ما تبقىٰ من المزرعة الأصلية التي تبلغ مساحتها ٩٠ فدانا بعض المساحات المكسوة بالعشب، وبعض المراعي. وبعض المباني والزرائب، وبئر من الحجر بعمق ثلاثين قدما تعطي ماء باردا مؤلما، وطعما معدنيا.

«إنه جميل يا تجنور، إنه خاص بنا»

في السرير، في بيت ويرتنباتشر القديم في طريق المزرعة الفقيرة. وضع تجنور وجهه علىٰ بطنها المشدودة، الساخنة. وراح يدعك في فخذيها، ومؤخرتها. راح يفرك صدرها. فهو غيور من ذلك الطفل الذي سيرضع ذلك الصدر.



استلقت ريبيكا علىٰ ظهرها في المقعد الخلفي لسيارة ميلتزر الشيفروليه وهي تئن من الألم، نوبات ألم سريعة، إنها تقلصات، من المفروض أن تعد بين كل منها، ولكن تفاجأ بالألم! لم تعد واثقة من نفسها الآن.

مرت إحدىٰ عشرة ساعة من الهذيان، يمكن أن تصفها كشريط سينمائي شاهدته منذ وقت طويل، في الطفولة، ولم تفهمه. وكان المولود ولدا، نيلي تجنور جي آر، لم يحمل اسما بعد، فهو لم يتنفس بعد. شيء فظيع يدفع برأسه بقوة وباستماتة ككرة للبولينج انحشرت بداخلها. وهذه الكرة عبارة عن كتلة نار استقرت بداخلها دودة في مجرىٰ مائي...

«شيء ما سيحدث لك يا بنيتي! ربما لا تريدينه»

والآن متأخرا أدركت ما حذرته منه أمها، هذا الهذيان الذي سمعت من خلاله صوتا كمواء القطط، بشكل غريب في تلك الغرفة المضيئة بشكل ساطع، كان هناك شخص ما يقول:

«مدام تجنور؟»

فرمشت بعينيها لترىٰ بوضوح، فرأت يدا تمد لها طفلا يرفّس بيديه وقدميه، في بطنها المفلطحة والمرتخية أولا ثم بين صدرها

«إنه طفلك يا مدام تجنور، طفلك يا مدام تجنور»

يأتيها الصوت بعيدا، فهي تكاد لا تسمع. فصوت الطفل كاد يصم الآذان من عويله الذي يشبه مواء القطط. كانت منتشية وسعيدة لأنها جاءت من المستشفىٰ للمنزل، شعرت بنشوة مثل تلك التي



شعرت بها حينما شربت بيرة مختلطة بالويسكي، لكم تحب أن تعتني بهذا القرد الصغير الدافئ الذي يجوع كل عدة ساعات قليلة جدا فيرضع ويمتص ثديا ثم ينتقل للآخر، وأرادت هي، الأم الجديدة، أن تتكلم وتتكلم. أوه، لديها الكثير لتقوله، إنها تحب ذلك القرد الصغير، ياه، كل شيء حولها جامح وغريب.

في أحد مساءات ديسمبر الأولىٰ، بعد اثنىٰ عشر يوما من ميلاد الطفل، وقف تجنور عند مدخل غرفة النوم محدقا. لقد سمعت ريبيكا صوت صفير هامس.

«يا إلهي، تجنور!»

وجهه في الظل، فلم تتبين تعبيراته، واقف ساكنا، قلقا. للحظة فكرت ريبيكا أنه سيرجع.

«تجنور هنا»

ورفعت الطفل لتجنور وهي تبتسم. إنه أفضل طفل يراه تجنور. فتح عينيه من غفوته، وراح يرمش في وجه ذلك الغريب الذي يقف عند مدخل الغرفة. بدأ في ضوضائه المضحكة، وفقاعات اللعاب علىٰ شفتيه. راح يضرب بيديه وقدميه. تقدم تجنور نحو السرير ببطء لكي يأخذ الطفل من ريبيكا. وبدهشة الأطفال راح ينظر في وجه تجنور وهو فاغر فاه، ويبدو أنه بدا له كقمر ضخم ساطع. أمسك تجنور بالطفل بحذر، رأت ريبيكا أنه بدأ يعرف كيف يحتفظ برأسه علىٰ صدره. كان قد رمىٰ السيجار قبل دخوله المنزل، ومع ذلك فإن رائحة



الدخان تنبعث منه، مما جعلت الطفل يتضايق، وبأصابعه الملبدة بالنيكوتين راح يداعب شعر الطفل: «إنه ابني، أليس كذلك؟!»



كان نيلي نائما في الغرفة المتصلة بغرفة نوم ريبيكا، أو تمنت على الأقل أن يكون نائما، ففي أثناء نومه تظل تستمع للراديو حتى لا تشعر بالوحدة، وتأمل أن تسمع صوت أبيه بين أصوات الغرباء. أخذت ريبيكا تفكر كيف ولدت نيلي وهي لا تعلم كيف سيصبح، لقد فتحت جسمها للألم متمنية ألا تتذكره في حالات الوعي، وكما توقعت إدنا. لحظة أن يأتي لن تهتمي بما حدث.

وبالفعل هذا ما تم، فهو الحقيقة الوحيدة في حياتها، فتحت جسمها أيضا لنيلز تجنور، دون أن يكون لديها أي فكرة عمن يكون تجنور. باستثناء نيلي، كل شيء كان خطأ، ومع ذلك لم يكن نيلي غلطة.

ما عرفته عن تجنور الآن، جعلها تشعر بأنها لو عرفته من قبل ما كانت تقترب منه، ومع ذلك فهي لا تستطيع أن تتركه، لقد كلبش قلبها في أمل أن تراه مرة ثانية.

لم تمر ثلاث سنوات بالضبط منذ أن جاء تجنور لهذا المنزل، لغرفة النوم، وأخذ ابنه بين يديه لأول مرة، إنها عمر بالنسبة لريبيكا، ومع ذلك لربما كانت هي البداية.

أمسك بالطفل الذي يتلوى في راحة يده، وراح يحدق في هذا الوجه الصغير المتورد والنحيل. مرت لحظات طويلة حتى ابتسم تجنور، ثم ضحك:

«إنه يشبهني في الطباع، إيه؟ هذا السكير الصغير»

أخبرها تجنور بأنه آسف لأنه تركها وحدها في مثل هذا الوقت، ولكنه اتصل بها أكثر من مرة ولكن التليفون دائما مشغول، وأنه قلق



عليها، وإن كان موقنا أنه لن يحدث لها سوء لأن الحظ دائما يحالفهم.

حظ! وابتسمت ريبيكا.

البهجة بقدوم المولود تلاشت بالنسبة لتجنور بعد شهور قليلة. حتىٰ سرور نيلي بكلمة بابا لم يعد كافيا. فنيلي طفل شكس، يرفض الطعام، نادرا ما ينام أكثر من ثلاث ساعات في المرة. نشط، ومتيقظ، وطفولي، سريع القلق والفزع. لقد ورث طبع أبيه في سرعة التأثر، ولكن ليس عنده ثقة أبيه بنفسه. صرخاته حادة ومدوية. لن تصدقي أن هذا الطفل له رئة تتسع لكل هذا الصياح. صارت ريبيكا محرومة من النوم وصارت تتخبط بين الدوخان والهلوسة. ما كاد تجنور يجيء حتىٰ يهدد بالرحيل

«أرضعيه، خليه ينام، أنت أمه، من فضلك، من أجل خاطر ربنا».



التوقيت هو الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٥٩. بعد اثنىٰ عشر يوما قد مرت علىٰ الرجل ذي القبعة. لم يعد هناك إثارة في عبارة هازل جونز، هازل جونز، هل أنت هازل جونز. في الضجيج ورائحة المطاط المحترق في خط التجميع في مصنع الأنابيب في نياجرا، وبدأت ريبيكا تنسىٰ. فهي عملية في تفكيرها، أم لطفل صغير، فعليها أن تنسىٰ من أجله.

عاد تجنور بعد ذلك.

حضرت لمنزل ميلتزر لكي تأخذ نيلي فأخبرتها مدام ميلتزر بأن تجنور قد جاء توا وأخذ الطفل، فغمغمت ريبيكا: «هنا؟ تجنور هنا، عاد؟»

ألقىٰ تجنور بشنطته الصغيرة، وبالجاكت علىٰ الكرسي في المطبخ، وساعدته ريبيكا في نقل أشيائه لغرفة النوم في آخر البيت. هذه الغرفة خاصة بالنسبة لريبيكا في البيت، دائما معدة في انتظار عودة زوجها. السرير مرتب، ومغطىٰ باللحاف، وكل ملابسها معلقة في الدولاب، وكل الأسطح منظفة من التراب، وهناك فازة زهور علىٰ منضدة السرير، أخذ تجنور يحدق في الغرفة وكأنه يراها لأول مرة.

غمغم تجنور بصوت: «مممممم»

أخرج تجنور نيلي خارج غرفة النوم ليئن علىٰ الباب المغلق. فجأة شعر بالإثارة والهيجان. حمل ريبيكا للسرير، كانت تُقبل فيه وهو ينزع من عليها ملابسها، ويخلع ملابسه. في دقائق كان قد أفرغ



طاقته المكبوتة في جسدها المتلهف. كانت ريبيكا مكلبشة في ظهره المتغضن بالعضلات، وتعض علىٰ شفتها السفلي لتمنع صراخها، صوتها منخفض، ويئن بترجي. أحبك يا تجنور... أرجوك لا تتركنا مرة أخرىٰ، أرجوك لا تتركنا... »

تنهد تجنور تنهد السرور، ووجهه بقسماته المنكسرة متورد من المتعة. انقلب علىٰ ظهره، وهو يمسح جبينه بذراعه مفتولة العضلات، فجأة شعر بالإرهاق، أحست ريبيكا بهمود جسده. نيلي يقف علىٰ الباب المغلق وهو يخربش فيه: «بابا، ماما» ويئن كالقط الجائع. فتمتم تجنور بعصبية: «أسكتيه، أرجوك، أريد أن أنام»

لقد أخبرها أنه اشترىٰ عقارا علىٰ جانب بحيرة شاهين، ويتفاوض علىٰ مطعم وحانة في شلالات تشاتاقوا، وعقارات أخرىٰ، تأخرت ريبيكا عن العمل في الصباح ساعة وعشرين دقيقة. سيارته مركونة في الممر، ولكن ليس معها المفاتيح ولا تجرؤ أن تسأله، فالرجل غريق في النوم.



تقف السيارة البونتياك في ممرها ولكنها لم تجرؤ يوما أن تطلب منه أن تقودها ولو للسوق في تشاتاقوا، أو حتىٰ للعمل. في بعض الصباحات إذا ما استيقظ مبكرا، أو آتيا من سهرة، يوصلها لأنابيب نياجرا، وفي بعض الأيام بعد الظهر إذا كان في المنطقة يمر عليها ويأخذها من الوردية. ولكن ريبيكا لم تعتمد عليه. ففي معظم الأوقات تمشي الميل ونصف علىٰ الممر كما اعتادت علىٰ ذلك.

لم يتضح لها ما ستفعله مع نيلي. لقد رفض تجنور أن تعتني إدنا ميلتزر به، هذه المرأة البشعة تريد أن تحشر أنفها في شئون تجنور. ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يبقىٰ في المنزل ليرعىٰ طفلا ابن ثلاث سنوات. لو أن ريبيكا تركت نيلي مع تجنور فلا تستبعد أن تعود فلا تجد البونتياك وتجد نيلي يلعب بثيابه القذرة في الخارج أو حتىٰ شبه عار. وربما تجد نيلي حافيا بالبيجامة يحاول جر عربته الحمراء اللامعة علىٰ الممر المليء بالمطبات والحفر، أو يلعب عند البئر التي عمقها ثلاثون قدما والتي غطاؤها الخشبي متعفن، أو يلعب في مخزن القش بين روث الطيور القذر. في ذات مرة ذهب لمحلات إيكا للأطعمة.

قالت إدنا ميلتزر: «لا يهم، فنيلي مثل أحفادي، إذا أراد تجنور أن يأتي ويأخذه في أي وقت لا مانع»

نيلي مريض، برد شديد، والآن انفلونزا، أخذت حرارته، مرتفعة، راحت يدها ترتعش وهي تحدق في الترمومتر تحت الضوء.

- تجنور! نيلي مريض ولازم نأخذه لطبيب.
- وأين الطبيب؟



- سؤال ليس له معنىٰ.

تجنور مرتبك ومهزوز، ومع ذلك حمل نيلي ملفوفا في بطانية، أخذه للسيارة، وذهب به وبريبيكا لشلالات تشاتاقوا وانتظر في السيارة في جراج بجوار عيادة الطبيب، وراح يدخن. قد أعطىٰ لريبيكا ورقة بخمسين دولار للطبيب، ولكن لم يدخل العيادة. فكرت ريبيكا أنه خائف من المرض، من أي ضعف.

غضبت ريبيكا منه، كيف يرمي لها الخمسين دولار ولا يدخل معها العيادة، الأم مع طفلها المريض. لم تعطه باقيا من الخمسين دولار، إنها ستحتفظ بالباقي في دولابها. فتجنور بعيد عن البيت في معظم الأوقات. ولكن ليس أكثر من يومين أو ثلاثة متواصلين. ريبيكا علىٰ شبه يقين أن تجنور لم يعد يعمل في مصنع البيرة. مع ذلك لم تستطع أن تسأله فقد كان غضبانا معها. لم تستطع أن تسأله. ماذا حدث معك؟ لماذا لا تتكلم معي؟

لما عادت بعد ساعة للسيارة، رأت تجنور واقفا متكئا علىٰ رفرف السيارة الأمامي وهو يدخن. في اللحظة التي قبل أن يلمحها فكرت ريبيكا في نفسها. هذا الرجل! يبدو أنه ليس هو الرجل الذي أعرفه.

قالت له بسرعة:

- نيلي ليس عنده إلا نزلة برد، الدكتور أخبرني ألا نقلق.
- هل أعطاك روشتة؟
- قال أسبرين الأطفال ينفع، وأنا عندي في البيت منه.



- أليس هناك شيء أقوىٰ؟
- إنها مجرد انفلونزا يا تجنور، والمفترض أن الأسبرين قوي بما فيه الكفاية.
- المفروض، يا حلوتي، إن لم يكن ذلك الطبيب يريد أن تنكسر دماغه.

تكلم تجنور بتحد، وتبجح. بينما ريبيكا انحنت لكي تقبل نيلي علىٰ جبينه الدافئ لتواسيه.

عادوا بالسيارة للفوركورنرز. ريبيكا تحمل نيلي علىٰ حجرها وهي جالسة علىٰ الكرسي بجوار تجنور الذي ظل ساكتا ويفكر كأنه أُهين بشكل غامض.

«أعتقد أنك من المفروض أن تكون مثلي هادئ البال يا تجنور، الطبيب لطيف».

تميل ريبيكا علىٰ تجنور خفيفا، فملامسة جلد دافئ ونوعا ما محزون لرجل يبعث فيها المتعة. رعشة بسيطة من المتعة التي لم تحسها في بعض الأوقات.

«يقول الدكتور إن نيلي بصحة جيدة، واستجابته قوية وبوجه عام نموه يسير بشكل طبيعي، لقد استمع لدقات قلبه بالسماعة» وتوقف، فهي تعرف أن تجنور يستمع لها، وأن ذلك خبر حسن، استمر تجنور في قيادته وصمته لمدة دقائق أخرىٰ، ولكن بدأ يلين، ويرق، فراح ينظر إلىٰ ريبيكا، لفتاته، البنت الغجرية. وراح أخيرا يعتصر فخذ ريبيكا، بقوة حتىٰ آلمها. ارتفع بيده لرأس نيلي فراح ينكش شعره اللدن:



«أحبكما أنتما الاثنين»

«أحبكما» إنها أول مرة ينطق بهذا لهما، لذلك أخذت تفكر... لن أتركه أبدا، إنه يحبنا، يحب ابنه، لن يؤذينا أبدا، هو فقط أحيانا...

حدث ذلك في نهاية شهر أكتوبر، والسماء زرقاء كنصل السكين الصلب. الهواء في منتصف النهار ساكن، وبارد وخانق. لم ترغب ريبيكا في أن تفكر كيف سنتحمل الشتاء مع في هذا البيت القديم.

لقد افتقدت تجنور أثناء غيابه، والآن وهو يعيش معهما تفتقد وحدتها السالفة.

خائفة منه. خائفة من انفعالاته المتقلبة، وعيونه التي تشبه عيون رجل أعمىٰ استرد بصره فجأة، ولا يحب ما يرىٰ.

أصبحت عادة تجنور الجديدة هي أن يضع كلتا يديه في شعره الأشعث دليلا علىٰ نفاذ الصبر. لقد بدا شعره ينمو في الخلف ببطء، فلم يعد كثيفا. لقد أصبح شعر رجل عادي، خفيف، غير منسق، لونه بني باهت، وأسفله فروة الرأس عظمية الملمس.

كان تجنور خجلا لريبيكا ومنها ومن نفسه لأنه زوجها. لم يستطع أن يتكلم للحظات طويلة، ثم قال قذفا بالكلمات:

«لقد قلت لك يا ريبيكا، لست بحاجة للعمل، يوم أن ذهبت بك لشلالات نياجرا، ألم أخبرك بذلك؟» تقريبا يستعطفها، لقد شعرت بطعنة حب تجاهه، تعرف أنها يجب أن تواسيه، ومع ذلك قالت:

«لقد قلت لا أعمل في الفندق، هذا كل ما قلته لي»



«اللعنة، لقد قصدت أي عمل، وأنت تعرفين ذلك»

بدأ يغضب، تعرف ذلك! ما كان عليها أن تثيره، ورغم ذلك قالت:

- أنا اشتغلت في أنابيب نياجرا لأني احتجت إلىٰ النقود لنيلي ولي، فالطفل الصغير يحتاج ملابس، وطعام يا تجنور، وأنت بعيد، يا تجنور، لم نعرف عنك شيئا...
- يا للقرف، لقد أرسلت لك نقودا، علىٰ بريد الولايات المتحدة، لقد أرسلت.
- لا، لم ترسل.
- مخطئ في تذكرك.
- أنت كاذب.

تعرف ريبيكا علامات التهديد، فيجب ألا تقول شيئا آخر.

تراجعت ريبيكا للخلف:

- تجنور لا تقل مثل هذا الهراء، نيلي سيسمع.
- دعيه يسمع، ليعرف أن أمه المحترمة عاهر.
- أكيد يا تجنور لا تعني هذا.
- لا، إيه؟ أعني ماذا؟ يا صغيرتي.
- ما تقول.
- وما الذي أقوله؟ قولي.

حاولت ريبيكا ألا تتلعثم:



«أنا أحبك يا تجنور، لا أعرف رجلا إلا أنت، ليس هناك رجل قط إلا أنت. يجب أن تعرف ذلك! عمري، إطلاقا...»

«نيلي، يا ولدي، قل لأبيك إذا كان جاء أحد للبيت ليرىٰ ماما»

فحملق نيلي كأنه لم يسمع. فهزه تجنور:

«رجل؟ أي رجل؟ ربما في الليل؟ في الوقت الذي من المفترض أن تنام فيه، قل لبابا».

فهز نيلي رأسه بصعوبة

«ما هذا؟ لا! لا يا بابا»

«تقسم علىٰ ذلك؟ تصلّب علىٰ صدرك وتتمنىٰ الموت؟»

فأومأ نيلي، وابتسم بتردد لتجنور.

«ولا مرة، أي رجل في هذا البيت؟ إيه؟»

بدأ نيلي يرتبك، ويرتعب. تتألم ريبيكا لكي تأخذه من ذراعي تجنور، همس نيلي بصوت ضعيف يعني نعم، وهو يتوسل، فقال تجنور بحدة:

«رجل؟ هنا؟»

فلمست ريبيكا يد تجنور التي يمسك بها كتف نيلي النحيلة:

- يا تجنور أنت تخيفه، إنه يقصد صوت الراديو.
- راديو؟ أي راديو؟
- الراديو! أصوات الراديو!
- الجحيم، إنه أخبرني، نطق بالحقيقة!



- تجنور، أنت لا تعني شيئا من هذا، أنت...
- لقد اعترف أن هناك رجلا، سمع صوته، عشيق ماما.

انتابها شعور بأن كل شيء ينتهي. وأن الأمور تسوء.

«إنه الراديو يا تجنور! لقد قلت لك ذلك. نيلي يستمع للراديو ليل نهار، وعنده اعتقاد بأن الأصوات التي في الراديو هي صوتك»

«كلام فارغ»

أحست ريبيكا أن تجنور يستمتع بذلك. فهذا ظاهر علىٰ وجهه، مثل استمتاعه في الشرب، أو لعبة البوكر مع أصدقائه حين يكسب. لم يصدق الكلام ولو للحظة، وأيضا لا يريد أن يتوقف.

يمكن للريبيكا أن تخرج من الغرفة، وتلوح بيدها اشمئزازا، وتجري للخارج، أين؟

من المستحيل أن تترك نيلي. وقف تجنور فجأة، وقد تخلص من نيلي بوضعه علىٰ الأرض، وأمسك بكوع ريبيكا:

«اعترفي، يا يهودية»

«لماذا تكرهني يا تجنور، بينما أنا أحبك»، وأردفت:

- لم نكن يهودا! لست يهودية!
- لست يهودية! بل أنت كذلك، شوارت؟
- ماذا لو كنت يهودية، ما العيب في ذلك؟

فبوّز تجنور بامتعاض، هز كتفيه، وكأنه عرف أنه أكبر من هذا التحامل.



- أنا لم أقل هذا يا صغيرتي، الآخرون، اليهود القذرون، إنك تسمعين هذا طوال الوقت من الناس، ماذا يعني هذا؟ إنه في الأوراق والسجلات.
- الناس جهلاء، ودائما يقولون أشياء عن جهل.
- يهود، وزنوج، الزنوج بعد القرود مباشرة، ولكن اليهودي ذكي في سبيل مصلحته. يبتزك، يسلبك جيبك، يطعنك في الظهر، ويقاضيك! وهناك أسباب معقولة، جعلت الألمان يريدون أن يتخلصوا منكم، الألمان جنس ذكي.

راح تجنور يضحك بصفاقة، وفكرت ريبيكا أنه لا يعني شيئا مما قاله. ومع ذلك لم يستطع أن يتوقف، حتىٰ أثناء ممارسة الجنس، لم يتوقف من التقلب والأنين بين ذراعيها.

قالت ريبيكا باستعطاف: «لماذا إذاً تزوجتني إن كنت لا تحبني؟»

علت وجه تجنور نظرة خبث ودهاء، بينما ريبيكا تفكر. هو لم يتزوجني قط، نحن غير متزوجين.

«بالطبع أحبك، وإلا لماذا جئت هنا في المكان القمامة، ومع هذا الطفل كثير الحركة، نصف اليهودي، يا للقرف»

راحت تنوّم نيلي في السرير، فشد فيها الطفل وتشبث بها.

«لا تبك، ولا تحاول أن تبكي، وإذا اضطررت للبكاء فخبئ وجهك في المخدة. فبابا يغضب عندما تبكي، إنه يحبك جدا»



قصدت ريبيكا أن تمنع تجنور من البيت، وتمنعه من دخول غرفة النوم. ولكن تجنور في غرفة النوم، رث، غاضب، وفي يده زجاجة بيرة تنسكب من فوهتها الرغاوي

«تخفينه بعيدا، إيه؟ تجعلينه يخاف من أبيه؟»

حاولت ريبيكا أن تشرح له أن هذا موعد نومه، وأنه تعدىٰ موعد النوم.

«تسممينه ضدي طوال هذه المدة، أليس كذلك؟»

هزت ريبيكا رأسها «لا»

«تقلبينه ضدي، لماذا هو خائف مني، عصبي ككلب مضروب»

وقفت ريبيكا في سكون تحملق في بقعة علىٰ الأرض.

أخرج من جيبه المحفظة، وتحسسها ليخرج بعض الأوراق المالية:

«البنت الغجرية! دائما تريد الفلوس، إيه؟ كأني لا أعطيك ما فيه الكفاية، كأنك لم تستنزفيني طوال خمس سنوات لعينة، خذيها، التقطيها، هذا كل ما تريدينه مني، أليس كذلك؟» وتطايرت أوراق الدولارات تحت أقدام ريبيكا.

قال لها بصوت متكلف بالهيام: «بنت يهودية، عاهر» وكرمش النقود ورماها علىٰ ريبيكا، علىٰ وجهها، اغرورقت عيونها، وغطتها غشاوة.



«ما حدث؟ معتزة بنفسك؟ تصنعين الفلوس بنفسك الآن؟ علىٰ ظهرك؟ وتفتحين ساقيك؟ ما هذا؟»

وضع تجنور زجاجة البيرة علىٰ الأرض، ولـم يـدر أنـه أسـقطها. وراح يجرجر ريبيكا، ويحاول أن يدس ورقة بنكنوت تحت قميصـها. وراح يمزق بنطلونها الفضفاض الأسود المصنوع من القطـن الجامـد، قطعه عند الركبة والخلفية لقد كانت الملابس ملابس العمل حيث لـم يكن لـديها الوقـت لتغيرهـا. يحشـر ورقـة البنكنـوت تحـت البنطلـون، وتحت ملابسـها الداخليـة، وبـين سـاقيها وهـي تحـاول أن تبتعـد عنـه. يؤلمها، لقد وضع إصبعه الكبير في فرجها. وكان يضحك، بينما ريبيكا تريد أن تعتقد أنـه لـيس غضـبانا، طالمـا يضـحك، ولـن يؤذيهـا، طالمـا يضحك.

يهدد، ولكن لا يؤذي. ومع ذلك يخنقها، ويحشر ورق البنكنوت في فمها، يريد أن يدفع بها في زورها. لـم يفعـل شـيئا مثـل هـذا مـن قبـل إطلاقا، هـذا شـيء جديـد. لـم تسـتطع ريبيكـا أن تـتنفس، إنهـا تختنـق. تصارع لكي تنقذ نفسها، ملأ الفزع عروقها، الرجل يسخر منها:

«يهودية، كلبة، عاهر!»

يشتاط غضبا، ينضح لهيبـا مـن الغضـب، تسـتمر الخناقـة حـوالي أربعـين دقيقـة، تعتقـد بعـدها أنهـا لـم تفقـد وعيهـا، ومـع ذلـك يهزهـا تجنور: «هيا، ليس هناك شيء خطأ حدث لك يا لبؤة، قومي»

وشدها علىٰ قدميها، أراد أن يوقفهـا علـىٰ قـدميها، وهـو يتـأرجح مثلما رجل يقف علىٰ سطح سفينة تتمايل.



«هيا، كفي عن التمثيل»

خارت قوىٰ ريبيكا وسابت ركبتها. ولاح بريق أمل أمامها، كومضة ضوء سريعة، بأنها لو ركعت علىٰ ركبتيها، فسوف يشفق عليها ويتركها تزحف بعيدا كالكلب المعدم، تيقنت من أسابيع أنها ستتركه، ومع ذلك لم تفعل. والآن قد يئست، فلا بد أن تفعل. لكنها لم تستطع أن تفكر أين تذهب بحيث لا يمثل خطأ، فتكون هناك مصيدة تسلمهما لتجنور مرة ثانية.

أخذت بخفة تعد حاجياتها. فلن تأخذ وقتا لتغير ملابسها المتسخة، وتضع بعض حاجيات لها ولنيلي في الشنطة التي اشتراها لها تجنور من سنين. وراحت تأخذ بعد ذلك كل النقود التي تجدها في الغرفة. لقد عقدت العزم. نقود كثيرة! إن تجنور يكسب الكثير في القمار، يريدها أن تعرف ذلك. لم تشأ أن تلمس محفظة تجنور الملقاة علىٰ الأرض حيث أسقطها.

أخذت من الرف العلوي في الدولاب النقود التي تخبئها منذ مارس الماضي، أصبحت الآن واحدا وخمسين دولار، والجاكت الرث الذي لفت فيه قطعة الحديد الصلب الخردة.

الآن عرفت ريبيكا لماذا احتفظت بتلك الحديدة القائمة مقام السكين، ولماذا خبأتها بعيدا في تلك الغرفة.

اختبرت سن الحديدة فكانت حادة كسن قطعة من الثلج. وفكرت لو أنها ضربت بها تجنور ضربة سريعة ودقيقة وبكل قوة في



عرق رقبته لأردته قتيلا. لن يموت في الحال ولكن سينزف حتىٰ الموت. إنه الشريان السباتي، كما عرفت ذلك من كتب البيولوجي.

وهل هي تريد أن تقتل هذا الرجل، هي مترددة، وغير متأكدة. هل تريد أن تقتل أي رجل مهما كان، أي كائن حي. لكي تعاقب تجنور، وتؤذيه بشدة. لكي تجعله يعرف كم هو آذاها، هي وابنهما، يجب أن يعاقب.

الطفل في انتظارها، ليس أمامها خيار، يجب أن تسرع، وضعت ريبيكا قطعة الحديد علىٰ السرير بجوار الرجل النائم.

«سوف يعرف أني أبقيت علىٰ حياته، وسوف يعرف لماذا»



بعد ثلاثة أيام في ٢٩ أكتوبر، ١٩٥٩، البونتياك المسجلة باسم تجنور سيتم اكتشافها، فتنك البنزين تقريبا فارغ، المفتاح علىٰ الأرضية تحت المقعد الأمامي، في جراج قريب من محطة أتوبيس جريهاوند في روما، في نيويورك. علىٰ بعد مائتي ميل تقريبا شمال شرق تشاتاقوا. لم تترك في السيارة أي مذكرة، فقط بعض لفافات ورق كلينيكس ملطخة بالدماء مبعثرة علىٰ الأرضية تحت المقعد الخلفي، في إحداها خاتم امرأة؛ حجر كريم صناعي باهت يشبه الأوبال علىٰ قاعدة فضية معتمة، وفي درج الجوانتي كشاف بزجاج مكسور، وزوج جوانتي جلد رجالي متسخ، وخريطة مكرمشة لولاية نيويورك لا يستطيع قراءتها إلا صاحب السيارة لأنها تخصه.



الجزء الثاني

في العالم



رغم أنه لا زال طفلا فقد عرف بالفطنة. إننا هي وأنا قد متنا، فلن يستطيع أحد أن يؤذينا.

تتحدث للغرباء بصوت فيه فخر. اسمه زكريا، اسم من الكتاب المقدس، ولد بموهبة الموسيقىٰ، أبوه ميت، لا نريد الحديث عنه.

تتحدث عن حياتهم وكيف عليها أن تماشي الركب، في الوقت الراهن. أسماء المدن والجبال والأنهار والمقاطعات دائما تتغير. فلا استقرار في مكان واحد أكثر من بضعة أيام... شغوف بنطق الأسماء لأنه يحب الأصوات الجديدة الغريبة علىٰ لسانه، وتواق أيضا ليتعلم حروفها، ولكن الأسماء تتغير باستمرار، لم يستطع أن يتذكر، ويبدو أنها لا تريده أن يتذكر كما لا تريده أن يتذكر اسمه القديم فالآن. زاك، زاك، زاك. تحضنه وتحب أن تخبره. اسمك الآن زاك، ابني زكريا، مبارك من الرب، لأن أباك. عيونها حائرة علىٰ نحو غريب -عاد للجحيم حيث ينتظرونه، وراحت تضحك وهي تشبك يديه في يديها في لعبة الأيادي التي بدأتها معه منذ أن استطاع أن يصفق بيديه الناعمتين في يديها لكي تجعله يضحك، وتداخل ضحكهما بالفرحة.

رغم أنه تذكر ذات مرة كيف كان هناك بيانو في كافتيريا ما، وماما تقول بصوتها المنفعل والواضح للجميع. حاول يا زاك، فلتر إذا كنت تلعب بيانو. وراحت تمسكه بيديها القويتين الدافئتين لكي لا يتزحلق من علىٰ حجرها، من علىٰ ركبتيها الجامدتين، فهو في مثل هذه الأوقات يكون مرتبكا، مكتوفا بالخجل، وكرسي البيانو منخفض فلا يستطيع الوصول لمفاتيح البيانو، هناك رجال يتفرجون، فدائما هناك رجال في هذه الكافتيريات، والحانات، والبارات التي أخذته ماما



إليهـا، الرجـال يقولـون لـه كلمـات تشـجيع، هيـا يـا بنـي، دعنـا نسـمع. أنفاسـها الحـارة تفـوح بـالبيرة في عنقـه، وهـي تـرتعش مـن الانفعـال، وأمسـكت بيـده اللدنـة ووضـعتها علىٰ مفـاتيح البيـانو، لا تعبـأ بـأن المفاتيح البيضاء متسخة ومشوهة وحوافها الحادة تؤلم أصابعه، ولا تهتم بأن المفاتيح السوداء ملزقة، والبيـانو متسـخ ومشـوه وأنغامـه غيـر مضبوطة، ماما وضعت يده في منتصف المفاتيح، هي تعرف أين تضع أصابعه، فالإبهام اليمنىٰ علىٰ مفتـاح الـدو، وبالتـالي كـل أصـبع يعـرف مكانه بـالغريزة، أضحىٰ مرتاحـا لـذلك، فهـو مولـود بالموهبـة، الـرب خصه بها، فهو لا يتكلم دائما بشكل جيد. بينمـا هـي في تلـك الأوقـات تـتكلم بلهجـة غريبـة، وبقـوة، ودون أن تـرمش عيونهـا، وعلـىٰ فمهـا ابتسامة أمل، رغم أنه كان يتألم من كلماتها فإنه يعلم أن هذه الكلمـات زائفة في الوقت الذي يفترض فيه أنه فهم معانيها المنطقية. كن عاطفيـا من أجلنا! ساعدنا، يشعر بالخوف من أجلها، ليس من أجل نفسه لأنـه لا يمتلك موهبـة، لقـد ولـد بـلا موهبـة، وأن الـرب لـم يخصـه بشـيء، خـاف مـن أجلهـا، مـن أن الرجـال الـذين كـانوا مـن دقـائق مأسـورين بكلامها يضحكون عليها. لكنـه بمجـرد أن طـرق بإصـبعه علـىٰ البيـانو توقـف ليسـمع نكـت النـاس وضـحكاتهم، توقـف ليسـمع صـوت أبيـه بغضبه الساخر المنخفض بين هذه الأصوات، يتوقـف ليعـي التـوتر في جسم أمه، والحرارة التي تنبعث منها. إنه يضغط علىٰ المفاتيح التي لا تلتصق، بعزف سريع علىٰ سلم الدو ميجور وبحماس طفـولي دون أن يعرف أنه سلم الدو ميجور.



لم يسمع لأصواتهم. إنه يغلق عينيه للتركيز. أصابع يده اليمنىٰ تلعب بالنغمة الغالبة كما لو أنها مألوفة بالنسبة له، بينما أصابع يده اليسرىٰ تلعب بالخلفية التي تملأ المسافات بين الأصوات. اعزف! هذه هي السعادة، أصوات البيانو القديم تسري فيه، في أصابعه، يده، ذراعيه، نصفه العلوي وكأنها تيار كهربي.

بالطبع لم يتحكم في أوكتاف كامل، فيده أصغر من ذلك، ولا يدوس علي. البدال. فهو لا يعرف أين البدال ولا حتىٰ أمه تعرف ذلك. أصوات البيانو متقطعة، والموسيقىٰ ليست منسابة مثلما سمعتها في الراديو.

الرجال الذين انتبهوا لعزف الطفل للبيانو بدأوا يفقدون اهتمامهم، وينصرفون عنه، وعادت أصواتهم العالية وضحكاتهم الصاخبة. ولكن ظل رجل واحد، اقترب منه، وضغط بقدمه علىٰ البدال اليمين، فتغيرت موسيقىٰ البيانو المتقطعة لأخرىٰ.

«أنت تحتاج البدال، اضغط عليه»

هذا الرجل غريب، ولكن ليس كالآخرين، مبتسم، إنه سكران ولكن يعرف شيئا لا يعرفونه. مهتم، ومعجب بتحسس الطفل لآلة لم يعزف عليها من قبل. يتعجب كيف أن عزف الطفل فطري وجديد. وهناك أم الطفل التي تحمله دائما بذراعيها، والتي تبتسم بفخر، وفي وجهها مسحة من جنون.

سألها بعد ذلك، من هما، ومن أين، فأجابت الأم الشابة بمراوغة، وما زالت تبتسم:



«أوه، من أقصىٰ الشمال، من مكان لا تعرفه»

ولكن الرجل أصر:

«يمكن أعرف، من أين بالضبط؟» ولكن الأم الشابة نظرت إليه بعيونها السوداء هادئة الرصينة، والتي حولها هالة من تعب، ورغم ذلك تبدو جميلة بالنسبة له، فقالت وكأنها تدربت علىٰ الكلمات كثيرا: «سيدي، من مكان ما نحن، ولمكان ما سنذهب».

تقع هذه الكافتيريا في جانب الطريق في أبالاكين في نيويورك، جنوب نهر ساكسيوانا علىٰ بعد بضعة أميال شمال حدود بنسيلفانيا. في آخر شتاء ١٩٦٠، لقد رحلا عن نيلز تجنور بحوالي خمسة أشهر.

ها هي أول مرة يعزف فيها بيانو، وهي المرة الأولىٰ التي قادته لأي بيانو. ربما سكرانة، وربما لما رأت البيانو في ركن من الكافتيريا جاءتها الفكرة كأي فكرة تأتي لها الآن: «نفس الرب» وإن لم تؤمن بأي رب.

بعد هذه الليلة هناك كثير من الكافتيريات، والبارات، والحانات، والفنادق. هناك كثير من آلات البيانو. فإذا ناسبت الظروف دفعت ابنها الموهوب زكريا للعزف. وإن لم تناسب الظروف دفعت ابنها الموهوب زكريا ليعزف بأي شكل. لأنه يجب أن يُسمع، لا بد لموهبته الموسيقية أن تُسمع، في كل مرة يعزف فيها زاك، هناك استحسان.

أنت لا تنظر عن قرب لدافع الاستحسان. وفي كل مرة هناك رجل يظل معهما، رجل معجب، رجل يصرف، ولو حتىٰ معه قليل من



الدولارات، علىٰ الأم الغريبة الشابة، وابنها النحيف، ذي الأطراف الطويلة والوجه الشاحب والعيون القلقة.

- قولي اسمك يا عزيزتي، أنت تعرفين اسمي
- أنت تعرف اسم ابني وهذا كفاية
- لا، أريد أن أعرف اسمك أيضا
- اسمي هازل جونز
- «هازل جونز» إنه اسم جميل
- أهو كذلك، لقد أسموني علىٰ اسم شخص ما، ولكن أبواي ماتا، يوما ما سأعرف، أعتقد ذلك.



«طالما لم نُقتل من قبل، فليس هناك من سبب لنُقتل الآن»

وراحت تضحك لهذه الحكمة اللذيذة، استمرت في الهروب مع ابنها دون أن تنظر إلىٰ الوراء. صارت هذه هي استراتيجيتها لأسابيع، شهور بل وسنين. كانت تسميها استمر للأمام. كل يوم يحمل مفاجأته ومكافأته، استمر للأمام، وكفىٰ.

أحيانا يقدم لها الرجال مأكولات، ومشروبات لها ولابنها الصغير. وأحيانا يعطون لها مالا. ترفض أحيانا، وأحيانا تأخذ. ولكن لم تقدم في المقابل أي عرض جنسي: روحها المتزمتة تشمئز من هذه الأفكار.

«أفضل أن أقتل نفسي وزاك، عن هذا الفعل، وهذا لن يحدث»

لقد رتبت سريرك، إذاً نامي عليه إنها حكمة الفلاحين، حكمة حازمة من الأرض، غير قابلة للجدال.

خطة ريبيكا هي أنها تترك سيارته في مكان عام. فتجدها السلطات في الحال وتصل إلىٰ صاحبها، فيأتي تجنور ليأخذها، فلا يكون لديه أدنىٰ سبب ليطاردها فالرجل يكاد يشتاط غضبا لسرقة سيارته. وراحت تضحك وهي تتخيل غضب الرجل.

«يمكنه أن يقتلني الآن، هل يستطيع؟ إنه لن يستطيع الوصول لي»

راحت تبتسم وتتحسس الندوب التي في جبينها والتي لم تعد تؤلم. لم تعد تتكلم مع الطفل عن تجنور، ولم تعد تطيق أن يئن الطفل ويولول من أجل بابا.



- هنا ماما، ماما فقط، هي كل ما لك الآن.
- لكن بابا...
- ليس هناك بابا بعد الآن، فقط ماما.

لم تعد تتكلم الآن أبدا عن الرجل الذي تنكر في صورة زوجها، فقد خدعها وجعلها تصدق أنه تزوجها في شلالات نياجرا، بل غباؤها هو الذي خدعها. لم تعد تفكر في ذلك الآن، لقد مسحت اسمه من ذاكرتها.

تميل لتقبل الطفل، وتنفخ في أذنه وتهمس فيها لكي تضاحكه.

اسم الطفل الحقيقي الذي خطر ببالها هو زكريا، اسم من الكتاب المقدس، ففي محطة جريهاوند اشترت تذكرتين للكبار إلىٰ بورت أورسيكاني، ٢٥٠ ميلا للغرب، وتذكرتين تحسبا إذا حدث شك في الأم بأنها أم الطفل.

لا هي ولا الطفل ركب الأتوبيس من قبل. جريهاوند ضخمة! التجربة مبهجة، ومغامرة. لا شيء يمكن فعله في الأتوبيس إلا النظر إلىٰ المناظر من النافذة وهي تمر بسرعة في الأمام بجانب الطريق السريع. رغم التعب في عظامها إلا أنها تبتسم، وطفلها علىٰ الكرسي المجاور مستكن وينعم بالدفء، تمرر يدها في شعره الحريري، وتربت بأصابعها علىٰ وجهه المتورم.

«هل تأخذين كارتي علىٰ الأقل، في حالة تحتاجين لي»

«تقبلين مني ميراثك، يا هانز جونز»

«الاسم هندريكس، بيرون هيدريكس»



الرجل الذي في زي رسمي، شديد السمرة، ذو الشارب الصغير، والعيون كثة الجفون، ينظر إليها باستغراب.

«في الدور الرابع، يا مدام، وإن اعتقدت أنه ليس موجودا»

لم تفكر ريبيكا في إمكانية هذا، يبدو أنه منذ أن سارت بمحاذاة القناة ورآها الرجل ذو القبعة وهو في انتظارها.

أخذت ريبيكا تنظر إلىٰ قائمة المبنىٰ، مبنىٰ وجنر بروفيشنال، هندريك، الجناح ٤١٤

يتطوف الطفل زكريا في مدخل مبنىٰ وجنر مزخرف السقف وعاليه وهو قلق ومستغر، باسمه الجديد، في هذه المدينة الجديدة بورت أوريسكاني بجوار بحيرة ضخمة بمياهها الزرقاء الداكنة، كان يقظا بفطنة، لم يعد مكسوفا، بل كان فضوليا بشكل واضح، ينظر بوقاحة للغرباء الذين يرتدون ملابس أنيقة الذين يدلفون للباب الدوار من شارع أويجو المزدحم. حتىٰ هذه اللحظة كان غلاما ريفيا، الوحيد من بين الكبار الذي يرتدي ملابس غريبة ويتصرف بشكل مختلف عن الآخرين.

«تعال يا زاك مع ماما، سنصعد للمصعد»

فيضحك، فاسم زاك غريب عليه، كقرصة غير متوقعة لا تدري إذا كانت من باب اللعب أو الألم.

إن زكريا تعني البركة كما أخبرته ماما. وبالفعل ذهب ليركب المصعد لأول مرة.



دخل الرجل الذي في الزي الرسمي، وأخذ موضعه جوار لوحة التحكم، وقال:

«يا مدام، سآخذك لمكتب هندريكس، ولكن كما قلت لك أعتقد أنه غير موجود، فلم أر منهم أحد منذ مدة»

يظهر أن ريبيكا لم تسمع هذا. وأمسكت بيد ابنها الضعيفة في الأسانسير وكانت دافئة فخشيت أن يكون مريضا، فليس لديها وقت الآن لمثل هذه الأشياء. في بورت أوريسكاني، لكي تقابل بيرون هندريكس! لقد استغرب أن هازل جونز تزوجت، ماذا لو عرف أن لديها طفلا؟ ريبيكا مرتبكة، قلقة، ربما كان هذا خطأ.

شفتها تتحرك، ربما تكلم نفسها:

«من المفروض أن دكتور هندريكس موجود، لقد أعطاني الكارت منذ أيام قليلة، وهو ينتظرني»

- يا مدام، هل تريدينني أن أنتظرك؟ في حالة إذا جئت؟
- لا، شكرا، غير ضروري.

أوقف الرجل الأسانسير في الطابق الرابع، وخرجت ريبيكا وهي ممسكة بالغلام.

«إنه يعتقد أني أريد الدكتور هندريكس لكي أكشف على ابني، إنه يعتقد ذلك»

- إنه في هذا الاتجاه يا مدام، تريدين أن أنتظرك؟
- لا، قلت لك.



واتجهت ريبيكا بغضب دون أن تنظر إلىٰ الخلف، وانغلق باب المصعد خلفها بقعقعة، زاك قلق فهو لم يرد أي طبيب كبير، هو لم يرد ذلك. راحت ريبيكا تطرق الباب علىٰ الزجاج الباهت بيأس، لم تعرف ماذا ستفعل في بحثها المحمود عن دكتور هندريكس، متأملة لحظة أن وقعت عينه علىٰ عينها مسرورا لأنه وجد هازل جونز، فلم تتوقع أنه غير موجود حيث وعدها.

«أستطيع أن أكلمه في الصباح في التليفون وآخذ موعدا»

أدارت ريبيكا للمرة الثانية مقبض الباب

«لماذا هو غير موجود؟»

اعتقدت أنه لما يراها سيعرفها، وما سيحدث بعد ذلك، يحدث دون إرادتها. إنه استدعاها، وترجىٰ فيها، لم يترجها أحد من قبل هكذا. لم يفتش أحد بداخلها هكذا.

الرجل ذو القبعة. تتبعها من المدينة، لقد عرفها، لقد غير مجرىٰ حياتها، إنها امرأة موهومة، تعيش مع رجل ليس زوجها، رجل عنيف، مجرم، إنها لم تقدر علىٰ ترك هذا الرجل لو لم تقابل دكتور هندريكس علىٰ ممر القناة، إنها لن تكذب عليه لن تدعىٰ أنها هازل جونز.

نظر إليها الطفل بعبوس. لماذا أمي تكلم نفسها؟ وتبتسم، وتعض علىٰ شفتها الجرباء:

«ماما! ممكن نمشي من هنا، فالرائحة صعبة»

استدارت، دون وعي. وراحت تتحسس عن يد ابنها... انفتح أحد أبواب الزجاج الباهت، واشتدت رائحة الأدوية، شخص ما خرج



من رقم ٤٢٠، الخاص بهيرام تانر. دخلت ريبيكا بدون تفكير صالة الاستقبال:

«أهذه عيادة أسنان؟»

فأجابتها امرأة متجهمة من خلف طاولة الاستقبال:

«نعم، أي خدمة؟»

«أبحث عن الدكتور هندريكس في جناح ٤١٤، ولكن الباب مغلق»

فنهضت المرأة ذات الحواجب المرسومة بالقلم بدهشة مبالغ فيها:

- لماذا؟ ألم تسمعي أن دكتور هندريكس مات الصيف الماضي؟
- مات! ولكن...
- كل مرضاه يعلمون ذلك، هل أنت واحدة من مرضاه؟
- لا، أقصد نعم كنت...

«المكتب لم يفرغ بعد تماما إنه في حالة مزرية، سيأتي شخص ما لينظفه»

الموظفة أنيقة، في الأربعينات، وتنظر إلىٰ ريبيكا وابنها الذي يلتصق بساقيها، ولوجهيهما المرهقين: «هناك أطباء آخرون في المبنىٰ، في الدور الثاني... »



«لا، أريد أن أقابل دكتور هندريكس، في الحقيقة أقصد ابنه، ليس الأب»

فقالت الموظفة:

«لم يظهر أحد منهم منذ الصيف الماضي، الناس يقولون أن أحدهم سيأتي في خلال ساعات، فهناك أشياء ملمومة في صناديق وعلىٰ البواب أن يرفعها بعيدا، اعتدت أن أرىٰ ابنه، ولكن لم أعد أراه في الوقت الحالي، يقولون أن دكتور هندريكس مات بالسكتة، عنده زبائن كثيرة، ولكنهم كبروا في السن، لم أسمع أن ابنه دكتور»

فقالت ريبيكا محتجة: «بل هو دكتور بيرون هندريكس، لقد رأيت كارته، المفترض أن لي موعدا معه... »

«رجل في الأربعين تقريبا، أليس كذلك؟ يبدو متوترا، له طريقة غريبة، وعيونه؟ لبسه غريب، ودائما يلبس برنيطة، في البرد فيدورا، وفي الصيف قش، لم أسمع إطلاقا أنه أخذ دكتوراه، ولكن من الممكن أن أكون مخطئة، ربما درس الطب في مدرسة ما، ولكن لم يمارسه، هناك حالات مشابهة»

راحت تفكر. هندريكس أراد منك أن تثقي فيه. علىٰ الممر في ذلك الوقت، ليس لديه أي فكرة أنك ستبحثين عنه في يوم من الأيام.

يمكنهما أن يقضيا الليلة في فندق بناية دون مصعد، من البنايات البنية، علىٰ بعد عدة بلوكات من شارع أويجو، وقبل النوم أخذته لوجبة عشاء في مطعم آلي في شارع أويجو.



إن الجو بالإضاءة المبهرة، والضوضاء، والطريقة التي قدم بها الطعام، علىٰ صينية بلاستيك لامعة، كل ذلك فتن الطفل. بعد أن تناولا الوجبة فكرت أن تأخذه عبر الميدان الواسع، المفتوح إلىٰ ستاتلر أوريسكاني الذي من أكثر الفنادق تميزا في المدينة.

الصباح التالي بارد بشكل واضح، ومنعش. قررت في المساء ألا تكلم بيرون هندريكس في التليفون. ستمضي في طريقها، فهي لا تحتاج له. وليس عندها وقت لتبحث في دليل التليفونات عن اسم جونز.

إنها في حالة مزاجية عالية، لقد نامت نوما عميقا، نوم أهل الكهف، وكذلك ابنها.

«نوم أهل الكهف! لا شيء أحلىٰ من ذلك»

في الصباح استطاعت أن تحمم الطفل في حوض التواليت الضيق جدا، وأن تغسل شعره. قاومها، ولكن ليس بحدة. شكرا للرب أن هناك صابونا. فغسلت شعره الفاتح الخفيف ومشطت ما تبقىٰ فيه من عناقيد من دم متجمد.

تركت ريبيكا طفلها في المطعم الآلي، وأخبرته ألا يتحرك ولو بوصة واحدة، وأن ينتظرها. وأكل، من الجوع، في الطبق الثاني من دقيق الشوفان الذي يغطيه اللبن والسكر البني الكريستال، والذي لم تذقه ريبيكا من قبل. ذهبت ريبيكا لتغسل شعرها وتقصه في كوافير جلامر بيوتي علىٰ ناصية المطعم، وقد رأته أثناء سيرهما في الليلة الماضية. لقد تمعنت الأسعار المعلقة في الفاترينة.



أخذت تقلب صفحات القصات في كوافير جلامر حتىٰ استقرت علىٰ القصة التي تبحث عنها. قَصة هازل جونز المبتهجة، مع قُصة فوق الحواجب مباشرة.

جلس هناك في المطعم الآلي حيث تركته أمه، ساكنا جدا وكأن أفكاره تداخلت مع بعضها بعض. تعبيرات وجهه تبدو متوترة، ويبدو منهمكا. جلس وهو ملتف حول نفسه بشكل غريب فذراعاه مطويتان علىٰ صدره بشدة. ظننت أنه يلعب بيانو، أصابعه تعزف موسيقىٰ.

إنه واثق منها جدا، ليس لديه أدنىٰ شك أنها ستعود له، لما رآها قادمة نظر إليها بإعجاب، وهو يغمز:

«أنت حلوة جدا يا ماما، تبدين جميلة»

أتوبيس جريهاوند لجيمستاون يحمل الركاب، أشارت لابنها ليتبعها. لقد أحضرت له هديتين، كتابين كوميديين فائضين وجدتهما في حجرة الانتظار. راحا يقبلان ويحضنان بعضهما بعضا في الأتوبيس.

استيقظ فوجد نفسه وحيدا، أمه تلعب كوتشينة مع رجل وزوجته في المقعد الخلفي بالأتوبيس.

أسرة فيسكس إد وبوني، إد رجل أصلع وجهه متورد، وله سوالف طويلة، يميل للسمنة، وله ضحكة ودودة، أما بوني فعريضة الصدر، مكياجها كثير وفتان، أظافرها لامعة. وضع إد علىٰ ركبتيه شنطة كرتون يوزع فوقها ورق الكوتشينة له وللمرأتين الجالستين علىٰ جانبيه.



ليست أمه تلك التي تتصرف هكذا. فلقد كانت في الرحلة لروما في حالها، لم تقابل عيونها أي عيون للآخرين.



في هورسهيدس، نيويورك، أواخر الشتاء، أوائل ربيع ١٩٦٢، في كافتيريا. بلو موون. في شارع ديبوت، تعمل أرملة شابة كنادلة في الكافتيريا، فقط هي وابنها الصغير. الحضور الغفير من الزبائن، ومعظمهم من الرجال، ولكن الرجال اعتادوا أن يحترموا الأرملة الشابة، هازل مثل أختك، فهل من الممكن أن تعاكس أختك؟

ويلي جيمس جود علىٰ مقربة من التقاعد من عمله كموظف بالمقاطعة. يتناول معظم وجباته في بلو موون حيث صار مألوفا للنادلة هازل جونز التي كانت بدورها معروفة له عن طريق أخته الصغرىٰ إيثل سوييت المتزوجة من صاحب حانة متداعية في هورسهيدس حيث تؤجر الأرملة الشابة وابنها غرفة بالأسبوع. إيثل معجبة بشكل واضح بمثابرة هازل جونز وعدم شكواها. ليست كالقاطنين الآخرين. هادئة، في حالها، ليس لديها أي زوار. لا إسراف في الفوط، ولا البياضات، ولا المياه الساخنة، ولا الصابون. لا تخرج إلا وأغلقت كل الأنوار في الغرفة. لا تسمح لابنها أن يلعب علىٰ السلالم، ولا أن يلعب بضجيج حتىٰ ولو خارج السكن، خلف الحانة. ولا تسمح له بالتسلل لأسفل أو يتفرج علىٰ التليفزيون في البهو مع الآخرين. تقول إيثل تقريبا لا تشعر بأن هناك طفلا.

ولم تكن حياة هازل سهلة: بدأت تبوح لإيثل تدريجيا كيف أن الأرملة الشابة مات أبواها وهي لا تزال طفلة.

تأثرت إيثل عاطفيا جدا! حينما رأت إيثل المرأة الشابة قلقة، ومتوترة سألتها عن السبب، فقالت لها إنها لا تمتلك ورقا لتلحق به زكريا للمدرسة.



فسألتها إيثل: «أي أوراق تلك، أهي شهادة الميلاد؟»

فقالت هازل: «نعم، شهادة ميلاد له، ولها أيضا»

فالذي حدث أن شهادة ميلادها احترقت في المنزل منذ أن كانت أربعة أعوام. وتاريخ ميلادها غير مسجل في أي مكان! فالحريق في منطقة ما في شمال المدينة، وهازل لم تكن متأكدة فأمها أخذتها من بلدة لأخرىٰ في وادي تشاتاقوا. وأمها ماتت وهي في التاسعة من عمرها. وأقاربها الذين عاشت معهم لم يهتموا بها. لقد أخبروها أنها ولدت علىٰ سفينة قادمة من أوروبا، في ميناء نيويورك، وأن والديها كانا مهاجرين من بولندا أو هنجاريا، ولكن لم يخبروها أي سفينة، لم تتأكد متىٰ وصلت السفينة، ولذلك ليس لها أي سجل عن مولدها. وقالت هازل لإيثل كأنهم أرادوا التخلص منها مجرد أن ولدت، ولم تقل ذلك من باب الشكوىٰ ولكن لمجرد إخبارها بالحقيقة.

أما شهادة زكريا فكانت بحوزة أبيه، ما لم تكن فُقدت أو أُتلفت.

عند سماعها ذلك قالت إيثل بانفعال إن هذا سخف، فالإنسان أمامك موجود، ومطلوب مستند أنه موجود، إن هذا لا معنىٰ له.

استدعت إيثل أخاها ويلي في الحال. فهي تعرف أن ويلي قلبه طيب. معروف عنه في هورسهيدس أنه سريع الغضب ونزق يحب أن يتسلط ولكن هذا مع الأشخاص الذين يضايقونه. رجل لطيف. يشعر بالأسىٰ للبنت هازل جونز. وللطفل الذي يشبه الأصم الأبكم. في المجلس المحلىٰ في إدارة المستندات هو الرجل الذي تحتاجينه



لاستخراج أي مستند. لـه مدخلـه لأي مسـتند تريدينه؛ شـهادة مـيلاد، شهادة زواج، أو شهادة وفاة.

وبهذا الشكل في عام ١٩٦٢ أشفق ويلي علىٰ هازل جـونز. لـيس ويلي بالرجل الذي يتعامل مع أي شخص بسهولة، أو يشفق علىٰ أحد أو يتعاطف معه. مـن المفـروض أن يكـون هـذا سـرا. اسـتدعىٰ المـرأة الشابة لمكتبه في بدروم دار القضاء الساعة الخامسة مساء، وقت انتهاء العمل لتشرح له موقفها وما حـدث معهـا، ولتكتـب الحقـائق المؤكـدة لويلي بعنايـة. وبينمـا تكتـب تتوقـف لتفـرك عينيهـا. اسـمها في المـيلاد هازل جونز. أما اسـمها في الـزواج فمختلـف بـالطبع في الاسـم الأخير ولـم تهتم لتذكره، والاسم الأخير لزكريا لـم يكـن جـونز بـالطبع ولكـن كانـت خائفـة أن تـذكر اسـم زوجهـا وإلا وجـد الطفـل لـو ان اسـمه الرسمي كان متداولا.

سـحب شـهادة مـيلاد بـدل فاقـد لهـازل جـونز وابنهـا، كـان خيـال ويلـي في قمتـه. فكانـت هنـاك اسـتمارة، مكتـوب في رأسـها دار محكمـة مقاطعـة شـيمونج، تسـتبدل تلـك الشـهادات التـي فقدت أو أُتلفت.

فقـط في الأيـام الأخيـرة صـارت الحاجـة لشـهادة مـيلاد مطلوبـة. أمـا قـديما فلـم يهـتم بهـذا أحـد. مثلهـا مثـل التبنـي. تأخـذ أي طفـل في أي سـن، فهـو لـك بـالتبني، دون أي أوراق رسـمية، لا حاجة لمثل هذا الهراء.



الآن صار هذا ضروريا للمحفوظات العامة، ولقد أصبح لديها شهادة لتثبت وجودها: هازل إيثر جونز، مواليد ١١ مايو ١٩٣٦، ميناء نيويورك، مجهولة النسب.

بالنسبة لزكريا، يجب أن يكون له أب. فسأل هازل:

«ألا ترين سبيلا لذلك، أي اقتراحات؟»

فأجابت وهي تبتسم دون أي تفكير:

- ويلي؟ أقصد ويليام.
- ويليام من؟
- جود

يا الله، إنه سر لذلك، وابتهج، ولكنه رأى أن ذلك قد يبدو معقدا فرأى استبدال الأسماء، هازل جود، ووليام جونز، لقد أصبحت هازل جونز بعد الزواج. فضحكت هازل بصوت عال. شهادة ميلاد ابنها هي، زكريا أوجست جونز، مواليد ٢٩ نوفمبر ١٩٥٦، بورت أوريسكاني، نيويورك، الأم هازل جونز، والأب ويليام جونز. الآن اسمها الرسمي ليس هازل جونز بل هازل جود في الأوراق الرسمية، الخاصة باستمارة سجل مدني مقاطعة شيمونج.

وراحت تشكر الرجل العجوز وهي تنفجر بالدموع، فلم يكن أحد طيبا معها من زمن طويل.

في الصباح التالي، ارتحلت هازل جونز وابنها من هورسهيدس إلى الأبد.



تركت على الطاولة مظروفا فيه مبلغ من المال هو إيجار شهر أبريل رغم أن التاريخ ١٧ أبريل، ومذكرة بخط اليد مؤثرة لإيثل التي لم تفقد مؤجرة فحسب بل بنتا كما كانت تعتبر هازل هكذا، خط اليد أنيق ومنمق حتى أنه يمكن أن يُقرأ مرة بعد المرة لكل سكان هورسهيدس:

عزيزتي إيثل

لقد تم مكالمتنا فجأة أنا وزكريا، آسفين أن نترك هذا المكان الدافئ، أرجو أن يكفي هذا المبلغ لإيجار شهر أبريل، ربما نتقابل ثانية، تحياتي لك ولويلي من أعماق قلبي

صديقتك هازل.



خبئ كثيرا مما تعرف، كما تخبئ نقاط الضعف. لأنه من الضعف أن تعرف كثيرا من هؤلاء الذين لا يعرفون إلا القليل.

هو زكريا جونز، في العام السادس، التحق بالصف الأول في مدرسة بأي ستريت الابتدائية. يعيش مع أمه، لأن أباه لم يعد علىٰ قيد الحياة.

«هذا كل ما تقوله، وإذا سألوا أكثر، أخبرهم أن يسألوا ماما»

ولد ماكر له وجه ثعلب وعيون مراوغة وفم يصمت عندما يتكلم الآخرون كما لو أنه يريد أن يستعجل كلامهم السخيف. وله عادة تضايق مدرسته، إذ أنه يطبل بأصابعه، أصابعه كلها، كما لو أنه يستعجل الوقت.

«إذا سألوا من أين نحن قل. الجنوب. هذا كل ما يريدون أن يعرفوه»

فهو غير مضطر أن يعرف من هم، هؤلاء الذين في المحيط. كان يعرف بغريزته أن أمه علىٰ حق.

يعيشان في شقة من حجرتين مفروشتين أعلىٰ صيدلية هت. سلالم الباب الخارجي تؤدي لمبنىٰ في الخلف مظلم ومعرش بالخشب تابع للكنيسة. رائحة الأدوية تنبعث من ألواح خشب الأرضية، ماما تقول إنها رائحة صحية «لا جراثيم» هناك ثلاث شبابيك في الشقة كلها تطل علىٰ حارة محددة بظهر جراجات، والقمامة. كان هناك دائما قذارة علىٰ ألواح الشبابيك من الخارج، وماما تستطيع أن تغسلها من الداخل.



علىٰ بعد ميل ونصف يقع نهر سانت لورنس، والذي يبدو كوهج أزرق خفيف يلمع في الليل علىٰ الأسطح. هناك سكان آخرون أعلىٰ الصيدلية، ولكن ليس بينهم أطفال، قالت لها المرأة التي تسكن بجوارها ذات مرة:

«ابنك الوحيد هنا، وليس هناك أطفال يلعب معهم»

قالت ذلك وهي تلوي فمها بخباثة، فردت عليها هازل جونز بصوتها السلس:

«أوه، لا يا مدام أوجدين، زاك بخير، زاك لا يشعر بالوحدة أبدا، فدائما معه الموسيقىٰ»

الموسيقىٰ وسيلة للكلام. لأنه لم يشعر أبدا أن أي موسيقىٰ هي له.

هناك شيء واحد يمقته كل مدرسي البيانو، وهو ما يسمي الأعجوبة. يتقدم من نفسه «أو يقول بضحكة متقطعة» هناك ولفجانج واحد! إيه؟ فأساءت هازل جونز لساراناتيني بقولها إن ابنها مخلوق ليكون عازف بيانو. عند سماعه لهذه الجملة.

«مخلوق لماذا يا مدام هازل؟ وبمن؟»

لو أن ولي أمر آخر سمع كلام مستر سارناتيني الساخر ما تكلم، ولكن هازل جونز بصوتها الجاد والسلس «بما نمتلكه في داخلنا، والذي لا نعرفه إلا إذا أخرجناه يا مستر ساراناتيني»

رأىٰ زكريا بعينه الماكرة أن مستر سارناتيني تأثر بهازل جونز. علىٰ الأقل في حضور هازل جونز يعامل تلميذه بطريقة أكثر لطفا.



في العودة للشقة، تسدل ماما كل ستارات النافذة، وحين يخيم الظلام تفتح لمبة واحدة فقط، ويساعدها زاك في جر الكراسي الثقيلة أمام الباب المغلق، المغلق مرتين، لا أحد منهما له رغبة في العشاء وبعد ذلك التدريب علىٰ البيانو بالمفاتيح المتخيلة، ممكن أن يشرد زاك سامعا وراء النغمات الحادة الواضحة والأوتار للبيانو الذي يتخيله صوت رجل يرتفع مرتاب وغاضب ولا يمكن استرضاؤه ولا حتىٰ برعب شديد لطفل.

«ليس هو يا زاك، لا أعتقد ذلك، ليس هذه المرة»

ينكب علىٰ المفاتيح المتخيلة، ويضرب بأصابعه المفاتيح الورق. وكان صوت البيانو يطرد الصوت الاخر إذا أصابعه لم يصبها التعب.

في الصباح يوجد الحصىٰ علىٰ حافة الشباك.

لو اليوم مشرق، وغمرت الشمس من خلال زجاج الشباك حتىٰ صار الحصىٰ ساخنا علىٰ اللمس، يدرك زاك أن لعبة الحصىٰ ليس لعبة، ولكنها حقيقة كما أن أباه حقيقة ولكن غير مرئية. لا تشير ماما إلىٰ ما حدث بالأمس، أو تقريبا حدث. ذلك من قواعد اللعبة. تحضنه، وتعطيه قبلة رطبة مطرقعة وتقول بصوت هازل جونز المنتعش، لتجعله يبتسم:

«نتجاوز الليلة! سنستطيع»

طرأ تغيير طفيف علىٰ لعبة. هو... هي لعبة زاك كلية، بقواعد زاك.



بالصدفة، يلمح زاك الرجل، وليست ماما. الرجل الذي يشبه جدا الرجل الذي لا يستطيعان أن يتكلما عنه، ومع ذلك بشكل ما لا ترىٰ ماما الرجل. ينتظر زاك. بقلق متزايد ينتظر زاك ماما لكي ترىٰ ذلك الرجل، ولتفعل شيئا، وإذا ماما لم تر الرجل، أو تنتبه له، فسوف يخطر شيء ما علىٰ بال زاك، سوف يفقد التحكم فجأة، مندفعا نحو أمه، يلكزها.

«زاك! ماذا حدث؟»

يغضب زاك فجأة، يدفعها، يضرب فيها بيديه.

«ولكن ما هذا يا حبيبي؟»

بهذا الوقت انتهىٰ الخطر، فالرجل، الغريب دار ناحية الناصية، اختفىٰ. ربما لم يكن هناك رجل: قد تخيله زاك. مع ذلك في غضب طفولي، رفع زاك شفتيه ليكشف عن أسنانه، تلك طريقة أبيه، أن تراها في طفل فالمنظر صعب.

«لقد أفلت منك، أنت لم تره قط، أنا رأيته! استطاع أن يتجه لك، وبلام! بلام! بلام! ويطلق علىٰ وجهك الرصاص وبلام! ويطلق علىٰ[٣] الرصاص وأنت لا تستطيعين منعه، أنا أكرهك»

حدقت هازل جونز في ابنها الغاضب وهي مندهشة. لم تستطع الكلام.

تقع في الحب بالحب
أوفر كل حبي لك



في بداية شتاء ١٩٦٢ بدا يرىٰ المرأة الشابة في بار مفعم بالدخان يعزف فيه البيانو في حانة ميلين هيد. حيث. شيت جالغر عازف الجاز علىٰ البيانو. يتم الإعلان عنه في صورة كبيرة مصقولة موضوعة في بهو الفندق.

في البداية لم يصدق عينه، ربما هي، المرشدة في مسرح قصر الخليج.

الرجل الذي يدعىٰ جالغر عرف من صديقه الذي يدير المسرح أنها تصل في البار مبكرا، حوالي الساعة الثامنة مساء، وتجلس علىٰ طاولة صغيرة مدورة سطحها من الزنك بجوار الحائط. وتذهب قبل الازدحام، بعد العاشرة بقليل. دائما بمفردها. وحدها بشكل يلفت النظر. ترفض أي عروض للشرب من أي زبون آخر، وترفض أي أحد ليجلس معها، وتبتسم وهي ترفض لتخفف حدة الرفض. تستطيع أن تلحظ أنها كانت تركز علىٰ سماع عازف البيانو الجاز، لا تنجر لأي محادثات مع أحد. كل مرة تطلب مشروبين، لا تدخن، تراقب جالغر بانتباه شديد. أسرع من الآخرين وأكثرهم تشجيعا لجالغر، كما لو أنها لم تشجع أحدا من قبل في مكان عام.

«هازل جونز»

كان ينطق بالاسم مع نفسه. يبتسم، يا له من اسم بريء وساذج. أمريكي بحت. أول مرة رآها فيه كان من أمسياته المهيبة.

«إنها هي، أليست هي؟»



امرأة بمفردها في بار بيانو. تتوقع أن يلحق بها رجل، ولكن لا يفعل ذلك أحد. هذه المرأة الشابة الجذابة في ما يبدو ملابس توليفة من الملابس الرخيصة الفاتنة من قماش أحمر غامق مطرز بالفضة. شعرها يتدلىٰ منفوشا ومتطايرا علىٰ عنقها. تبتسم حولها بغموض لا ترىٰ النظرات الصريحة من الرجال حتىٰ إذا اقترب الجرسون نظرت له باستعطاف. كأنها تود أن تسأله. هل الأمر عادي أن أكون هنا، أرجو أن أكون مقبولة.

كأنه لم يدرك أنه يفكر فيها «هازل جونز» إنه علىٰ نحو ما، يكره أن يفكر في أي امرأة. يعتقد أنه أكبر من ذلك، فالعاطفة والأحاسيس في صدره وبطنه.

في تلك الليلة، أخذ جالغر استراحته دون أن ينظر إلىٰ المرأة الشابة، شق طريقه سريعا بعيدا عنها. ولما عاد وجد طاولتها مشغولة بشخص آخر.

حظ سيء جدا، ولكن هكذا أفضل.

سأل الجرسون عما شربت المرأة الشابة فرد بأنها شربت كولا بالثلج، وتركت خمسة وثلاثين بنسا كبقشيش، هذا هو الوجه الغامض من حياة جالغر، استيقظ ذات صباح ليجد نفسه رجلا غريب الأطوار لطيف المعشر، في بلدة صغيرة يعزف بيانو في حانة ميلين هيد في مساءات الأربعاء والخميس والجمعة. يسكن في بيت خشبي صغير قرب النهر، يذهب أحيانا لمعسكر أسرته في جريندستون أيلاند لعدة أيام ناشدا العزلة.



لذلك أصبح يعمل أحيانا كموسيقىٰ بالأجر في حانة ميلين هيد، التي صاحبها صديق لعائلة جالغر، من معارف أبيه تاديوس جالغر لمدة طويلة.



نظر جالغر في الصالة المعبأة بالدخان، لمح امرأة تدخل، تتجه لطاولة غير مشغولة بدوار الحائط، إنها هي!

ابتسم بينه وبين نفسه، لم تقع عينه علىٰ عينها، شعر ببهجة، راح يعزف مرتجلا، يحب ما تسري له أصابعه، يود أنها تستمع، أنها تعي. لقد شعر بالحنين. معتقدا. إنها جاءت لي، جاءت لي أنا. من نظرة سريعة للنوتة لقمة المفاتيح وقع شيت جالغر في حب المرأة الشابة التي يعرف أنها هازل جونز. في الاستراحة، ذهب جالغر إلىٰ طاولتها مباشرة. انحنىٰ للمرأة الشابة المندهشة التي تصفق بحرارة، شكرها، وقال إنه منتبه لها. قدم نفسه كما لو أنها لا تعرف اسمه، ومال ليسمع الاسم الذي تنطق به:

«هازل من؟ لم أسمع جيدا، هازل جونز»

راح جالغر يضحك كلص استطاع أن يضع المفتاح في قفل علىٰ نحو مناسب:

«تمانعين لو جلست معك للحظات يا مدام هازل جونز؟»

يستطيع أن يرىٰ أنها انبسطت من اقترابه لها... في هذا المكان الملبد بالدخان تشع مظهرا مثيرا ومتقدا. بكل أدب رفضت عرض جالغر بأن يقدم لها شيئا أقوىٰ من الكولا:

«شكرا لك سيد جالغر، ولكن مضطرة أن أذهب حالا»

ضحك، متألما محتجا: «ناديني بشيت جالغر، يا هازل، سيد جالغر هو أبي البالغ سبعة وستين عاما، وهو في ألبانيا.



المحادثة بينهما شكسة، ثقيلة الدم، كمن يركب قاربا مع غريب وليس هناك مجاديف. مبهجة ولكن غادرة أيضا. ومع ذلك ضحك جالغر، وكذلك ضحكت هازل، كان جالغر من المؤكد مسليا.

كم هو ظريف الرجل الذي تضحك من نكتته امرأة!

راحت هازل بكبرياء أنثوي تخبره أنها معجبة بعزفه علىٰ البيانو، رغم صعوبة متابعة الجاز، فإنها فاجأته بأنها كانت تستمع للجاز منذ سنوات في آخر الليل في الراديو في برنامج علىٰ محطة بافالو. في الحال عرف جالغر البرنامج: «زاك زكريا». اندهشت هازل لأنه عرف اسم البرنامج. كان علىٰ جالغر أن يمنع نفسه من إبلاغها أن فكرة البرنامج علىٰ كثير من المحطات فكرته، فمحطة الراديو فرع من محطات جالغر، أقوىٰ المحطات في المنطقة.

«هل تعرفه؟ زاك زكريا؟ أتساءل دائما إذا كان زنجيا»

نطقت هازل علىٰ استحياء كلمة زنجي، كما لو أن كونك زنجيا هو نوع من المرض. فضحك جالغر: «اسمه ليس زاك زكريا، ولم يعد زنجيا أكثر مني، لكنه يعرف الجاز جيدا، البرنامج في سنته التاسعة» ابتسمت هازل، ابتسامة ارتباك. لم يشأ أن يبدو وكأنه يضحك عليها.

اندهش جالغر من تدفق المرأة الشابة، فليس لديه فكرة عما كانت تتكلم، وتأكيدها علىٰ كلمة ضحك. كما لو أن الانجليزية لغة غريبة، لم تكن لغتها.

لم يرد أن يعتقد أنه استهان بذكائها، ومع ذلك لم يستطع أن يقدم لامرأة شابة مثل هازل جونز أي تحليل أو تعليل فيه دهاء، فمن خبرته



يعرف أن النساء يتكلمن من منطلق انفعالاتهن. ضحكت مرة ثانية، كما لو أنها تستظرف. أخذ بيديها في يديه، كأنه نوع من الغزل أو المداعبة. أصابعها باردة من أثر الكأس، قوية علىٰ غير المتوقع، عظامها ليست صغيرة أو ضعيفة، ملمس جلدها خشن نوعا ما. كانت حجة جالغر في أن يلمسها هو أن يصافحها لأنه مضطر أن يذهب ليعزف علىٰ البيانو، قد انتهت استراحته.

الساعة ٩:٣٠ وهناك مزيد من الزبائن يدخلون بار البيانو، فكل الطاولات انشغلت.

شعر جالغر بارتياح، فالجمهور كبير وهازل جونز ستتأثر أكثر.



«هنا صديق جديد لك يا زاك، تعال لتقابله»

صوت جالغر مازحا وحميميا علىٰ نحو رقيق، وكأنهما يعرفان بعضهما بعضا من وقت طويل:

«استمر، فالبيانو متاح لك، اعزف»

عزف زاك سلم فا مينور بيده اليمنىٰ فقط، ثم باليسرىٰ فقط، ثم بهما معا. تماشت أصابعه مع مفاتيح البيانو كأنه عزف علىٰ هذا البيانو الجميل من قبل! إنه مختلف عن البيانو الذي عزف عليه عند مستر ساراناتيني. النغمات أوضح، والأصوات متميزة.

راح جالغر يضحك بشخير، شيء مذهل أن أصابع الطفل زاك تحاول أن تتابع أصابعه، تتزحلق، وتتعثر، وتضرب المفاتيح الخطأ، ولكن لم يستسلم، كجرو أحمق صغير يجري يجري وراء كلب طويل الساقين. وجه زاك دافئ، بدأ ينفعل. ضرب جالغر المفاتيح بقوة وانسابت يده، وضرب زاك المفاتيح بقوة فلسعته في يده. فانفعل أكثر ومتحمسا.

«أنت صاروخ يا ولد، من أين جئت بحق الجحيم؟!»

راحت أصابع زاك تتحسس المفاتيح، باحثا عن نغمات متوافقة، إنه يبحث عن التناغم. عجيب أن تخطئ في التناغم فيذهب منك كله، رغم أنك حين تحصل عليه تشعر بأنه لا شيء طبيعي أسهل منه.

ثقلت جفونه، إنه متعب جدا! يسمع أمه وهي في فستانها البارتي الجرسيه المتلألئ تعترف لجالغر أنها ليست متزوجة، وليست مطلقة، لم تتزوج مطلقا:



«لم أتزوج لأي رجل»

يعرف زاك أن ذلك شيء مخز، أن امرأة بطفل وليست متزوجة. كيف ذلك، ليس لديه فكرة. مجرد نطق كلمة معي طفل بصوت متردد يثير السخرية والضحك. سأله التلاميذ الأكبر منه سنا في المدرسة إذا كان له أب، وأين هو، فيجيب بأن أباه مات، ثم يبتعد عنهم، عن وجوههم المتهكمة الصفيقة، ويستدير في يأس قاتل ليهرب منهم. لقد أخبرته أمه تكرارا لا تهرب، وإلا طاردتك الكلاب، ومع ذلك لم يستطع، إنه مرعوب منهم وهم يصرخون فيه ويزعقون وهم مبتهجون ويرمون عليه مكعبات الثلج، لماذا هم يكرهونه، وينطقون باسم جو...نز بطريقة وكأنه اسم قبيح.

تقول له أمه إنهم يغارون منه. إنه متميز، وإنها تحبه، ولا أحد يحبهم بالشكل الذي تحبه هو لذلك فهم يغارون، ولأن زكريا متميز في عيون العالم وسيعرف العالم ذلك يوما من الأيام.

«زاك، حبيبي، كفاية»

جاءت هازل وأمسكت بيديه

حان الوقت لنرحل. لقد أُطفئت الأضواء في بار البيانو، وذهب الجرسون.

وقف جالغر، كان طويلا أطول مما تخيل زاك، وراح يتمطى كالقطة الكبيرة وهو يتثاءب:

«هيا، سأوصلكما للمنزل»



أدخلاه السيارة في الخلف، هذه السيارة الكبيرة واسعة كالقارب، كان علىٰ المقعد الخلفي وسائد وثيرة كالكنبة. عيونه مغلقة، إنه نعسان. الساعة في تابلوه. السيارة ٢ : ٤٨ صباحا. كانت ماما جالسة في المقعد الأمامي بجوار جالغر. آخر شيء سمعه زاك هو جالغر يقول بتكلف: «هذه أسعد ليلة في حياتي الضائعة، حتىٰ الآن».



في آخر شتاء ١٩٦٣ سيتحركون من خليج ميلين هيد إلىٰ واترتاون، نيويورك. إنها طريقة جديدة لشعار. واصل السير، ليس في أتوبيس جريهاوند، ولا بطريقة. فقير ويائس. ولكن في سيارة شيت جالغر الكاديلاك موديل ١٩٥٩ الفارهة والتي تسير كالقارب.

«لنا الآن حياة جديدة. حياة كريمة، لا يطاردنا فيها أحد»

خلال عطلة نهاية الأسبوع القصيرة تم ترتيب أن هازل تعمل كبائعة في محلات زيمرمان اخوان للبيانو والأدوات الموسيقية في واترتاون، وزاك يأخذ دروس البيانو مع شقيق زيمرمان الأكبر الذي لا يعطي دروسا إلا للتلاميذ الجادين.

ستدفع هازل إيجارها في الشقة. فلن يدفع لها سيد جالغر الإيجار. راتبها في زيمرمان ثلاثة أضعاف راتبها في مسرح قصر الخليج كمرشدة سينما تقريبا.

«حينما تبيعين موسيقىٰ، فأنت تبيعين الجمال. من الآن فصاعدا سأبيع الجمال»

من الآن فصاعدا سيأخذ زاك دروس بيانو بجد، سوف يكون لزاك بيانو خاص به، فزاك طفل ولكن ليس بطفل.

«هل معك يا مدام هازل شهادة ميلاد ابنك؟»

«نعم، معي»

هذه المستندات مطلوبة لمنطقة المدرسة العامة في واترتاون لكل التلاميذ الذين يرغبون في الالتحاق بالمدرسة.



شهادة زاك توضح أن الاسم زكريا أوجست جونز، مواليد ٢٩ نوفمبر ١٩٥٦، في بورت أوريسكاني، نيويورك. والداه؛ هازل جونز، وويليام جونز (متوفي).

هذه الشهادة تبدو جديدة، نسخة، أين الأصل؟ شرحت هازل للمدير أن الأصل احترقت في حريق منزل منذ مدة طويلة.

من المثير أن ينام زاك ساكنا في سريره وهو يستمع لحديث الكبار مع بعضهما البعض في غرفة أخرىٰ في الشقة الجديدة.

من خلال الحائط كان يسمعهما، أصابعه تعزف علىٰ المفاتيح المتخيلة، لأن الحديث نوع من الموسيقىٰ. حتىٰ لو أن الكلمات مشوشة، فإن نغمتها وإيقاعها يظهران.

- ولكن ألا ترغبين في ذلك يا هازل؟
- نعم ولكن...
- ماذا؟
- لن يكون مقبولا لو...
- قرف، ليس هذا بسبب... الناس سيتكلمون.
- إذاً من سيهتم إذا تكلم الناس؟ أي ناس؟ لا أحد يعرفك هنا.
- في زيمرمان يعرفونني، ويعرفونك.
- إذاً ماذا؟
- وهناك زاك.
- دعينا نسأله إذن.



- لا، أرجوك لا توقظه، سيتضايق، أنت تعرف كم هو معجب بك.
- حسنا، وأنا معجب به، هو ولد رائع.
- لقد لاقىٰ متاعب كثيرة في حياته، إنه لا يزال ابن ستة أعوام...
- تريدين أن تتزوجي يا هازل؟ أليس كذلك؟
- أنا... لا أدري... لا أفكر...
- تزوجيني إذن، يا له من جحيم!

كانت هازل تكره أن يستمع الطفل خلسة لها، فلا شأن للطفل بحياة الأم الخاصة.

قال لها وهو يزغدها بكوعه بشكل مؤلم: «ولكن لماذا يا ماما؟ ألست تحبين السيد جالغر؟»

فقالت هازل بتهرب: «نعم أحب السيد جالغر»

فقال لها الطفل بأسلوب استعطافي يضايق من طفل شرس:

«إنه لطيف يا ماما، أليس كذلك؟» فقالت له: «الإنسان يبدو لطيفا قبل أن تعيش معه»

حاولت أن تتكلم بهدوء، فليس من طبع هازل أن تنفعل ردا علىٰ انفعالات الآخرين.

«حبيبي، ليس هذا من شأنك، إن ما بيني وبين السيد جالغر ليس من شأنك، إنك لا زلت طفلا»



الآن أصبح زاك غاضبا بجد، يصرخ بغضب إنه ليس بطفل، ليس طفلا غبيا.

تفلّت من ذراعيها، وابتعد عنها وهو يرتعش. لم يضربها بقبضته، ولكنه اندفع بعيدا، وكأنه يكرهها، وأسرع لغرفته وقفل الباب علىٰ نفسه وهي تنظر إليه في حيرة وهي ترتجف.

مرت نوبة الغضب، وخرج زاك من غرفته واتجه للبيانو.

تشعر هازل بالراحة وهي تسمع ابنها يعزف علىٰ البيانو، وهي تعد العشاء لهما الاثنين.



«عندما تبيع الموسيقىٰ، فأنت تبيع الجمال»

لم تفخر هازل قط في حياتها بعمل من أعمالها، ولم تبتسم من فخر. فقط ينبعث ضوء من وجهها الصغير، كشعاع بسيط من ضوء الشمس انعكس علىٰ مرآة. وترمش عيونها بسرعة يغلبها نداوة الامتنان، أو عدم التصديق.

إن محلات زيمرمان للبيانو وأدوات الموسيقىٰ من المؤسسات القديمة في واترتاون، تم تأسيسه في منزل من المنازل البنية الأنيقة وإن كان متهدما، في الشارع الرئيسي الجنوبي، في منطقة نصفها سكني ونصفها الآخر تجاري ومتميزة بالمباني السكنية القديمة والمحلات الصغيرة.

تعمل في محلات زيمرمان امرأتان أخريان متوسطتا العمر، كبيرتا الصدر، ماجي، وإيفيلين، ماجي موظفة استقبال لزيمرمان الذي يدير المحلات، وأحيانا كمحاسبة. أما إيفيلين فمتخصصة في بيع كتب دروس الموسيقىٰ والنوت الموسيقية، المعروفة لكل مدرسي الموسيقىٰ في المدارس العامة في المقاطعة. ترتدي كل من ماجي وإيفيلين فساتين سوداء لا شكل لها، وغالبا سويتر. سترة ملقىٰ علىٰ الكتفين كان مستخدمها إدجار زيمرمان يندهش حين يلاحظ أن الزبون لما يدخل، لو رجل، يلقي نظرة سريعة علىٰ ايفلين، وماجي إذا كانت في البيع، وهازل، ثم يتجه مباشرة لهازل التي تقف بحيوية وابتسامة، واستعداد.

«هاللو، سيدي، أي أوامر؟»



أحيانا تقف هازل خلف الطاولة في وضع قلق مفاجئ. كما لو أنها سمعت شخصا ما يناديها، أو لمحت من خلال الفاترينة رجلا أزعجها. كان إدجار زيمرمان يسألها إذا شعر أنه لا يتطفل:

«هازل، هل هناك شيء ما خطأ؟» ولكن في الحال كانت هازل تفيق من غفلتها:

«لا، لا شيء يا سيد زيمرمان، أشعر بالتفاهة، أعتقد ذلك» الملاحظة سخيفة، مما جعلت زيمرمان ينفجر بالضحك.

شيء مضحك! فلهازل موهبة نادرة جعلت رجلا عجوزا قلبه مهموم يضحك مثل ولد مراهق.

إدجار زيمرمان أيضا عازف بيانو، ليس موهوبا مثل أخيه هانز، ولكن قدير.

في عرضه البيانو للزبائن كان يعزف مقطوعات لشوبرت، شوبان، وافتتاحية رخمانوف من سلم دو ميجور، وسوناتا بيتهوفن. سوناتا ضوء القمر... تحدث إدجار عن سماعه لرخمانوف، من زمن طويل، في قاعة كارنجي في ماناهاتن، ليلة لا تنسىٰ.

قالت له هازل بابتسامتها الساذجة: «لم تسمع بيتهوفن، أعتقد ذلك؟ في ألمانيا، منذ عمر طويل»

ضحك إدجار: «طبعا يا هازل، بيتهوفن مات عام ١٨٢٧»

- ومتىٰ جاءت عائلتك لهذا البلد يا سيد ادجار؟ من وقت طويل علىٰ ما أعتقد.
- نعم، من وقت طويل.



- قبل الحرب؟
- من قبل الحربين.
- وهل لك أقارب في ألمانيا يا سيد ادجار، أعتقد أنك من ألمانيا أليس كذلك؟
- نعم، شتوتجارت، مدينة جميلة، أو كانت.
- كانت؟
- شتوتجارت دمرت في الحرب.
- أي حرب؟

رأىٰ إدجار زيمرمان هازل تبتسم له، علىٰ نحو خفيف. إنها طالبة مربكة، تلف خصلات من شعرها علىٰ أصبعها. تومض أظافرها بطلائها الأحمر اللامع. قال لها: «يوما من الأيام ستزورين ألمانيا يا هازل، فهناك معالم لا تزول»

«أوه أتمنىٰ ذلك جدا يا سيد إدجار، ربما في شهر العسل الخاص بي»

ضحكا معا. شعر إدجار زيمرمان بأن الأرض تميد تحته:

«قيل الكثير عن ألمانيا والألمان يا هازل، مبالغات بشعة، الأمريكان دائما يصنعون تماثيل من المبالغات نحن الألمان وصمونا بنفس التهمة»

«أي تهمة يا سيد زيمرمان؟»

اقترب ادجار نحو هازل، وهو يداعب لحيته بتوتر، الاثنان بمفردهما في غرفة عرض البيانو الوثيرة:



«وصمة يهوذا، ماذا غير ذلك؟»

يضحك إدجار بمرارة. شعر فجأة بلامبالاة. هذه البنت الساذجة الجذابة تنظر إليه بعينيها الواسعتين: «يهوذا؟»

«اليهود»

بدا على هازل الارتباك. فقد ندم إدجار لأنه ذكر الموضوع. فليس هذا هو الموضوع الذي يستحق كل هذا الإسراف في الانفعالات. أردف بصوت خافت:

«ماذا ادعوا، كيف هؤلاء اليهود أرادوا أن يسمموا العالم ضدنا، ادعاؤهم معسكرات الموت»

لا تزال هازل حائرة: «ماذا تعني ضدنا يا سيد زيمرمان، هل تعني النازيين؟»

«ليس النازيين يا هازل، الألمان»

لقد كان منفعلا جدا في تلك اللحظة، قلبه يدق في صدره كبندول الإيقاع المضطرب. ولكن هناك ماجي في مدخل الباب، تنادي إدجار للتليفون.

رأت هازل جالغر، في محل الموسيقى، وهو ينظر إليها بعاطفة مرتبكة، وغطرسة مثيرة، وهي معبأة بالقلق، والاشمئزاز... إنه يريدهم أن يفهموا أنني عشيقته، أنه يمتلك هازل. إنها حفل تنكر، ومع ذلك لم تنته منها.

«تعال اعزف لنا يا شيستر! لازم تعزف»

«لازم؟»



تشعر هازل وهي في بهو فندق واترتاون بلاتسا وهي تمسك بيد زاك وتسير بجانب شيت جالغر أن عيون الرجال تتساقط عليها ومع ذلك كانت متأكدة أنه لا يعرفها أحد، أو يعرف نيلز تجنور ويخبره بها. إنها متأكدة من ذلك.

تقدم المرأة جسدها للرجل فيمتلكه وكأنه ملكه.

متىٰ أحبك الرجل فسيكرهك، في الوقت المناسب.

لن يغفر لك الرجل أبدا نقطة ضعفه في حبه لك.



يجعلني سعيدا، ما الذي يجعلني سعيدا، أواه يا ربي.

لا يدري ماذا يعزف، لم يطلب أحد من قبل من عازف الجاز على بيانو مثل هذا الطلب. تحركت أصابعه على المفاتيح. لقد أصبحت حياته في الكبر آلية، إرادته صارت لا مبالية. الفراغ الروحي انفتح أمامه كبئر سحيقة، لا يستطيع النظر فيها.

رغم ذلك لن تخذله أصابعه. شيت جالغر أمام البيانو. هذه الكلاسيكية «سأوفر كل حبي لك»

واتضح أن ذلك فعلا هكذا.

أيام الصيف في جزيرة جريندستون، أسعد ذكريات جالغر. كان يريد أن يُرى الطفل وأمه كيف تكون السعادة، حتى ولو في المكان الذي تذهب إليه. اشترى جالغر البيت في واترتاون بشكل مندفع، ولكن هازل لم تكن مستعدة.

«ماما؟ هل نحن؟»

الجو في الصباح، صباح يوم السبت المقدس، مشرق وقاصف بالرياح. كانت هازل جونز تمشط شعرها بطريقة مرهقة وسريعة متجاهلة الطفل القلق الذي يمسك ويشد فيها.

وجه شاحب وباهت يظهر في المرآة وكأنه يتحرك تحت الماء. ليس وجهها بل وجه هازل جونز الصغير يبتسم بتحد

.أنت بأي حق أنت هنا؟!



إنها أمضت الليلة الأولىٰ في جزيرة جريندستون، وستمضي الثانية وعندها ستكون قد قررت.

«ماما؟ ماما!»

لقد نام الطفل نوما متقطعا الليلة الماضية، لقد سمعته في غرفته المجاورة لغرفتها وهو يئن أثناء نومه، وأخيرا بدأ يصر بأسنانه الريح! الريح اللعينة جعلته مستيقظا، أثارت أعصابه. ليست ريح بسيطة بل رياح تهب من نهر سانت لورنس عبر بحيرة أونتاريو نحو الغرب ملتبسة بأصوات البشر والصرخات المكتومة والضحك.

أنت! أنت! بدا وكأن الضحكات تتهمها، استيقظت هازل مبكرا في سريرها غير المألوف لا تدري أين أولا ولا أي وقت في حياتها كان هذا وقلبها يدق بعنف في صدرها بينما الأصوات صارت أعلىٰ جرأة وسخرية

«أنت يا أيتها الفتاة اليهودية، ليس لك حق في وجودك هنا»

إنها لم تسمع هذه الأصوات من سنين، ولم تفكر في مثل هذه الأفكار من سنين. نهضت من علىٰ السرير مرتجفة وفزعة. إنه جالغر الذي أحضرها لهنا، جالغر، صديقها.

تستطيع أن ترىٰ من نوافذ الغرفة جزيرة أخرىٰ تسبح علىٰ النهر البراق. فيما وراء ذلك الشط الكندي المزدحم في كانانوك.

كان مسكن أسرة جالغر أكبر مما بدا من رؤيته من ممر السيارة، لقد تم بناؤه علىٰ تل، من ثلاثة طوابق وملحق حديث



بـالمبنىٰ الرئيسـة عـن طريـق شـرفة كبيـرة مرصـوفة بـالبلاط، لقـد غطاها الجليد الآن.

عندما رأت هازل المبنىٰ راحت تضحك، مسكن موسمي بمثل هذا الحجم!

للحظـات قصـيرة رأت ممتلكـات جـالغر كمـا يمكــن أن يراهـا جـاكوب شـوارتز. اختلطـت ضـحكات الرجـل السـاخرة بضـحكات هازل جونز.

لقـد قـال جـالغر، وهـو يشـعر بـالحرج، إن المبنـىٰ واسـع، ولكنـه حقيقـةً موسـمي. معظـم المسـكن مغلـق بسـبب الشـتاء، ويسـتخدمون غرفا محدودة.

فهمت هازل أن جالغر خجل من ثراء أسرته الفاحش، ومن عدم جدواها. فهو لا يستطيع أن يساعد نفسه. لـيس لديـه معرفـة واضـحة بنفسه. كراهيته لأبيه كراهية مقدسة، فليس لهـا أن تتـدخل. وإن كانـت لا تؤمن بهذه الكراهية كلية.

لقد أحضرها جالغر لهذه الغرفة، إنها جناح وليست غرفة، ملحق بها غرفة أطفال، لزاك. أنها غرفتـه الخاصـة، كمـا أخبرهـا بـذلك، وهـي قريبة من الصالة، سـلوكه يمكـن احتـواؤه ظاهريـا، فهـو نشـيط للغايـة. للمـرة الأولـىٰ يخـرج الثلاثـة معـا، إنـه المضـيف وهـو المسئول عـن ترفيههما. بينمـا يضـع شـنطة هـازل الخفيفـة علـىٰ سـريرها ـ الناموسـية النحاسـي القـديم والمفـروش باللحـاف الأزرق الخفيـف والفـراش الأرجـواني ـ وقـف يحـدق فيهـا للحظـات طويلـة يلهـث بأنفاسـه مـن



السلم، ووجهه احمّر وبدت عليه الحيرة، ورأته هازل يستجمع كل الكلمات الممكنة التي سيقولها لتترك فيها انطباعا طيبا:

«هازل، أتمنىٰ أن تشعري بالراحة هنا»

راح زاك يزغد في فخذ هازل: «مامي! هل سنتزوج السيد جالغر؟»

استيقظت من غفلتها بجفاء. مشطت شعرها بضربات مشط سريعة أمام مرآة معلقة علىٰ خطاف.

بدأ زاك يناديها طوال الليل مامي وليس ماما، وأحيانا يكون المقطع بتذمر: مام.

بالغريزة عرف الطفل أن الكلام هو موسيقىٰ للأذن، وأن الكلام يمكن أن يصبح موسيقىٰ مزعجة للأذن.

استيقظ ونزل من علىٰ السرير لمدة أربعين دقيقة تقريبا، قلق. لربما غير مرتاح لمكانه الجديد. أخذ يدفع في فخذ هازل ويزغده بطريقة مؤلمة قد تسبب كدمات لو لم تمنعه فضربته بمزاح بظهر فرشاة الشعر ولكن أصر:

- هل نحن يا مامي، هل نحن سنتزوج السيد جالغر؟
- زاك، اخفض من صوتك.
- مامي، أنا قلت...
- لا.

وأمسكت هازل بكتفيه، لا لتهزها، بل ليثبت. ولكن جسمه الصغير اهتز من الغضب.



«مامي، هل سنتزوج السيد جالغر؟»

«لا لا لا، لا مامي»

لقد كرهت هازل أن يتظاهر زاك بأنه طفل، فهي تعلم أنه في داخله كبير مثل هازل.

«ما هذا يا زاك، نتزوج، فقط رجل وامرأة يتزوجان، فلا تقل نتزوج، لا تكن سخيفا»

«لست سخيفا، أنت السخيفة»

يستيقظ زاك دائما مبكرا في الصباح. يتدرب نصف ساعة على البيانو قبل الذهاب للمدرسة. بعد المدرسة يتدرب ساعتين أو أكثر حسب صعوبة الدروس. فلو أنه أخطأ في نغمة أعاد قطعة الموسيقى كلها من الأول. ليس هناك تقريبا أي شذوذ عن هذه الطقوس، ولم تتدخل هازل في ذلك. فلو قالت له يتوقف أو يذهب لينام، دخل في نوبة غضب؛ أعصابه مشدودة، تراه هازل وهو يشد كتفيه وهو جالس أمام البيانو وكأنه داخل معركة. إنها فخورة به، وقلقة عليه. ترتاح حين تسمعه يعزف البيانو، لأنها تدرك في تلك اللحظات أن هازل جونز وابنها زكريا موجودان في المكان الصحيح. لقد هربا من الموت في بيت طريق المزرعة الفقيرة من أجل هذا.

«ويمكنك أن تلعب بيانو يا عزيزي كما شئت»

وكما وعد جالغر هناك بيانو في الطابق الأرضي من السكن. في الليلة الماضية عزف جالغر قبل العشاء مجموعة من المقطوعات الأمريكية الصاخبة، وجلس بجواره زاك، في البداية بدا زاك مكسوفا



ولكن شجعه جالغر فراحا يعزفان معا بأربع أيدي نغمات متوافقة، ثم عزفا بعد ذلك قطعا موسيقية من كتاب زاك الخاص بالتدريبات على البيانو حتىٰ راح زاك يضحك بشدة.

البيانو صغير لونه أسود معتم، ليس في حالة جيدة جدا، لم يعزف عليه أحد من مدة، لدرجة أن بعض المفاتيح التصقت ببعضها الأرض.

قال جالغر: «الموسيقىٰ يمكن أن تكون متعة يا بني، ليست دائما جادة، في النهاية البيانو هو البيانو» فنظر زاك مستغربا من هذه الملاحظة.



لقد أحب هازل جونز! وكان يحترمها. باستثناء ضحكتها السريعة المبتهجة التي تثير أعصابه أحيانا. عندما يظهر في عيونها الفزع، ويصر فمها على الابتسام. طريقتها في الكلام بظرف وخفة ومع المراوغة أيضا كممثلة تلقي ما عليها من أسطر في دورها وهي لا تؤمن به.

تفهم جالغر أنها مجروحة على نحو ما، أيا كان والد الطفل فهو جرحها بالتأكيد. تضطرب أمام المواقف التي تتعرض لها. من العجيب أنها لم ترتدِ قفازا أبيض، برنيطة صغيرة، وحذاء بكعب عال عند مجيئها لجريندستون. تعهد جالغر بأن يكتسب ثقتها، والتي تبدأ بتصويبها: فخيال هازل كان فطريا. فأقاربه في ألباني يمكنهم أن يستشفوا أشياء من خلال تصرفها المرتبك. وكان جالغر يخشى من التوقعات.

أبوه! وإن كان جالغر لم يعد يفكر في أبيه بالنسبة لهازل. لقد كان مصرا ألا يتقابلا.

ومع ذلك، من السخرية أن يقع في حب امرأة، في روحها جالغر أكثر من جالغر نفسه. أكثر تقليدية في معتقداتها، وأخلاقها. ما هو الصح، ما هو الخطأ، ما المناسب، ما غير المناسب. تختبئ هازل من الوكيل ماكليستر لأنها تكره أنه يعتقد أنها عشيقة جالغر جاءت تقضي معه فترة عيد الفصح.

لم يعتد جالغر على نساء بقدرة الاحتمال هذه. ففي جزيرة جريندستون، نادرا ما تتمشى نساء لهذا الجبل. تضحك زوجته السابقة



إذا ما اقترح أن يتمشيا لهذا الجبل، في ذوبان الجليد. لقد رافق جالغر نساء في البارات، والصالونات، والمطاعم الفخمة خافتة الإضاءة. فالنساء علىٰ الأقل مرغوبات جنسيا. وها هي هازل ترتدي سترة ضد الريح، وقبعة رجالي، وتصعد تلال منحدرة دون أن تنظر خلفها نظرة واحدة.

النساء اللاتي كن يجئن لجريندستون ضيوفا، كن يتمشين مع جالغر في ممتلكاته، وكن لا يتركنه، كن يستمعن لحديثه.

أخيرا توقفت هازل عن السير، انتظرت جالغر، فالممر انتهىٰ لأدغال متعرجة في غابات الصنوبر، عندما وصل لها، كان يلهث، ويتصبب عرقا، أشارت لريش متناثر علىٰ الأرض، بين الأشواك الصنوبرية، والغدائر الثلجية، يتراوح طول الريشة بين بوصتين أو ثلاث، الريش رمادي، ناعم، حسن الشكل، وكان هناك بقايا عظام، وبعض اللحم الملتصق بها. تعرف جالغر علىٰ الريش، فهو بقايا من فرائس البوم.

«البوم في كل مكان في هذه الغابات. لقد سمعنا الكثير من نعيق البوم الليلة الماضية»

«والبوم يقتل الطيور الأخرىٰ، الصغيرة؟»

السؤال ساذجا، وهازل تسأل بألم، وامتعاض.

«حسنا يا عزيزتي، فالبوم طيور جارحة، يجب أن تفترس شيئا آخر»

«الطيور الجارحة ليس لها خيار، أليس كذلك؟»



«ما لم ترد أن تموت جوعا، وفي النهاية البوم تشيخ، وتتضور جوعا، فيأتي من يفترسها»

يتكلم جالغر بنبرة خفيفة ليغير نبرة هازل المأساوية. فمثلها مثل معظم النساء يبالغن في مأساة موت الصغار.

تشبث بذراعها، وشدها للرجوع من التل، صارت هازل في الحال سهلة الانقياد.

«بوم مينيرفا تحوم في الظلمة فقط»

تتكلم هازل بصوت غريب، غامض، متسائل، وكأن هناك صوتا آخر يتحدث من داخلها... فقال جالغر: «إنها ملاحظة سوداوية، إنها ملاحظة من الفيلسوف الألماني هيجل، ويبدو أنها تعني أن الحكمة لا تأتينا إلا متأخرا»

«بوم مينيرفا، ولكن من مينيرفا؟»

«آلهة الحكمة عند الرومان»

«نحن نتكلم عن سنين سحيقة مضت؟»

«سحيقة جدا يا هازل»

تركا منطقة الغابات الكثيفة، ونزلا من التل في اتجاه السكن.

الكابينة مصنوعة من خشب معامل ضد الرطوبة، مبنية علىٰ غدير صغير. شعر جالغر، وهو واقف مع هازل داخل الكابينة، بدفقة عاطفية قوية، لقد انتابته رغبة قوية في الحديث معها، ليعبر عن نفسه، فهو لم يتحدث معها حديثا جادا منذ أن أتوا للجزيرة، والأيام تجري...



وهنا بدأ جالغر يتكلم مع هازل بطريقة عفوية وراح يقول لها كيف في صباه أقام معسكرا وحده في الغابات في ليال الصيف، ليس مع إخوته، بل وحده، فهو معه خيمة صغيرة مزودة بناموسية. لم تكن كبائن الضيوف قد بنيت بعد، فتخيفه ضوضاء الغابة، فلا ينام تقريبا، وإن كانت التجربة لها تأثيرها القوي. يتساءل لو أن التجارب المؤثرة لا تأتي إلا إذا كنت وحيدا وخائفا.

لم تسأل هازل جالغر عن أسرته. وإن ودت أن تسأله عن زواجه السابق. ليست هازل من النوعية التي تسأل أسئلة شخصية. ولكن الآن راحت تسأله ببلادة غريبة إذا كان شارك في الحرب؟

«الحرب؟ أوه يا هازل»

تجربة جالغر في الحرب لم تكن بالشيء الذي يتحدث عنه بسهولة. فأسلوبه الساخر المتبختر والمتهور لا يتوافق معها...

- هل رأيت معسكرات الموت؟
- لا.
- لم تر معسكرات الموت؟
- كنت في شمال إيطاليا، أتعالج في المستشفى.
- أهناك معسكرات موت في ايطاليا؟

السؤال عويص، لم يعلم شيئا عن معسكرات الموت النازية سيئة السمعة.

الآن بدأت هازل تنظر إليه بتعطش. راح جالغر يشم سخونة جسم المرأة، جديدة بالنسبة له، مثيرة جدا.



- لماذا أراد النازيون قتل كثيرا من البشر؟ ماذا يعني هذا؟ بعض الناس غير نظاف، غير أنقياء، حياة لا تستحق الحياة؟
- يا هازل، النازيون مجانين، فلا يهم ماذا يقصدون.
- النازيون مجانين؟

مرة أخرى بدا السؤال عويصا. هازل تتكلم بحماس غريب، كما لو أن جالغر قال شيئا مضحكا.

- بالتأكيد كانوا مجانين، وقتلة.
- ولكن اليهود عندما جاءوا أمريكا، طالبت السفن التي تقلهم بالعودة، لقد رفضهم الأمريكان كما رفضهم النازيون.
- لا يا هازل، لا أعتقد هذا.
- لا تعتقد ذلك؟
- لا، لا أعتقد. لا يا هازل، أنا متأكد أن الوضع لم يكن هكذا، ماذا تقولين؟
- ليس هكذا؟
- إنها قضايا سياسية، لو تكلمنا عن نفس الشيء.

تكلم جالغر بتردد، لأنه ليس متأكدا من معلوماته، فالموضوع غامض عليه، وبغيضا.

أراد أن يتذكر، ولكنه لم يستطع. أنفاسه تتلاحق وكأنه لم يزل يصعد التلال.



«رست السفن في ميناء نيويورك، ولكن موظفو الهجرة لم يسمحوا للاجئين بالدخول، وبينهم أطفال، ورُضّع، ومئات من الناس، أعادوهم لأوروبا لكي يموتوا»

سألها جالغر:

«ولكن لماذا أعادوهم لأوروبا؟ لماذا؟ إذا كان بمقدورهم أن يذهبوا لأي مكان آخر؟ أي مكان آخر»

«ليس في مقدورهم أن يذهبوا لأي مكان آخر سوىٰ أوروبا لكي يموتوا»

«أعتقد أن بعض اللاجئين ذهبوا لهاييتي، ولأمريكا الجنوبية، بل وإلىٰ سنغافورة»

تكلم جالغر وهو غير متأكد، فمعلوماته غير كافية، فبالكاد يتذكر ما قرأه في الصحف.

قال جالغر متلعثما: «كثير من هذا كان مبالغا فيه، يا هازل، ولم يكن اليهود فقط الذين ماتوا بل كثير من الألمان. وملايين ماتوا تحت حكم ستالين. أطفال، ورضع، نعم. إنها فورات من الجنون مثل البراكين التي ترمي بالحمم... لو أنك جندي، لعرفت كم يكون التاريخ محايدا»

«إذا أنت تدافع عنهم، كثير من هذا مبالغ فيه»

نظر جالغر لهازل بحيرة، فكان لديه شعور خفي معارض للمرأة، تقريبا خوفا منها، لقد أصبحت فجأة مختلفة تماما. لمس كتفها «هازل؟ ما هذا؟»



«لقد قلت. كثير من هذا كان مبالغا فيه»

راحت هازل تضحك وهي ترمش بعينيها بسرعة، غير ناظرة له.

«آسف يا هازل، لقد قلت أشياء سخيفة، هل فقدت أحدا في الحرب؟»

«لا، لم أفقد أحدا في الحرب»

تكلمت هازل بخشونة، وسخرية بشكل ما. تقدم جالغر واحتضنها، فقاومته للحظة، ثم بدأت تذوب، وراحت تضم نفسها له وهي ترتعد. فسرت في جالغر موجة من الرغبة: «هازل، حبيبتي هازل، عزيزتي»

طوق دالغر وجه هازل بين يديه وراح يقبلها، وراحت هازل تفاجئ جالغر باستجابتها له برغبة شديدة. إنهما يقفان في بقعة شمس ساطعة، ينامان على مرتبة، يتبادلان القبلات، يعتصران، يتلامسان ويتحسسان ملابسهما. لكم نصح جالغر نفسه. إنها ليست عذراء، هازل جونز ليست عذراء، لن أقوى نفسي على عذراء، هازل معها طفل، وكانت قبل ذلك مع رجل هازل الآن تذهله، تمسكه بقوة، تشده نحوها، تجعله داخلها، وفمها يعتصر فمه مصا، فقد وعيه تقريبا، في هذيان رغبة حيوانية. لقد شعر وهو بين ذراعي امرأة أنه يتلاشى، لم يكن ذلك طبيعيا، لم يمر به في تجاربه، حتى أيام المراهقة عندما بدأت حياته الجنسية. والآن، ليس هو القوي بين الاثنين، ليست إرادته الأقوى، إنه استسلم للمرأة، ليس هذه المرة فقط، بل هذه كانت المرة الأولى لمرات عديدة.



التصق شعرها المندىٰ بالعرق علىٰ وجهه، وعلىٰ فمه، كان صدرها أكبر وأثقل مما تخيل، لا لبن فيه، حلماتها كبيرة كثمرة التوت. لم يخطر في باله شعر جسدها الغامق الوفير، الأسود الشائك في منطقة العانة، والممتد حتىٰ سرتها. لم يمر علىٰ باله قوة ساقيها، وركبتيها التي اعتصرته عصرا. أحبك، أحبك، أحبك. وقفت الكلمة في حلقه وهو يفرغ نفسه بكل استسلام فيها.



لقد انتشرت الشمس بإيقاع سريع حتىٰ ملأت السماء.

وأراد الرجل أن يعرف، العاشق يريد أن يعرف، يريد أن يمتص آخر قطرة منك، يريد أن يعرف. الرجل له الحق. العاشق له الحق، طالما ذهب جسدك لهذه السبيل، فله الحق. أخبريه بما لا يمكن الإخبار به. العاشق يريد أن تخبريه بما لا يمكن أن يُخبر به. فبعض الأسرار تبوح بنفسها. آن الأوان، رغم أنها تعرف أنها ليست زوجته ولن تكون.

تلك الفتاة التي كانت في مدرستي الثانوية في ميلبرن، تعرف ميلبرن؟ فقال لا، لا أعتقد، فقالت عندما كنا في الثالثة عشرة، أبوها قتل أمها، وأخاها الأكبر، وقتلها هي، ثم نفسه، ببندقية مزدوجة الماسورة، في غرفة النوم، في خلف المنزل الذي عاشوا فيه، وهو منزل مضحك من الحجر كالأكواخ التي في كتب الأطفال باستثناء أنه قديم، مخسوف في الأرض. فقال. يا الله، ما هذا الشيء المروع، وتململ مضطربا. أهي صديقتك المقربة؟ وبسرعة ردت هازل. لا. ثم. نعم، ولكن لم تكن صديقة مقربة حين كنا في المدرسة الابتدائية. فسألها جالغر. لماذا فعل الأب هذا الفعل الشنيع؟ هل كان مجنونا؟ يائسا؟ فقيرا؟ كان سؤالا ساذجا من رجل دخل الحرب وأصيب فيها، فابتسمت هازل، ليست ابتسامة هازل جونز المشرقة، ولكن ابتسامة غضب. أهي تلك أسباب القتل في نظر عائلتك ونظرك، أهي الأسباب المعترف بها. ولكن جالغر أساء فهم ارتعاشة هازل بأنها انفعال فراح يضمها بشدة ليشد من أزرها كما كان يفعل دائما. أوه، هازل! حبيبتي،



أكيد كان ذلك مرعبا لك ولكل من يعرفهم. فابتسمت هازل. صحيح؟ فلم يخطر في بالها فكرة الرعب. راحت تقول. لقد كان حفار القبور.

كما لو أن ذلك يفسر القضية. فتقبل جالغر هذا التفسير.

عرفت هازل أن ذلك لم يكن بالحقيقة. فلا أحد في ميلبرن يرىٰ أن ذلك مرعبا. فحفار القبور قتل أسرته، وقتل نفسه.

لأنه قتلهم جميعا فلم يتبقَ أحد ليحزن.

لماذا؟ لأن الأوان قد آن.

ستأتي هازل جونز لتعيش في المنزل الذي من الطوب الأحمر والذي اشتراه لها جالغر في واترتاون، وبالطبع ستحضر ابنها معها... من أجل الطفل قبلت ذلك، وسيظلان مادام الوقت سيظل ملائما مادام هو لا يزال يصدق أنه يحبها ولأنها بنت حفار القبور فليس لها الحق في أن تفوّت هذه الفرصة. وبعد سنتين لما يُمنح الطفل منحة دراسية للبيانو في أكاديمية بورتمان للموسيقىٰ، سيشتري جالغر منزلا في سيراكوس وسينتقلان فيه.

وبعد أن يسمع تلك الكلمات التي تمتمت بها لا يستطيع أن يسمع تماما في ذلك الوقت. الموسيقىٰ الشيء الوحيد.

«لماذا الحمقىٰ يقعون في الحب...»

ولماذا لا بحق الجحيم؟ عمره اثنان وأربعون سنة، ولم يكن أفضل، ولا أوسم، ولا أصغر من ذلك.

سمع جالغر نفسه وهو يقول لهازل بنبرة حزينة:



«ألست تحبينني يا هازل؟ فأنا أحبك»

صوته منكسر، يجعل من نفسه أضحوكة. لقد بدا وكأنه يتهمها. اقتربت هازل بين ذراعيه، كما لو أنها لا تستطيع الكلام. كان ذلك دليلا على حبها له، أليس كذلك؟ وراحت تلتصق به، كما التصقت به في السرير، لم تعد تقوم بأي مقاومة الآن، عاطفتها جياشة، تطوقه بذراعيها، فمها مفتوح على فمه. إنه يحس بدقات قلبها، يشعر بحرارة جسمها. خطر على باله أنها تتذكر رجلا آخر، الرجل الذي جرحها.

أحس جالغر أنه يريد أن يهشم عظامها بين ذراعيه، كما فعل الرجل الآخر. أن يكسرها وهو يحكم قبضته على جسمها، دافنا وجهه المتوهج في رقبتها، في خصلة من شعرها الأحمر المتألق. دفن وجهه المكتئب، وراح يبكي. بدموع لا تحتاج لدليل.

«إنك تمتلكين حظا من السعادة يا هازل جونز، ولقد جلبت السعادة في حياتي»

فعلا، فقد صار جالغر شابا مرة أخرى، عاشقا متوقدا، مجنونا بالحب! الرجل الذي قال ذات مرة إن قلبه انكمش كحبة الزبيب، وانضمر، صار قلبه الآن قويا وفي قبضة الرجل، مفعما بالأمل والدم. بدا وجهه أصغر، وصار يبتسم دائما.

ما بين يوم وليلة، تحول جالغر من رجل لا ينام قبل الرابعة صباحا ولا يستيقظ قبل الظهر في اليوم التالي وهو يترنح، إلى رجل ينام الساعة الحادية عشرة مساء ويستيقظ الساعة السابعة صباحا.



هل هي متزوجة؟ غير مطلقة؟ هل هي تكذب علي؟ هل هذا هو الأمر؟

تأتيه هذه الأفكار تلقائيا، حتىٰ حين ممارسة الجنس، وحين يجلسان بجنب بعضهما بعض، وأيديهما متشابكة، وهما يسمعان زاك وهو يعزف البيانو.

أخبرت هازل جالغر أنها لم تتزوج من قبل نهائيا، وقالت ذلك بألم، ولم يكن جالغر إلا ليصدقها.

إنه يريد أن يتبنىٰ الطفل، وقال ذلك أكثر من مرة، قبل أن يفوت الأوان. وما كان ليتبنىٰ الطفل قبل أن يتزوج أمه.

في داخله يكره أن يتزوج. يكره أن تتدخل الدولة في شئون المواطنين. كان يتفق تماما مع ماركس، اعتاد أن يقتبس من ماركس ليلهب غضب تاديوس، لأن ماركس في الغالب علىٰ حق، الشعوب تبيع نفسها من أجل الأجور، والرأسماليون أبناء الساقطات يشقون حناجركم، ويجمعون دماءكم في قوارير، ويبيعونها لمن يدفع أكثر في المزاد. الدين أفيون الشعوب، وما الكنائس إلا مضاربات للرأسماليين غرضها جمع الأموال، تأمين السلطة، والنفوذ. بالطبع القوانين تحابي الأغنياء والسلطة، فلا همّ للسلطة إلا إنجاب سلطة أكثر كما أن الرأسمال يرغب في إنجاب رأسمال أكبر. بالطبع العالم الصناعي مقذوف للجنون، عالم الحرب العالمية الأولىٰ، عالم الحرب العالمية الثانية، دائما شبح عالم الحرب، الصراع غير المنتهي للأمم. لقد فهمها ماركس فهما صحيحا، وفهم فرويد الباقي فهما صحيحا:



فالمدنية هي الثمن الذي دفعته لتسلم رقبتك من القطع، ولكنه كان ثمنا باهظا.

وصل اشمئزاز جالغر قمته سنة ١٩٤٨ مع السياسات القميئة التي صاحبت قانون تافت هارتلي الذي مرره الكونجرس ذو الغالبية من الجمهوريين رغم فيتو ترومان. وحملة ديوي الساخرة من ترومان والتي أيدها تاديوس بمبلغ كبير من المال، ليس كلها تهم المحفوظات العامة.

لقد اختلف مع تاديوس وترك آردموور بارك، لن يصير علىٰ وفاق مع الرجل الكبير بعد الآن.

أن تعتبر هازل جونز نفسها لا تستحق أسرة جالغر، ولا جالغر نفسه! فهذا سخف. فمن هوانه سمع نفسه يترجىٰ:

«هازل، أنا يمكنني أن أتبنىٰ زاك، لو أننا تزوجنا، ألا ترين أنها فكرة جيدة؟»

بسرعة قبلت هازل جالغر وقالت ممكن في يوم ما. تدريجيا أصبح جالغر والد الطفل. والغريب أنه لم يسأل من والد الطفل الحقيقي.

تباطأ جالغر عند باب غرفة الموسيقىٰ حتىٰ يتوقف الطفل عن العزف فيصفق جالغر:

«برافو زاك، رائع»

ولكن الطفل استمر في العزف.



في أحد أيام سبتمبر من عام ١٩٦٨ بعد الظهر، إذ يقضون نهاية الأسبوع في بافاللو، نيويورك، ضيوفا على كونسرفتوار ديلاوير للموسيقى، سار هازل وزاك ببطء عن الآخرين، متعمدين أن يكونا معا منفردين. وفي المقدمة جالغر ومعرفته الجديد يتحدثان بحميمية. لقد جعل من نفسه راعيا لزكريا جونز ومديرا. ومن الغريب أن المفهوم تضمن أن جالغر زوج أم زكريا جونز، وحتى عندما كانت تُنادي. مدام جالغر. فهذا الافتراض يُقبل في صمت.

كان زكريا جونز العازف الصغير المتميز محور الحديث بين الكبار كما لو أنه موضوع الغداء، ولكن العازف الصغير نفسه ليس مهتما.

أثناء الغداء في غرفة السفرة في الكونسرفتوار نظر زاك لهازل جونز، لكي يراها وهي تراقبه. فتبتسم له، وتغمز له دون أن يراها أحد، فخجل زاك ونظر بعيدا. إنهما ليسا في حاجة للكلام، فما بينهما لا يحتاج لكلمات.

سيؤدي زكريا جونز أول ظهور له في فبراير عام ١٩٦٩ مع أوركسترا معهد ديلاوير الذين من بينهم قلة من الموسيقيين أقل من ١٨ سنة.

فبراير ١٩٦٩! أثناء العشاء ضحكت هازل ضحكة قلقة وهي تقول إنه لوقت طويل، ماذا لو أن شيئا ما حدث...

نظر الآخرون لهازل باستغراب، عرف زاك أن ماما أخطأت في الكلام. تدخل جالغر قائلا إن فبراير ١٩٦٩ سيأتي سريعا بما فيه



الكفاية، زاك سيعزف كونشرتو، وإن لم يحدده بعد، سيعمل معه قائد الأوركسترا بتركيز بالطبع.

إحساس بالتوتر، وشعور بالفزع، ماذا لو أنه فشل...

بعد مسابقة روشستر للعازفين الصغر، بعد أن نال زاك استحسانا من المحكمين، انهالت الكاميرات لتصوير المكرمين وعائلاتهم، همس أحد المصورين لهازل:

«إنك جميلة جدا بلون شعرك وبلون بشرتك، يجب أن ترتدي لونا أسود»

فضحكت هازل باحتقار: «الأسود للحداد، وأنا لست في حداد»

اقترب الرجل الذي في ثياب العمل من هازل وتحدث معها، فلاحظ زاك أن أمه استدارت للرجل ونظرت له وهي مشدوهة:

«معذرة مدام»

راحت هازل تلقائيا تبحث عن زاك الذي كان يقف بعيدا، لقد رأىٰ الرعب في عينيها، رأىٰ عينيها المذعورتين من خلال قناع هازل جونز.

«أنا فقط أتساءل إذا كنت تعرفينني؟ هل أنا شبه أي شخص تعرفينه؟ أنا اسمي جوس شوارت»



هزت هازل رأسها بسرعة: «لا». أرادت أن تحافظ علىٰ رباطة جأشها، وهي تبتسم بأدب. كان جالغر والباقون يسيرون في المقدمة فلم يلحظوا شيئا، واستمروا في اتجاه الفندق.

«أنا آسف مدام لأني أزعجتك، ولكنك تبدين مألوفة بالنسبة لي. هل عشت في ميلبرن، مدينة صغيرة علىٰ بعد مائة ميل تقريبا شرقا، علىٰ قناة إيري؟ في المدرسة هناك... »

أخذت هازل تحدق فيه بلا أي تعبير علىٰ وجهها، بدأ الرجل يتلعثم، واحمرّ وجهه الأجرب، حاول أن يبتسم، كحيوان يبتسم كاشفا عن أسنانه المصفرة غير المنتظمة، وقف زاك بجوار أمه ليحميها، ولكن الرجل لم يلق له بالا. قالت هازل بأسلوب أسيف أنها لا تعرفه، ولا تعرف ميلبرن.

«كنت مريضا يا مدام، ولكن الآن تعافيت...»

أمسكت هازل بذراع زاك، يمكنهما أن يهربا، ضرب الرجل علىٰ فمه، شاعرا بالحرج. ومع ذلك لم يدعهما يذهبان، تبعهما لعدة ياردات، مرتبكا وهو يتلعثم:

«إنك تشبهين شخصا أعرفه يا مدام، أنا وأخي هارشيل وأختي ريبيكا كنا نعيش في ميلبرن... أنا رحلت عام ١٩٤٩»

فأجابت هازل باقتضاب، ومن فوق كتفها: «أستاذ، لا أعتقد ذلك، لا»

عادة لا تستخدم هازل كلمة أستاذ، وليس بهذه النبرة، أسلوبها صلف ومزدري، لا يشبه هازل جونز.



«زاك، تعال هنا»

أطاعها زاك كطفل، مندهشا، لم يستطع أن يفهم المصادفة.

- من هذا الرجل يا ماما؟ إنه يعرفك
- لا، لا يعرفني.
- وأنت تعرفينه، أرىٰ ذلك.
- لا.
- أنت عشت في ميلبرن يا ماما، أنت قلت ذلك.

ردت عليه هازل وهي تضم شفتيها ودون أن تنظر إليه:

«لا، شلالات تشاتاقوا، أنت مولود في شلالات تشاتاقوا».

توقفت وهي تلهث، أرادت أن تقول أكثر ولكنها لم تستطع. يمكن لزاك أن يتهكم من أمه الآن. فبعد الصدفة التي حدثت في الحديقة، شعر أنه مثار بشكل غريب وأنه قلق.

بعد حفل الموسيقىٰ صار حرا لكي يقول ما يريد، ويفعل ما يحب، غضب من هازل في بذلتها البيج والقبعة القش:

«أنت تعرفين ذلك الرجل، يا لك من كاذبة»

وراح يزغد هازل، أراد أن يؤلمها. لماذا لم ترفع صوتها؟ لماذا لم تشخط في الرجل؟ لماذا لم تصرخ؟

«كان ينظر إليك بشدة، رأيت ذلك»

استعادت هازل هيبتها، وأمسكت بحافة القبعة، وهي تسرع عبر الطريق، أراد زاك أن يسرع وراءها وأن يضربها بقبضة يده. أراد أن



يستخدم قبضته في الضرب، إنه أراد تقريبا أن يكسر يديه، هاتـان اللتـان هما قيّمتان بالنسبة للكبار.

أشرق وجه جالغر عندما جاءت هازل له، كأنما أضاء نورا.

«لو أنه فشل»

لكنه لم يفشل، في الأمسية الماضية، لقد عزف شـوبرت امبرمبتـو التي أعجبت بها هازل، وقطعة أخرىٰ جديـدة وإن كـان أقـل رضـا بهـا، قطعة شوبان الحالمة. الإيقاع بطـيء، والعـازف مكشـوف وكأنـه عـار، فـلا موسـيقىٰ يخبئهـا في داخلـه، ومـا زال الجمهـور يعجـب بـه. معهـد الكونسـرفتوار بمـا فيـه مدرسـه الجديـد معجبـون بـه. موجـات مـن الاستحسان، تنصب في أذنه كالشلالات.

«ياه!»

ياه! ياه! ياه! مذهول في ذلك الوقت، فلم يدر أيـن هـو، كالسباح الذي أوشك أن يغـرق، فبـذل كـل مـا لديـه لكـي ينقـذ نفسـه وفي سـبيل ذلك لفت انتباه الجمهور ليزدادوا إعجابا. لقد أخبره جالغر بأن يكـون فخورا بنفسه، وراحت هازل التـي تبـدو أقـل تعبيـرا عـن عواطفهـا مـن جالغر علىٰ الملأ تضغط علىٰ يديه لتريه كم هي سعيدة بـه، لقـد عـزف بشكل جميل.

«أترىٰ؟ لقد قلت لك»

وهكذا لم يهزم زاك، ولم يفشل، ويمكنه أن يتدرب أكثر وأكثر.

توقعات كثيرة منتظرة منه، توقعـات كبيـرة عليـه أن يحققهـا. لقـد شعر بثقـل المسئولية المريـرة، لقـد ضـاق بهـا ذرعـا، لقـد سـمع هـانز زيمرمان يقول لأخيه إدجار:



«أصغر تلميذ عندي نال أكبر إعجاب... »

ومع ذلك فهو سعيد، مغتبط. في ذلك الوقت يمكنه أن يصعد لجناحهما فندق بارك لاين وينام نوما عميقا.

صعدت الأم والابن للدور التاسع في الفندق، في أعلىٰ الفندق خلعت هازل القبعة القش الأنيقة ورمتها في اتجاه السرير، وقبل أن تستقر في مكان ما استدارت وذهبت.، لا هي ولا زاك تكلم أحدهما مع الآخر منذ أن صرخ فيها زاك.



مضت أسابيع حتىٰ أجرت المكالمة، بل في الحقيقة لقد مضت سنين.

لقد أدارت رقم التليفون والذي صار فجأة مألوفا لها مرة أخرىٰ، وأعدت نفسها أن تسمع الجانب الآخر، وقد تخيلت منزل ميلتزر الذي لم تتخيله ولم تتأمله من سنين، وفي تلك اللحظة، من الجانب الآخر لباب منزل ميلتزر رأت البيت الريفي المجاور له، والذي عاشت فيه وربت فيه طفلها في نشوة من الفرحة والسعادة التي أدركت أنها السعادة الحقيقية الوحيدة في حياتها، وبدأت ترتعش، ولم تستطع أن تتكلم بسهولة ووضوح كما تمنت هازل جونز.

«مدام ميلتزر، ربما لا تتذكرينني، لقد سكنت في المنزل الريفي بجوارك، منذ ثمانية أعوام، مع رجل يدعىٰ نيلزز تجنور، كنت تراعين ابني لما كنت أعمل في المصنع...»

تحشرج صوت هازل، لقد سمعت في الطرف الآخر صوتا يأخذ نفسا عميقا:

«هل أنت ريبيكا، ريبيكا تجنور» كان الصوت لمدام ميلتزر بلا شك. وإن تغير، صار شائخا، وضعيفا.

«آلو، آلو، هل أنت ريبيكا؟»

حاولت هازل أن تتكلم، واستطاعت أخيرا أن تتكلم بصوت متقطع، وقلبها يدق بقوة، والرنين الذي في أذنها، والذي بدأت تعتاد عليه، وتكاد لا تسمعه أثناء النهار، بدأ يتداخل مع صوت نبضاتها.



«ريبيكا! يا ربي، لقد اعتقدت أنك مت أنت ونيلي، اعتقدت أنه قتلك أنت والطفل طوال هذه المدة»

بدا وكأن مدام ميلتزر أوشكت أن تصيح، ولكن هازل ترجتها ألا تفعل.

لم تكن إدنا ميلتزر أمها، فمن السخف أن تخلط بين المرأتين. من السخف أن تظل ترتعش هكذا وهي تمسك بسماعة التليفون. فعلىٰ الأقل إنها تتكلم في منزل خال، فكل من جالغر وزاك في الخارج.

- أين السيد ميلتزر؟
- لقد مات يا ريبيكا.
- مات؟
- وتجنور مات في أتيكا يا ريبيكا، هذا ما سمعه هووي، لقد تم ترحيله لجريمة اعتداء ونهب، لا أدري معنىٰ نهب، أعتقد أنها ابتزاز.

كانت هازل جالسة، في بقعة مشمسة، ومدام ميلتزر تسألها عن أحوال نيلي فأخبرتها بأنه بخير، وأنه بلغ إحدىٰ عشرة سنة، وأنه يلعب البيانو، فأبدت مدام ميلتزر بهجتها وسعادتها لسماعها هذا، فهي وهووي والجيران الآخرون في. فور كورنرز. اعتقدوا طوال هذه السنين أن تجنور قتلهما، ولربما رمىٰ بجثتيهما في القنال حيث لن يكتشفهما أحد. وأن تجنور نفسه مات، وأن أحدا ما قتله، ففي أتيكا يقتلون بعضهم البعض.



«هازل جونز» اسم غريب جاء من الماضي.

اتكأ الرجل العجوز الجالس علىٰ الكرسي المتحرك للأمام لكي يمسك يدي هازل جونز بيديه، ليست تدري ماذا يعني بكلمة. غريب... إن عيون الرجل اللامعة الواسعة حدقت في هازل بحدة، لقد كانت متوترة فهي لا تعرف إذا كان تاديوس جالغر معجبا بها بشكل ساذج أم أنه يمثل هذا الإعجاب للمرأة الشابة الزائرة.

لا تجعلي أبي يؤثر عليك يا هازل! فبمجرد أن نجلس معه سيبذل كل جهده ليسيطر علينا كعنكبوت في قلب بيته العنكبوتي. يا لها من صدمة عندما قابلت والد جالغر! لم يكن الرجل مرهونا بالكرسي المتحرك فحسب، ولكن يبدو أن جسده مشوه، فجسده كلحم حيوان رخوي داخل بنطلون سباحة مقلم وقميص أبيض محكم علي جسمه للغاية، بينما أفخاذه ومؤخرته محشورة بين ذراعي الكرسي بشدة...

إنه عاجز! تاديوس جالغر! رمقت هازل جالغر الذي كان في صحبتها بنظرة استغراب. كيف مثل جالغر يشكو لهازل لمدة سنوات من أبيه بينما أبوه عاجز علىٰ كرسي متحرك.

راح تاديوس يغمز لهازل وكأنهما تبادلا نكتة، لم يستطع جالغر أن يفهمها.

«تبدين مندهشة يا عزيزتي، أعتذر لأنني رحبت بك بملابس غير رسمية ولكني كنت أسبح، أو أحاول أن أسبح، كل يوم في نفس



التوقيت. وأقر بأني أشعر بالضيق في الملابس الرسمية في سني هذه التي بلغت سبعين سنة عما كنت عليه أيام الشباب»

ينتظر تاديوس زواره في الخارج، بجوار حمام السباحة، الذي في الحجم الأوليمبي، والذي جوانبه بلون أزرق مخضر والتي قصد منها، كما أخبر جالغر هازل بهذا، أن تضاهي لون مياه البحر المتوسط، ومع ذلك فالحمام يبعث رائحة الكبريت الدافئ كما لو أن مياهه راكدة. ارتعدت هازل لهذا الاقتراح، فهي لا تتصور أن تسبح في هذه المياه. قال جالغر بسرعة: «لا أعتقد هذا يا أبي، ليس لدينا الوقت الكافي، إننا... »

فرد عليه تاديوس بكبرياء وإن بدت فظة:

«لقد قلت لي إنك ستذهب لمهرجان الموسيقىٰ في فيرمونت»

ثم ضغط زرا علىٰ الكرسي وتحرك للأمام.

حدث ذلك في أغسطس ١٩٧٠، عندما أحضر جالغر هازل أخيرا لتزور أباه المسن في آردموور بارك... لقد دعاهم تاديوس في العام الماضي أكثر من مرة ملمحا أن صحته في تدهور... يعلم أن ابن هازل زكريا جونز واحد من الموسيقيين الصغار في مهرجان الموسيقىٰ في فيرمونت في مانشستر، وفيرمونت علىٰ بعد أقل من ساعة من آردموور بارك.

وافق جالغر مترددا: «ربما أبي مريض بالفعل، ربما نادم، وربما أنا مجنون»



وراح يمزح بطريقته اللاذعة المعتادة، ولكن هازل كانت تدرك أنه كان مذعورا من الزيارة. لقد حذر هازل من أن يجرجرها أبوه في حوار شخصي، ولا سيما إجابات عن أسئلة لا تريد أن تجيب عنها. «أعرف أنه فضولي، وسوف يستجوبك، إنه صحفي قديم، إنه يراوغ ويلف ويدور حتىٰ يطعن في الوقت المناسب وفي المكان المناسب»

أخذت هازل تضحك، من المؤكد جالغر يبالغ!

«استحالة أن أبالغ في تاديوس جالغر»

زاك الآن في الثالثة عشرة، فلم يعد طفلا. صار طويلا ونحيلا، وبشرته تميل للشحوب والبياض الغامق. أنفه وعيونه يلفتون النظر، وحواجبه بارزة. عندما يكون بين الكبار يشعر بالخجل، والتحفظ.

«إنه ليس طفلا في عزفه يا هازل، إنه معجزة»

تفكر هازل بالطبع إنه ليس طفلا! فليس هناك وقت.

بالوقت الذي وصلا فيه للمنزل، المنزل الذي قضىٰ فيه صباه، يشعر جالغر أنه متوتر جدا. إنه قصر نورمانديٰ فرنسي تم بناؤه في ثمانينات القرن التاسع عشر، وتم ترميمه وتجديده في عشرينات القرن العشرين، لم تقل هازل لجالغر إنه جميل. فأسقفه الأردوازية لامعة وغامقة، والنحت الذي في الواجهة ذكرها بالأضرحة التي في مقابر فورست لاون في بافللو.

ركن جالغر السيارة في دوران من ممر علىٰ شكل حدوة الحصان، كما لو أن مراهقا ينويٰ أن يبقىٰ لفترة قصيرة جدا. ألقىٰ



بالسيجارة في الممر المرصوف بالحصىٰ. وبشجاعة رجل مُبتلَىٰ راح يضرب بطنه بقبضة يده، فقد أصيب بمغص في الفترة الأخيرة.

«اسمعي يا هازل، لن نبقىٰ حتىٰ العشاء، فلنا ترتيبات أخرىٰ في فيرمونت».

جلس هناك تاديوس جالغر علىٰ كرسيه المتحرك ببنطلونه القصير المقلم، وقميصه الأبيض.

رجل كبير عاجز بدين! ومع ذلك ألقت عيون الرجل نظرة جائعة علىٰ هازل جونز. علىٰ مقربة من حمام السباحة جلسوا تعمهم البهجة! قدم خادم يرتدي جاكت أبيض المشروبات، وراح تاديوس يتكلم، ويتكلم. تاديوس عنده الكثير ليقوله. عرفت هازل من جالغر أن تاديوس ما زال يشرف علىٰ مجموعة جالغر الإعلامية، رغم أنه تقاعد رسميا. فإنه يستيقظ في الفجر، ويظل علىٰ التليفون طوال اليوم. وبرغم ذلك راح يتكلم وكأنه لم يتكلم مع أحد لوقت طويل.

أخذت أصابع تاديوس بأظافرها السميكة التي تشبه الحوافر تنتفض وتتلوىٰ علىٰ دواسة الكرسي المتحرك بشكل تقززت منه هازل التي لم تمنع نفسها من النظر إليها.

هذا الرجل المسن، ملياردير، خيّر وموقّر. تذكرت هازل الصور الفوتوغرافية التي رأتها علىٰ الجدار في مسكن جزيرة جريندستون، تاديوس الأصغر سنا، والأقل شناعة بين أصدقائه السياسيين.



رأت هازل شبح الموت يحوم على وجهه رأته كما رأت ظل الصقر يحوم سريعا فوقها وفوق جالغر حينما صعدا التلال المنحدرة في جزيرة جريندستون.

في البداية تعاطفت هازل مع جالغر. وكما شعرت بخوف الأمومة على زاك حينما كان صبيا صغيرا تحت رحمة الصبيان الكبار، فإنها متبرمة، لماذا لا يواجه جالغر أباه المستأسد عليه، لماذا لم يتحدث بطبيعته العادية؟ فأين روح المداعبة، والساخرة لشيت جالغر؟

لقد شعرت هازل بموجات من الاحتقار لعشيقها، مسلوب الإرادة أمام هذا العاجز المتغطرس، تمنت هازل لو لم تشهد إذلال جالغر. ولكنها تعرف أنها بناء على ترتيب تاديوس، الشاهدة الحاسمة.

فيما وراء الشرفة الشاسعة وحمام السباحة ببلاطاته الزرقاء المخضرة، هناك مساحات خضراء ممتدة. لم تكن كل المساحات الخضراء مشذبة، كانت هناك رقع من النباتات المرتفعة كالسمار وعشب البرك. هناك على التل أعلى بركة مياه متلألئة تقف مجموعة من أشجار البتولا تنعكس عليها الشمس فتبدو كأنها خطوط بيضاء رأسية. تتذكر هازل كيف في جفاف الصيف الماضي كانت أشجار البتولا هشة وضعيفة. وكأنها في حلم يقظة رأت الأشجار تتقصف، وتسقط. متى تحطم الجمال لا يعود كما كان.

«أليس لك أسرة يا هازل جونز؟»



أحست هازل بنبرة توكيد علىٰ كلمة. لك، شعرت بأنها في خطر، تاديوس يريد أن يستجوبها.

«معي ابني، ومعي...»

وتلاشت كلمات هازل، لقد شعرت فجأة بالخجل، مترددة أن تنطق باسم شيت جالغر في وجود أبيه.

«لكن أنت وشيستر غير متزوجين. إيه؟»

السؤال فظ وصريح، أحست هازل بعدم الراحة. وكان بجوارها جالغر منطويا ولا مباليا، وراح يرفع كأسه ويشرب، فقالت :

«لا، سيد جالغر، لسنا متزوجين»

«رغم أنكما معا ست سنوات، سبع، يا لها من حرية فكر، إنه لشيء عجيب، أفترض أنه شيء بوهيمي، فنحن الآن سنة ١٩٧٠، إذا ما سار أي شيء...»

وتوقف تاديوس فجأة وراح يشرب بشغف وهو علىٰ كرسيه. ظهر أن ما بين فخذيه متضخم كتضخم الغدة الدرقية تحت البنطلون المقلم المحبوك عليه. كانت فروة رأسه المحمرّة تندىٰ تحت خصلات شعره الفضية الخفيفة.

«رغم أن ابني لم يعد صغيرا، أليس كذلك؟»

وبدأ تاديوس يشكو أكثر من حكومة الولايات المتحدة، من المخربين في الحزب الجمهوري، والخونة الواضحين في الحزب الديموقراطي، فشل أمريكا في حرب فيتنام، ومعالجة الإعلام لقضايا



المثقفين اليساريين في البلد، والتي شرع فيها السيناتور مكارثى ولكن تم إعاقته، وضربه أعداؤه حتى الموت. وتساءل تاديوس:

«لماذا اليهود أكثر الناس معارضة لحرب فيتنام؟ لماذا معظم اليهود، عندما تقترب منهم، شيوعيون، أو متعاطفون مع الشيوعية! حتى اليهود الرأسماليون، قلوبهم شيوعية! لماذا هذا في حين أن ستالين يمقت اليهود، الروس يكرهون اليهود، هناك مذابح في روسيا أكثر من ألمانيا، وبولندا، والمجر مجتمعة؟ هذا ما تجده في مدينة نيويورك، ولوس أنجلس، في الإذاعة، والصحف، أكثر الصحف انتشارا ومصداقية يهوديورك تايمز، التي أسست منظمة دعم الأفارقة الأمريكيين، أراهن أنهم ليسوا أفارقة أمريكيين، بل ناس صفوة... ولماذا؟ أسألك يا هازل جونز لماذا؟»

كانت هازل تسمع هذه الكلمات المفرقعة وغير المترابطة، من خلال الرنين المتصاعد في أذنها المختلط بصرخات زيز الحتاديو

«إنه يعرفني، يعرف من أنا»

«ولكن كيف؟»

أخيرا أفاق جالغر من سباته:

- أهذا فعلا يا تاديوس؟ كل اليهود؟ لا يختلفون مع بعضهم البعض على أي شيء؟ أبدا؟
- في مواجهة عدوهم تراهم جبهة واحدة. الناس الصفوة.
- عدوهم، من عدو اليهود؟ النازيون؟ أعداء السامية؟ أنت؟



تراجع تـاديوس علىٰ كرسيه بنظـرة غاضـبة، فقـد أسـيء فهمـه، وأخذ موقفه الفلسفي النزيه علىٰ محمل شخصي!

«قصدت أن أقـول غيـر اليهـود، إنهـم يسـموننا الجـوييم، يـا بنـي، ليس أعداء في حد ذاتهم بل كما يعتبرنا اليهود، تعرف ما أعني تماما، يا بني، إنها مسألة حقيقة تاريخية»

كان تاديوس يتكلم بصيغة رسمية الآن، كما لـو أن استدراجه في البداية كان متصنعا.

لكن جالغر وقف فجأة، وغمغم أنه سيدخل المنزل لبضع دقائق، وذهب.

يا للعنة! لا تطيق هـازل أن تُترك وحدها مع والـد جالغر، هـذا الرجل العجوز البغيض وهو علىٰ كرسي متحرك ينظر إليها. قالت بلهجة هازل جونز اللاهثة والتبريرية وعيونها الواسعة مثبتة علىٰ تلك العيون التي تحدق فيها:

- لـم يقصـد شـيت أن يكـون فظـا يـا سـيد جـالغر، إنـه انفعال...
- أوه، إنه كذلك، بالنسبة لشيت، وبالنسبة لي أيضا.
- إنه قال إنه لم يأت لهذا المنزل منذ...
- أعلم منذ متىٰ يا مدام جونز، لا تحتاجين أن تخبريني عن أخبار عائلتي.

انصدمت هازل، وأحست بمدىٰ الصدود. كأنما وقف تـاديوس وبصق علىٰ فستانها الأصفر الأورغندي.



«الله يلعنك، يا وقح»

«يا منحط، يا شبه ميت سأحطمك»

لقد كانت هازل جونز ابنة حفار القبور، وليست غير ذلك ولو مرة. قالت بغمغمة خجلي لكي تسترضىٰ عدوها: «آسفة يا سيد جالغر»

إن صور تاديوس جالغر الفوتوغرافية التي رأتها هازل في مسكن جزيرة جريندستون كانت لرجل ربعة قوىٰ ليس بالبدين، برأس كبير، وسلوك ينم عن اعتزاز بالنفس. الآن جسمه يبدو منتفخا، فكاه تبدوان كفكين اعتادتا علىٰ الطحن. تتساءل هازل أي نزوة تلك التي ألهمته أن يرتدي اليوم مثل هذه الثياب التي تكشف وتجسم معظم جسمه.

«يا للقرف! إنه مهتاج عاطفيا، إنه بدين متبلد. ستعلمين يا هازل جونز إن شيستر جالغر رجل غير موثوق فيه، أنا الذي سأعتذر عنه، يا مدام هازل، سياساته المجنونة! موسيقاه الجاز الزنجية! لقد فشل في الموسيقىٰ الجادة، فذهب للجاز الزنجي! الموسيقىٰ المهجنة. فشل في زواجه فراح لنساء يندم عليهن. إنه صفيق. إنه مهووس بالكذب.

أمسكت هازل بكاس مبتلة بالعرق في يدها وتتكلم باعتدال وبنوع من الدلال:

«ابنك مهووس بالمبالغة، يا سيد جالغر، وأنت لا؟»

حملق تاديوس، وتحركت فكاه، كأنما لمست هازل ركبته، فابتهج:



«ناديني بتاديوس، يا هازل جونز، وأفضل لو تاد، أما سيد جالغر فهذه للخدم وغيرهم من العمال»

عندما لم تجب هازل، مال تاديوس نحوها بإيحاء جنسي:

«ستناديني بتاد؟ إنها تشبه شيت، أليس كذلك؟ لم يعد أحد يناديني بتاد، فأصدقائي القدامى تفرقوا وتساقطوا، في كل موسم مثلما تتساقط الأوراق.

فتحركت شفاه هازل بدون إحساس: «تاد»

«حسنا جدا، قصدت أن أناديك هازل من الآن وللأبد»

فحرك تاديوس الكرسي لقرب هازل، فشمت رائحة الرجل العجوز، رائحة الجو الراكد في البيت الحجري القديم. إلا أن هنا شيئا جميلا تحت ثياب، كولونيا تاديوس جالغر. هذا الرجل الوحش، المتكوم على كرسيه، لقد حلق بأناقة هذا الصباح، ووضع الكولونيا.

متوترة لاقترابه، رأت وجه تاديوس الأصغر المبتهج في هذا الوجه الأكبر.

- هازل جونز، اسم جميل، يبعث على الحنين، من الذي أعطاك هذا الاسم يا عزيزتي؟
- لا أدري!
- لا تدرين؟ كيف هذا يا هازل؟
- لم أعرف والديّ قط، لقد ماتا وأنا طفلة.
- ماتا! وأين حدث ذلك يا هازل؟



لقد حذرها جالغر، إن أباه سوف يستدرجها، ومع ذلك لم تستطع هازل.

- لا أدري يا سيد جالغر فهذا حدث من مدة طويلة
- ليس كل هذا البعد، فأنت لا زلت شابة»

فهزت هازل رأسها: «شابة؟»

«هازل جونز، اسم ليس غريبا عني، هل تعرفين لماذا عزيزتي؟»

فقالت بخفة: «أكيد هناك أكثر من هازل جونز كثير يا سيد جالغر»

«حسنا، أنا أزعجتك، إني أشعر بالذنب، ويبدو أني ضايقت ابني الراديكالي المفرط في الحساسية الذي هرب وتركنا».

بحركة نشيطة وسريعة ضغط تاديوس على زر في الكرسي، ودون أن تسمع هازل أي صوت، في غضون ثوان ظهر خادم بقميص أبيض وبنطلون سباحة.

«هل تسبحين معي يا هازل؟ إنهم يطلبون مني أن أسبح يوميا لكي أحافظ على صحتي من أي تدهور، على أية حال هذه هي الحياة»

لم تقبل هازل الدعوة، ولكن ذهبت لتساعد بيبي لتنزيل تاديوس للحمام، في الطرف المنخفض، هذه هي طبيعتها، تلقائية، وودودة.

«شكرا عزيزتي، إني أكره المياه حتى أنزل فيها»

راح تاديوس يضحك، ويغمز لهازل التي كانت تتابع تحركه في المياه التي صارت عكرة حاليا وهي تتمشى على حافة الحمام.



«هازل، لازم تأتين لتسبحي، فالمياه جميلة جدا، أليست كذلك يا بيبي؟»

«بالطبع سيد جي»

أخذت هازل تضحك، وفستانها الجميل تطرطش عليه الماء، وخشيت أن يتأثر بالكلور.

فقال لها: «حقيقي يا هازل» وهو يرفع رأسه بيده خارج الماء، بشموخ غريب:

«يجب أن تنزلي، لقد جئت من مسافة بعيدة «كانت حركات ذراعيه قوية أما حركت ساقيه الضامرتين ضعيفة.

«ليس معي لباس سباحة يا سيد جالغر».

«تاد! لقد وعدتني بذلك»

«تاد»

غدا تاديوس منتعشا ونشطا من جديد.

«هناك ثياب بحر نسائية كثيرة في غرف الغيارات، اذهبي ولتري ما يناسبك»

وقفت هازل متحيرة، تقريبا أغريت أن تغيظ عاشقها.

وكما لو أنه قرأ أفكارها قال تاديوس بخبث:

«لازم يا عزيزتي! لكي توبخي ابني هذا الجبان، الذي هرب خائفا من أبيه العاجز والذي يعاني من سرطان البروستاتا، واشتباه



سرطان في القولون. ولكن هل ترين أن تاديوس ينسحب مهزوما؟ بالطبع لا.

وراحت تخلع صندلها عالي الكعبين بعناية لتتمشىٰ حافية القدمين علىٰ حافي الحمام. ساقاها طويلتان، لدنتان، بهما عضلات، كانت ساقاها ناعمتين وحليقتين.

إنه هوس من هازل أن تحلق ساقيها، وفخذيها، وتحت إبطيها، وأي مكان آخر في جسمها ينم عن أي شعر غامق خشن نابت. كانت هازل تأكل قليلا لتحافظ علىٰ رشاقة جسدها، ولتظل بأنوثتها وجمالها. في حمام السباحة بذل تاديوس جالغر جهده ليراقبها.

«من المؤكد أن تسبحي يا عزيزتي، ولن يحدث لك شيئا في وجودي ووجود بيبي»

فضحكت هازل: «لا أعتقد ذلك يا تاد، أشكرك»

«وإن أعطيت لك هدية يا عزيزتي؟ ألف دولار!»

قصد تاديوس أن يتحدث بلهجة تفهمها هازل علىٰ أنها مزحة، وليست إساءة. ولكن الكلمات خرجت فجة، وعيونه زجاجية اللمعان تحدق فيها.

فهزت هازل رأسها: «لا»

فصاح تاديوس بسرور: «خمسة آلاف!»

يا لمزاح الرجل المسن غير المؤذي! لقد وقع في غرام هازل. راح يتقافز مرحا في الماء فجعل بيبي يضحك. راح يجدف،



ويطرطش، ويرفس ويلهث كفيل صغير. تصرفاته مضحكة، ومؤثرة مما جعلت هازل تضحك.

«عزيزتي، لا تتركيني، من فضلك»

اعتقد أن هازل سترحل بينما راحت تستكشف مجموعة من الورد المتسلق علىٰ حائط مطلىٰ باللون الكريمىٰ.

بعد عدة دقائق طلب تاديوس من بيبي أن يسحبه خارج الحمام.

«هازل جونز! لابد أن أعترف لك أنني سمعت عنك بعض الأشياء، والتي أثبتت ألا صحة لأي منها» تكلم تاديوس بصوت منخفض وهو ينظر نحو المنزل تحسب أن يظهر ابنه. مد يده ليضم يدها، ارتجفت هازل ولكن لم تسحب يدها.

«كما ترين يا هازل إنه لم يسامحني علىٰ أشياء حدثت منذ أمد بعيد، أعتقد أنه أخبرك بذلك؟» ونظر تاديوس إلىٰ هازل في أسىٰ: «لا، لم يخبرني»

«لم يخبرك!»

«إطلاقا»

كان تاديوس وهازل بمفردهما في التراس، لقد غادر كل من بيبي والخادم الذي في الجاكت الأبيض. كان تاديوس ملفوفا في الروب وهو يتنهد، ولا يزال ينظر نحو المنزل بترقب.

- ليس لك عائلة يا هازل؟ لا أحد علىٰ قيد الحياة؟»
- لا أحد.



- فقط ابنك؟
- فقط ابني.
- هل أنت وشيت متزوجان سرا، يا عزيزتي؟
- لا
- ولكن لم لا، لمَ لم تتزوجا؟

ابتسمت هازل وهي تراوغ. لا، لا، ولم تقل شيئا.

أحست هازل بمدىٰ نبضات قلبه في جسمه الضخم. تاديوس مسرور في داخله وإن أحس بالتعب فجأة. لقد أرهقته الشقلبة في الماء، وأرهقه المجهود. أرادت هازل ان تستدعىٰ أحد الخدم ليساعده ولكن تاديوس استمر ممسكا بيدها مترجيا.

«ألن تنتظري حتىٰ العشاء يا هازل؟ ألن تكلمي شيت ليغير رأيه؟»

فأجابت هازل بلطف بالنفي، وأنها لا تظن ذلك.

«إذن سأفتقدك يا هازل، سأظل أتذكرك أنت وزكريا جونز. سأستمع للصبي وهو يعزف بيانو حينما أستطيع. لن أفرض نفسي عليكما فجأة، فهذا سيكون خطأ تكنيكيا. ابني رجل حساس يا هازل، وهو غيور جدا، في أي وقت يغضبك شيستر تعالىٰ إليّ، هل توعدينني بذلك؟»

فأجابت هازل بلطف بالإيجاب، ووعدته بذلك. بحركة مفاجأة، رفع تاديوس يد هازل لشفتيه، ليُقبلها. ستظل هازل لمدة طويلة تشعر بأثر هذه القبلة علىٰ جلدها بإحساس لطيف غير متوقع.



كان الجرح هكذا، لم يستطع جالغر أن يتكلم عنه مبدئيا.

عادا إلىٰ فيرمونت في صمت، لا زال وجه جالغر شاحبا وباهتا بشكل غير طبيعي. خمنت هازل أنه شعر بالتعب في معدته، فذهب وتقيأ في أحد الحمامات، وأنه يشعر بالخجل.

كانت تفترض أنها تحبه بالفعل. في ضعف الرجل الذي ملأها باشمئزاز فظيع كطائر مجنون وقع في شرك أحبته.

لقد مر باقي اليوم كحلم. كل منهما يدرك الآخر ولكن بدون كلام أو لمس. تناولا العشاء مع زاك وآخرين. ولكن جالغر أفاق بسرعة من زيارته لآردموور بارك. لقد عاد لطبيعته تماما أثناء العشاء وأثناء الاستقبال الذي عقب الحفل السيمفوني في ذلك المساء.

فقط أثناء وجوده هو وهازل في غرفتهما في الفندق قال جالغر أخيرا لهازل بصوت حنون ليشعر هازل أنه مبسوط وليس غاضبا:

«لقد كنت أنت وأبي علىٰ أحسن حال معا، أليس كذلك؟ لقد سمعتكما تتضاحكان معا. رأيته من نافذة غرفتي القديمة وهو يلهث ويقفز ويطرطش في حمام السباحة كالفيل المضطرب. لقد كنتما ثنائيا: الجميلة والوحش»

كان جالغر في الحمام ينظف أسنانه بالفرشاة، والباب مواربا. وبصق في الحوض بفجاجة. عرفت هازل دون أن ترىٰ أنه يكشّر بوجهه في المرآة، فقالت له:

«إنه حزين يا شيت، رجل مسن يعيش وحيدا، خائفا من الموت»

فرد جالغر بفتور وإن أراد أن يبدو هادئا:



- أهو كذلك؟
- يبدو أنه متألم من الحياة.
- تقصدين مني.
- هل أنت كل الحياة بالنسبة لأبيك يا شيت؟

كان الرد غير متوقع. وتظاهر جالغر أنه لم يسمع ما قالته هازل جونز.

رمت هازل فيما بعد بذراعيها حول صدره، وضمته لها، وقالت بنبرة منغمة وخفيضة: «ابني رجل يعتز بنفسه، أتمنىٰ لو يخليني أحبه»

ضحكة جالغر مقلقة.

- إياك أن تقولي إن أبي قال ذلك يا هازل.
- نعم قال.
- قرف، هازل لا تقولي ذلك.
- إنه مصاب بسرطان البروستاتا، وسرطان القولون يا شيت.
- منذ متىٰ؟
- لم يرد أنك تعرف ذلك، لقد اعتبر ذلك نكتة.
- أنا لا أصدق أي شيء يقوله يا هازل، إنه مهرج تماما.
- برغم ذلك يحبك، هو يشعر بالأسىٰ قبلك.
- كلام فارغ يا هازل.
- ربما كلام فارغ، ولكن يتحول لحقيقة.



شعرت أخيرا هازل، وهي على السرير بين ذراعيّ جالغر، أنها تميل أن تغيظ جالغر، أحست بحرارة جسده، وهي متمددة بجواره في سكون، إنه يسامحها في هذه اللحظة، إنه يعبد هازل جونز، دائما يبحث عن وسيلة معقولة ليسامحها. راحت تهمس في أذنه كيف صدمتها عندما رأين أن تاديوس جالغر قعيد على كرسي متحرك!

«أهو كذلك؟ قعيد؟» وراح يتلوى ويرفس تحت الغطاء، وهو يحدق في السقف.

«يا ربي! أعتقد ذلك»



٢٢ أغسطس، ١٩٧٠

عزيزتي هازل

لم أتوقف عن التفكير ولو للحظة منذ الأسبوع الماضي. لدي «سر!» شريط تسجيل لزاك وهو يعزف في مهرجان الموسيقىٰ، بحق ابنك موسيقيٌ عبقري، من الصعب التصديق بأنه ١٣ سنة. معي صور له، إنه صغير جدا، وطبعا في داخله ليس كذلك. فأنا في ١٣ لم أعد طفلا، فقد قويت عزيمتي وشققت طريقي في العالم منذ أن كنت في تلك السن، وليس عندي شك في الطبيعة الخيرة في الكائن البشرىٰ وهلم جرا.

«عزيزتي هازل أرجو ألا أكون أزعجتك»

يجب ألا يعرف زوجك، يجب أن يبقىٰ ما بيننا سرا! إني أفكر فيك دائما، عيونك الغامقة الجميلة اللطيفة التي تسامح ولا تحاكم. لو تكرمت حاولي أن تتصلي بي بين الفينة والأخرىٰ. تليفوني مكتوب أسفل الورقة، هذا رقمي الخاص، لا أحد غيرىٰ سيرد. وإن لم تفعلي يا عزيزتي لن أشعر بجرح ما. لقد أهديت للعالم صبيا متميزا، والذي هو حفيدي في السر! وسوف أقابله في يوم ما في السر. لا تخافي مني، إنك أعطيت لي أكثر مما أتوقع أو أتمنىٰ. لن أتألم، وسأظل أفكر فيك دائما. أعلم أن شيستر رجل طيب ولكن ضعيف، وغيور كما كان أبوه في هذه السن. إلىٰ اللقاء يا عزيزتي.

حبيبك تاد (حماك)



راحت هازل تقرأ هذا الخطاب وهي مذهولة من كثرة الأخطاء الإملائية، إنه مجنون، إنه واقع في حبها... إنها لم تتوقع رد الفعل هذا. لقد شعرت بتأنيب الضمير، يجب ألا يرىٰ جالغر هذا الخطاب. لقد مزقت الخطاب وتخلصت منه، إنها لن ترد علىٰ الخطاب.

لن ترد هازل جونز أبدا علىٰ خطابات تاديوس جالغر المشبوبة بالعاطفة، والتي صارت أكثر تفككا مع الوقت. لا، ولا حتىٰ ستشكره علىٰ الهدايا الكثيرة. إن هازل جونز امرأة كبرياء ومبادئ، فهي لن تشجع الرجل المسن، ومع ذلك لن تثبط عزيمته. إنها تفترض أنه رجل علىٰ قدر كلمته، إنه لن يجابهها لا هي ولا زاك. إنه يمكنه أن يعجب بهما من بعد في السر. يبدو أن جالغر لم يلحظ تلك الهدايا في المنزل، فازات الزهور، ثقالة الورق التي علىٰ هيئة قلب، برواز صور نحاسي، إيشارب حرير مطبوع عليه ورد في أكمامه. حرص الرجل العجوز علىٰ أن يرسل لهازل أشياء صغيرة جدا، وغير باهظة الثمن، ولا تُرىٰ بسهولة. ولم يرسل لها علىٰ الإطلاق أي نقود.

في مارس ١٩٧١، وصل بتسليم شخصي طرد لهازل جونز، ليس هدايا، ولكن مظروف من ورق المانيللا وعليه عنوان الرجوع. مجموعة جالغر الإعلامية، بداخل المظروف نسخ من مقالات صحفية، وخطاب من خطابات تاديوس جالغر بخط اليد المشخبط. أخيرا جمع مساعدي هذه المواد، يا هازل، لماذا استغرقت وقتا طويلا، في الحقيقة لا أدري. رغم أنه شيء مثير، يا هازل جونز. أعلم أنها مجرد صدفة، الحمد لله أن تلك هازل جونز البائسة لم تكن أنت.

هناك صفحات كثيرة ولكن هازل وضعتها جانبا دون أن تقرأها.



في الغرفة العلوية في منزل ديلوير بارك حيث لا يزعجها أحد، أزالت هازل المواد المنسوخة من المظروف المانيللا وفردتها أمامها علىٰ الطاولة، كانت حركاتها محسوبة ومتأنية، ومع ذلك فيدها ترتعش قليلا، يبدو أنها تعرف مسبقا أن ما أرسله تاديوس جالغر ليس أمرا سعيدا. لقد تم ترتيب المقالات الصحفية ترتيبا زمنيا. حاولت هازل أن تنظر بعيدا لكي تعرف النتيجة، ومع ذلك فقد حدث.

اكتشاف مروع في الشلالات الجديدة بعد موت طبيب، استخراج هياكل عظمية أنثوية، وطبيب الشلالات الجديدة المتوفىٰ، اشتباه في حادثة اختطاف في خمسينات القرن العشرين.

تم فحص الممتلكات بمعرفة الشرطة، الهياكل الموجودة مصحوبة بصور فوتوغرافية، نفس صورة الرجل المبتسم، متوسط العمر، الطبيب بيرون هندريكس.

«إنه هو الرجل صاحب القبعة القش»

المقالات من جورنال بورت أوريسكاني، مؤرخ بتاريخ سبتمبر ١٩٦٤. الشلالات الجديدة عبارة عن حي صغير ميسور لحد ما شمال أوريسكاني، علىٰ بحيرة إيرني.

حدثت هازل نفسها بصرامة، انتهىٰ الأمر الآن، مهما كان، فقد انتهىٰ الآن، لا يخصني شيء الآن.

صار الأمر كذلك، لقد كان كذلك، فهي لم تفكر في بيرون هندركس منذ إحدىٰ عشرة سنة.

بالتأكيد كل ذكريات الرجل انمحت من مخيلتها.



عادت هازل للمقالة الأولىٰ وهي من الجورنال أيضا ومؤرخة بتاريخ يونية ١٩٥٦.

نيوفولز، البحث عن فتاة مفقودة، الشرطة والمتطوعون يكثفون البحث، اختفاء هازل جونز، ١٨.

هازل جونز هذه كانت في مدرسة نيوفولز الثانوية، ولكن تركتها في السادسة عشرة.

وعاشت مع أسرتها في الريف خارج نيوفولز، وتكسبت عيشها بالعمل كجليسة أطفال، جرسونة، عاملة نظافة بيوت، في المنطقة. في الوقت الذي اختفت فيه بدأت تعمل في محلات. منتجات ألبان الملكة... كثير من الزبائن رأوها في ألبان الملكة في اليوم الذي اختفت فيه، فبعد الغروب ركبت دراجتها لتذهب لمنزلها، علىٰ مسافة ثلاثة أميال؛ ولكنها لم تذهب للمنزل أبدا. وجدت دراجتها بعد ذلك في مستنقع، علىٰ الطريق السريع، علىٰ بعد ميلين من منزلها.

من الواضح أنه لم يكن حادث اختطاف، فلم تُطلب فدية، ولا شهود علىٰ الاختطاف. لا أحد يفكر في أي شخص يريد أن يؤذي هازل جونز، ولا هازل جونز لها صديق يهددها.

مرت أسابيع، وشهور وسنين والبحث لا زال عن هازل جونز، ولم يجدوها، ولا حتىٰ جثة محتملة لها.

راحت هازل تحدق في صورة الفتاة التي في الصورة، إنها مألوفة بالنسبة لها.



العمر سبعة عشر عاما في وقت الصورة، لهازل جونز شعر غامق كثيف ينسدل علىٰ كتفيها وعلىٰ جبينها. حواجبها كثيفة، أنفها طويل وعريض الأرنبة. ليست جميلة، ولكن جذابة، تقريبا مغرية، فمها غليظ، مغرٍ. ومع ذلك هناك شيء متزمت، بل ومتجهم. عيونها واسعة وداكنة جدا، ومرتابة. حاولت تبتسم للكاميرا، ولكن ليس عن اقتناع.

كيف كان شبه ريبيكا شوارت في ذلك الوقت، هذه هازل جونز! متوترة. من الصعب أن ترىٰ زميلات هازل جونز القدامىٰ في نيوفولز قلن إنها كانت هادئة، منطوية، صعب التقرب لها. قال عنها أبواها إنها لم تركب سيارة قط مع أي شخص لا تعرفه، لم تكن هازل من هذا النوع من البنات.

المقال التالي يصف السيد والسيدة جونز وهما أمام منزل علىٰ طراز البنجالو في ضاحية من ضواحي نيوفولز. في متوسط العمر، حواجبهما كثيفة وداكنة مثل ابنتيهما، يبتسمان للكاميرا، كمقامر يفكر متوقعا الخسارة.

جوانب المنزل مبقعة بالماء، وهناك أكوام من الأنقاض في المساحة الأمامية من المنزل.

المقالات التالية بتاريخ ١٩٥٧، من صحف المنطقة الشمالية في بورت أوريسكاني، في بافاللو، روشيستر وألباني (جرائد وشيستر وألباني كانت من سلسلة صحف جالغر، بمحض الصدفة). في يونية ١٩٥٧، اختفت فتاة أخرىٰ، هذه المرة من جواندا، مدينة صغيرة جنوب شرق بورت أوريسكاني بثلاثين ميلا. في أكتوبر اختفت فتاة أخرىٰ من كابلبورت، قرية علىٰ قناة إيري بارج بقرب ألباني، مئات من



الأميال شرقا. الفتاة التي من جواندا اسمها دوريان كلينسكي، عشرون عاما. والفتاة التي من كابلبورت اسمها جلوريا لوفينج، تسعة عشر عاما. دوريان متزوجة، بينما جلوريا مخطوبة. لقد اختفت دوريان في ظروف غامضة، وهي ذاهبة لبيتها من محل تعمل فيه بائعة في جواندا. واختفت جلوريا بنفس الطريقة، وهي عائدة للمنزل علىٰ طريق الممر علىٰ قناة إيري، علىٰ مسافة لا تتجاوز ميلا. كم تشبه هازل جونز من نيوفولز هذه البنات، شعر داكن، وليست جميلة.

في مقالات كثيرة عن دوريان وجلوريا ليس هناك أي إشارة عن هازل جونز.

ولكن في المقالات عن جلوريا لوفينج، هناك إشارة عن دوريان كلينسكي. وفي المقالات الأخيرة إشارة عن الفتيات المفقودات أعوام ١٩٥٩، ١٩٦٣، ١٩٦٤ وهناك إشارات عن الفتاة المفقودة الأصلية. هازل جونز.

إن الأمر أخذ من قوات إنفاذ القانون، المنتشرين في أماكن عديدة في المقاطعات والضواحي، وقتا طويلا حتىٰ ربطت بين حوادث الاختطاف.

قرأت هازل ذلك باختناق متزايد، حتىٰ انسابت من عينيها الدموع من الخوف والغضب.

«هذا المنحل، أراد أن يفعل بي كذلك، أراد أن يغتالني»

إنها مهزلة كبيرة! إنها أغرب حكاية في حياتها... هازل جونز، من البداية فتاة ميتة. فتاة تم اغتيالها. فتاة ساذجة تثق في الآخرين، ماتت



من ثلاث سنوات عندما اقترب بيرون هندركس من ريبيكا شوارت على الممر بمحاذاة القناة خارج شلالات تشاتاقوا. ماتت، تحللت، سيكتشف هيكلها العظمى يوما ما في ممتلكات بيرون هندريكس.

ضغطت هازل على نفسها لتستمر في القراءة. يجب أن تعرف القصة كاملة، حتى لو أنها لا تريد أن تتذكرها. المقال الأخير يركز على بيرون هندريكس، الرجل الذي تم كشفه في سبتمبر سنة ١٩٦٤. أكثر مقالة إسهابا كانت في صفحة كاملة في جورنال بورت أوريسكاني والذي يظهر فيه وجه بيرون المبتسم بلطافة في شكل بيضاوي، محاطا بالصور البيضاوية أيضا لضحاياه الستة.

أخيرا، مات هندريكس. المنحل لم يودع في أي مستشفى للمجانين.

جاء هذا الارتياح أخيرا، مات هندركس في الثانية والخمسين. عاش وحيدا في منزل شاسع من الطوب في نيوفولز. شهادته الطبية من كلية الطب في بافاللو، ولكنه لم يمارس الطب قط، كما فعل أبوه المتوفي لمدة خمسين عاما تقريبا، يوصف نفسه بأنه باحث طبي. الجيران في نيوفولز قالوا عنه أنه دمث الأخلاق ولكنه منطوي، كلامه مهذب، وبشوش، رجل محترم، دائما مهندم...

كان اتصال هندريكس السابق مع أي ضحية من ضحاياه، حسب ما توصلت له الشرطة، كما حدث مع هانز جونز البالغة الثامنة عشرة والتي كانت تنظف له المنزل...



لقد مات هندريكس في غرفته العلوية في منزله، بعد أن تعفنت جثته بشكل كريه بعد عشرة أيام من موته. الاعتقاد المبدئي أنها وفاة عادية، إلا أن التشريح أظهر جرعة زائدة من المورفين. اكتشفت الشرطة كشكول قصاصات به قصاصات جرائد بها أخبار متعلقة بالضحايا الستة مع. أدلة إدانة، وبتفتيش المنزل ومساحة خضراء تقرب من فدانين تم اكتشاف هياكل عظمية لست نساء.

ستة، لقد أودىٰ بستة من هازل جونز.

لك أن تتخيل، بأي غرض، وبأي أمل ساذج ذهبن معه.

لم تكن هازل جالسة علىٰ الطاولة، الطويلة، والضيقة التي تلجأ لها (هنا، في الطابق الثالث جيد التهوية اشتراها لها جالغر، حيث تشعر هازل بالراحة، إذ أنها تأخذ دروس ليلية بكلية كانيسيوس، وتفرد كتبها علىٰ الطاولة) لكن لا تتكئ عليها أو تسند بوزنها علىٰ يديها فوقها. بدأت هازل تشعر بالدوخة تدريجيا، وتحس أن نبضها سيفجر مخها. ما كان لها أن يغشىٰ عليها! أو تستسلم للفزع، والخوف. وبدلا من ذاك سمعت نفسها تضحك. ليس ضحكة هازل جونز الرقيقة بالغة الأنوثة ولكن ضحكة فجة جافة جوفاء.

«إنها نكتة، هازل جونز نكتة!»

في تلك الليلة وهي بجوار جالغر كانت تفكر. سأوقظه، سأخبره من أنا، سأقول له إن حياتي كذبة، نكتة سخيفة، ليس هناك هازل جونز. أينما كنت فلا أحد... ولكن جالغر نائم، كما ينام دائما، مستغرقا في نومه، جسمه دافئ، يميل للشخير، ينتفض ويرفس في غطاء السرير،



وإذا ما صحا نسبيا يئن كالطفل الكئيب ويتحسس هازل جونز في الليل، ليلمسها، ليلكزها، ويدلكها، وليمسكها، فهو يحب هازل جونز بشدة ولذلك في النهاية لم توقظه، وأخيرا عند الفجر، نامت هازل جونز أيضا.



خلال صيف وخريف ١٩٧٤ كان المنزل صدىٰ لموسيقىٰ. أباشونيت. لبيتهوفن يا لها من موسيقىٰ!

كما لو في حلم، كأم لعازف بيانو صغير تتحرك مفتوحة العينين، وإن كانت لا ترىٰ! وجدت نفسها تقف خارج غرفة الموسيقىٰ وهي متيمة ومنتشية

«سوف، سوف يعزفها، هذا هو وقته»

إن هذه التي تنقصها حدة أذنها في فهم قطعة البيانو ما كان لها أن تقول لو أن القطعة التي سمعتها تحمل علاقة سطحية أو عميقة مع تلك المسجلة لآرتر شانايبل التي سمعتها منذ خمسة وعشرين عاما في حجرة المعيشة في البيت الحجري القديم في المقابر.

داخل غرفة الموسيقىٰ ابنها يعزف تارة ثم يتوقف، ثم يعزف ثم يتوقف. الآن بيده اليسرىٰ وحدها، ثم اليمنىٰ وحدها، ثم بكلتا يديه. تعتقد هازل إن هذا الشغف يجب أن يكون في الموسيقىٰ نفسها، من المؤلف نفسه، بيتهوفن، روح المؤلف التي يعيشها العزف. وراحت تستمع وهي تتساءل ربما اختيار السوناتا هو الخطأ: إن ابنها صغير، وهذه قطعة ليست للصغار. وأصبحت قلقة، وشغوفة جدا للسمع ولكن لم ترد أن يعرف زاك أنها تستمع في الخارج فقد يقلقه هذا ويضايقه.

«إني أحاول بقدر الإمكان ألا أصير للجنون، ماما لا أريد أن أكون مسئولا عن جنونك أيضا»



إنـه قلـق! ففـي الخامسـة عشـرة ترتيبـه الثـاني في مسـابقة لصـغار العـازفين عـام ١٩٧٢، وفي السادسـة عشـرة الأول في مسـابقة فيلاديفيـا لصغار العازفين عام ١٩٧٣، والآن يقترب من عامه الثامن عشر يستعد لمسابقة سان فرانسيسكو الدولية للبيانو.

تمـر السـاعات وهـو علىٰ البيـانو. في الكونسرفتوار، وفي البيـت. وطـوال سـاعات الليـل في غمـرة انـدفاع الموسـيقىٰ في مخـه المتوقـف بالنوم وكأنه اندفاع المياه في شلال. وهـذه الموسـيقىٰ ليسـت موسـيقاه فيجب ألا تُعاق أو تنكتم. تسرىٰ كالتيار في أفق منبسط! تيار يسـتوعب المكـان والزمـان، الماضـي والحاضـر. أن تكـتم هـذه القـوة يعنـي اختناقها.

ولأن زاك في حالة حب تقريبا. فالفتـاة أكـبر منه بعـامين، معـه في فصل الألماني، موسيقية: عازفة تشيللو

. لـولا أني لسـت بارعـة في التشـيللو كبراعتـك في البيـانو يـا زاك، شكرا لله!

هكذا أسلوب الفتاة حين تتكلم بحدة. أسلوبها في الضحك علىٰ تعبيرات وجهه. لم تصل العلاقة للحميمية بعد، فهمـا لـم يتلامسـا. لا تستطيع أن تواسيه بقبلة تعويضا عن الصدمة التي سببتها له، فهو واحد مـن الـذين تعتـبر الموسـيقىٰ مقدسـة بالنسـبة لـه، فالضـحك عليهـا كالضحك علىٰ الموت.

علمت كأم أن ابنها بدأ يكبر بعيدا عنها، ليس البيـانو، أو الحاجـة للتدريب. فهازل لا تغير من البيانو!



كان مهتما بالتاريخ الأوربي الحرب العالمية الثانية. درس عنها في الجامعة. إنه شغوف بالفلسفة، والديانات. هناك نبرة قوية في صوته. بدأت هازل تتخوف من أن زاك بدأ يتكلم في مواضيع سخيفة. فمرة كتب الهند القديمة (أوباناشدا) ومرة فيلسوف ألمانيا في القرن التاسع عشر، شوبنهاور. ومرة ثالثة الكتاب المقدس العبري.

لقد بدأ يصير مجادلا، وعنيفا. فمرة فجأة قال على العشاء، كما لو أن هناك قضايا مهمة تتجنبها «من بين كل الديانات، أليست الأقدم هي الأقرب للإله، ومن هو الإله؟ وما هو الإله؟ هل علينا أن نعرف هذا الإله؟ أم ترى واحدا آخر؟ هل وجودنا مع هذا الإله على الأرض أم آخر؟» تعبيراته هزلية وغير هزلية. يستند بكوعه على الطاولة وهو يميل للأمام.

حاول جالغر أن يتحدث مع ابن زوجته، بجدية نوعا ما: «حسنا زاك أنا مبسوط أنك سألت، إحساسي الشخصي أن الديانة هي محاولة الإنسان لفهم ما وراء الإنسان. ولكل ديانة مجموعة من الإجابات معدة مسبقا من قبل فرقة اختاروها بينهم تختص بالوعظ. وكل ديانة تعلم أنها هي الحق وهي التي اختصها الإله»

«ولكن لا يعني هذا أن إحدى الديانات على خطأ، مثلما هناك اثنا عشر حلا لمسألة رياضية واحدة، أحد عشر حلا يحتمل الخطأ وواحد صحيح»

«ولكن الإله ليس مسألة رياضية يا زاك، الإله مصطلح جامع نعطيه لجهلنا»



فقال زاك متحمسا: «أو حتىٰ، ربما»

«الطرق المختلفة لحديث البشر فظة وغليظة ولكن تشير لنفس الشيء، ولكن اختلاف اللغات تجعل الأمر مرتبكا. مثلما «الإله وراء الديانات، كالشمس لا تستطيع أن تنظر إليها مباشرة، وإلا عميت عيونك، ولو أنه ليس هناك شمس، ستصاب بالعمىٰ، لأنك لن ترىٰ شيئا، ربما كان الأمر كذلك»

لعلم هازل زاك لم يتكلم قط بشغف عن شيء إلا الموسيقىٰ.

اتكأ علىٰ الطاولة بكوعيه بطريقة عشوائية حتىٰ إن ألسنة لهب الشمع بدأت ترتعش، وراح يقطب جبينه بشكل ذكر هازل بجاكوب شوارت علىٰ نحو مهول.

ابنها! نظرت هازل له بألم وغم.

قال جالغر، محاولا أن يمزح: «في الحقيقة ليس عندي أي فكرة! لا أدري أي نبتة لاهوتية التي بيننا»

فقال زاك، وبه غصة: «لا تتعطف عليّ يا بابا، أوكيه؟ فأنا لست واحدا في عرضك التليفزيوني»

الآن زاك ابن جالغر بالتبني قانونا فيناديه أحيانا بابا... عادة بمرح، وعاطفة، وأحيانا يشوبها سخرية المراهقين كما حدث الآن. فقال جالغر بسرعة:

«أنا لم أقصد أن أتعطف عليك يا زاك، ولكن مثل هذه المناقشات تجعل الناس تتضايق دون أن توضح لهم شيئا. هناك تشابه بين الديانات، أليس كذلك؟ شيء بينها كالهيكل العظمىٰ، ومثل



الكائن البشري، والهيكل العظمى» توقف جالغر لما رأى زاك نافذ الصبر وقال وهو متضايق:

«صدقني يا صغيري، أنا أعلم... أنا...»

فقال زاك متجهما:

«أنا لست صغيرا، بمفهوم الغباء أنا لست زفتا صغيرا»

ابتسم جالغر مصرا على أن يقنعه:

«إن الناس الأذكياء اختلفوا حول هذه الأسئلة من آلاف السنين. ولما اتفقوا اتفقوا من باب عاطفة الاتفاق، وليس لأن هناك شيئا ما عبقريا اتفقوا حوله. الناس تلهفوا ليؤمنوا بشيء ما، لذا فهم يؤمنون بشيء ما كمن يتضور جوعا، من الناحية العملية يأكل أي شيء، أليس كذلك؟ هذه هي خبرتي»

«اسمع يا بابا، أنت لست أنا، ولا أحد فيكم أنا، فهمتها؟»

لم يتحدث زاك بهذه الصفاقة من قبل. لقد اغرورقت عيناه بدموع الغضب. ربما أُجهد اليوم في درس البيانو مع مدرسه. لقد أصبحت حياته معقدة بشكل لا تعرفه هازل، لأنه يحتفظ بأشياء كثيرة لنفسه، وهي لا تجرؤ أن تقترب منه.

حاول جالغر مرة ثانية أن يتعقل مع زاك بطريقته المحبوبة الفكهة التي لها تأثير



جلست هازل وهي بائسة وتائهة. إنها فاهمة أن زاك يتحداها هي لا جالغر. إنه يتحداها هي التي علمته منذ الطفولة أن الدين للآخرين وليس لهم.

يا لجالغر المسكين! كان محمر الوجه، وحابسا أنفاسه، كرجل رياضي متوسط العمر كبر راضيا عن براعته قُهر الآن علىٰ يد رياضي صغير استهان به.

راح زاك يقول:

«الموسيقىٰ ليست كافية! هي جزء من العقل. وأنا لدي عقل كامل، من أجل الرب. أريد أن أعرف الأشياء التي يعرفها الناس»

وابتلع ما في فمه بسرعة. اعتاد زاك أن يحلق نصف وجهه الأسفل أغمق من باقي الوجه، شفته العلوية الصغيرة مغطاة بشعر زغب غامق. في ثوان تحول زاك لطبيعة النزق الطفولي، ورباطة الجأش اللطيفة، والغطرسة المخيفة. لم يلق نظرة واحدة علىٰ هازل أثناء نقاشه مع جالغر، ولا ينظر إليها الآن، ولكن قال في كلمات مندفعة

«أريد أن أعرف عن اليهودية، من أين جاءت، وما هي؟»

اليهودية لم تذكر هذه الكلمة من قبل بين هازل وزاك، ولا حتىٰ كلمات يهود أو يهودي. راح جالغر يقول: «بالطبع أنا أتفهم ذلك، إنك تريد أن تعرف كل ما يمكنك معرفته، في حدود المعقول. تبدأ بالديانات القديمة، أنا عن نفسي فعلت ذلك...» وبدأ جالغر يتلعثم ويتردد في هذه اللحظة. لقد كان واعيا بالتوتر الذي بين هازل وزاك.



لقد كان رجلا له خبرته، وله قدره، اعتاد أن يتعامل بجدية، وأن يُذعَن لرأيه، ومع ذلك فهو في المنزل ذاهل. أخذ يقول بإصرار:

«ولكن البيانو يا زاك، يجب أن يكون في المرتبة الأولىٰ»

فقال زاك بانفعال:

«المرتبة الأولىٰ! لكن ليس المرتبة الثانية، أو الثالثة أو حتىٰ الزفت الأخيرة»

ورمىٰ بمنديل الورق المكرمش في طبقه، إنه لم يأكل من الوجبة التي أعدتها أمه إلا القليل، كما كانت تعد كل الوجبات في البيت بعناية. لقد أحست بألم هذه الحركة، كما أحست بألم الكلمة القبيحة التي ذكرها. زفت، إنها متأكدة أنها وقعت في قلبها. وبسلوك مراهق مرتعش دفع زاك الكرسي بعيدا عن الطاولة وغادر الغرفة، بينما الكبار نظروا إليه باندهاش.

تحسس جالغر يد هازل اللينة لكي يواسيها:

«شخص ما تكلم معه، تعتقدين ذلك؟ شخص ما في الجامعة»

كانت هازل جالسة بلا حراك في حالة صدمة وكأن شخصا ما صفعها.

«إنه الضغط الذي يقع تحته، تلك السوناتا، إنها أكبر منه تقريبا، إنه لا زال غضا، وفي حالة نمو، إني أتذكر هذه السن المتعبة، يا ربي! جنس، جنس، جنس. لم أستطع أن أركز علىٰ المفاتيح، دعيني أخبرك عن شيء، ليس بشأن شخصي يا عزيزتي»



«لكي يغيظني، لكي يهجرني، إنه يكرهني، لماذا؟»

إنها فرت من كليهما، ابنها وزوج الأم. لم تستطع أن تتحمل، يا له من موقف مخز كشفها، وكأنما فقرة من فقرات ظهرها انكشفت.

لم تكن هازل تبكي عندما جاء جالغر ليواسيها، فنادرا ما تبكي هازل، إنها تكره مثل هذا الضعف.

كان جالغر يتكلم معها برقة وبتعقل. لقد كانت راقدة على السرير بين ذراعيه، إنه يمكنه أن يحميها، إنه ولهان بهازل جونز. يستطيع أن يحميها من ابنها المراهق. رغم ذلك راح يقول إن زاك طبعا لم يقصد ذلك، وإن زاك يحبها ولا يمكن يؤذيها، يجب أن تعرف هذا.

«نعم أعرف ذلك»

«وأنا أحبك، وأضحى بنفسي من أجلك»

وظل يتكلم وقتا طويلا فهذا أسلوب جالغر عندما يحب امرأة، يعبر بالكلام والجسد. إنه ليس كالرجال الآخرين الذين لا يحتاجون لكلمات كثيرة. كان بينها وبين ذلك الرجل، والد الطفل، تجاوب عميق. ولكن انتهى هذا الآن، تلاشى. إنها لم تعد تحب أي رجل بهذا الشكل: فحياتها الجنسية، وشهوتها الشديدة انتهت.

إنها ممنونة جدا لهذا الرجل الذي قدرها في الوقت الذي لم يقدرها أحد. ومع ذلك تعرف أن في تقديره لها تكمن نقطة ضعفه. إنها حقيقة لا تريد أن ترتاح! إنها تفضل تقريبا أن تظل الإهانة في قلبها.



راحت تتفكر، في عالم الحيوان يتم التخلص من الضعيف بسرعة، هذه هي العقيدة... العقيدة الوحيدة.

ومع ذلك كانت تذهب سرا للحديقة حيث قابلها الرجل الذي كان يرتدي ملابس عمال والذي اقترب منها وكلمها:

«اسمي جوس شوارت، ألا أشبه أي شخص تعرفينه؟»

بالطبع لم تره ثانية، لقد امتلأت عيونها بالدموع، من الرعب والسخط، كانت تتمنىٰ أن تراه مرة أخرىٰ، ذلك الذي ظهر أمامها فجأة.

كم يؤلمها ويحز هذا في قلبها، صوت هذا الرجل! لقد نطق باسمها، لم تسمعه من أمد بعيد.

«أختي ريبيكا، لقد كنا نعيش معا في ميلبرن»

لقد كشفت عن اسم شوارت في دليل التليفونات المحلىٰ وكلمت كل واحد ولكن بلا جدوىٰ.

في مونتريال، في تورونتو، حيث كانوا يذهبون في الأيام الأخيرة، كشفت أيضا عن اسم شوارت، وأجرت مكالمات باءت بالفشل، فهي تعرف أن هارشل كان في مكان ما في كندا، ألم يتحدث هارشيل عن عبور الحدود لكندا والهروب من مطارديه.

«هل هو علىٰ قيد الحياة، آه لو أن أحدا من أسرة شوارت لم يزل يعيش»



لقد بدأت تشعر بالقلق، ويزداد قلقها عما كان في المسابقات الأخرىٰ فقد كانت تعلل بأنه طفل ولم يزل أمامه وقت أما الآن فهو يقترب من الثامنة عشرة، نضج بسرعة. مشوش ومتوتر جنسيا، متهور، وسريع التأثر. ولقد طفح هذا التوتر علىٰ جلده علىٰ هيئة بثور علىٰ جبينه.

إنه لن يبوح بما في داخله لوالديه، إنه يعاني من سوء هضم، ومن إمساك، ومع ذلك كانت هازل تعرف أنها لن تحتمل هذا، أن ابنها الموهوب يمكن أن يفشل، قد يكون في ذلك موتها، لو فشل بعد وصوله لهذه المرحلة.

«أنفاس الرب»

المقهىٰ علىٰ الطريق الجانبي في أبالكين، نيويورك! الطفل دافئ البشرة ينعم بين ذراعيّ أمه يمد يده ليلعب في المفاتيح المكسرة في البيانو القديم سيء الحالة. وحيث هالات الدخان، والرائحة اللاذعة للبيرة، وضحكات وصيحات الغرباء، يا إلهي، كيف لهذا الطفل أن يعزف هكذا؟

ابتسمت، لقد كانوا سعداء، هناك رجل مسن لطيف سكران، تعرف علىٰ جالغر طلب منه أن يتعرف علىٰ أسرته الصغيرة، قدم نفسه بأنه زاك زكريا، وأنه سمع أن ابن زوجة جالغر عازف بيانو اسمه زكريا أيضا.

حدث هذا في نادىٰ اليخت في جراند ايلاند حيث أخذ جالغر أسرته الصغيرة للاحتفال، عندما علموا أن زاك واحد من ثلاثة عشر متنافس للجولة الأخيرة في مسابقة سان فرانسيسكو.



تقول فلسفة جالغر: «احتفل حينما تستطيع فقد لا تأتي الفرصة مرة ثانية»

في طريقهم لطاولتهم التي في جهة النهر جاء الرجل اللطيف السكران بشعره الأبيض القصير جدا، ووجهه المدور كالبطاطس. وعينيه المرحتين المحمرتين كأنه كان يفرك فيهما بأصابعه ليصافح جالغر، ويسلم علىٰ المدام وبالأكثر ليتحدث مع زكريا الصغير.

«مصادفة! أعتقد أن المصادفة تعني شيئا حتىٰ لو لم تقصد. ولكنك أنت الشيء الحقيقي يا بني... موسيقار. لقد قرأت عنك في الصحف، أنا مقدم برنامج دي جي لمدة ستة وعشرين عاما، في راديو ويبن، أحسن موسيقىٰ جاز، في برنامج ساعات السحر»

وأخذ يخفض من صوته فكان متناغما وإن حاكىٰ قليلا صوت الراديو الزنجي: «وبعد ذلك طردني أولاد الزواني من المحطة. معذرة يا شيت، أعرف أنك غير ملوم، أنت لست هذا الوقح تاديوس. اسمي الحقيقي يا بني... ومال نحو الطاولة ليصافح الصبي المنكمش... ألفين بلوك جي آر. هل أدركت هذا التغيير؟»

وراح يهز أردافه، ويضحك بينما الجرسون في جاكته الأبيض كان مارا فأخذه في اتجاهه.

(نادي يخت جراند ايلاند!) كان جالغر معتذرا، ومبررا أيضا للوضع، فلكون جالغر مشهورا محليا تم منحه العضوية الشرفية في نادي يخت جراند ايلاند. فللنادي تاريخ لا يتغير، كان جالغر يسميه التاريخ غير المتكامل، في التمييز العنصري ضد اليهود والزنوج،



والأقليات العرقية، وبالطبع النساء، وكل الذكور القوقازيين البروتستانت نادئ خاص علئ نهر نياجرا. بالتأكيد كان جالغر يحتقر مثل هذه المنظمات لكونها غير ديموقراطية وغير أمريكية ومع ذلك له أصدقاء ينتمون للنادي. إن نادئ اليخت تقليد قديم في بافللو يرجع لسبعينات القرن التاسع عشر، فلماذا لا يقبل كرمهم في عرضهم طالما جالغر ليس عضوا عاملا؟

بالإضافة إلئ أن منظر نهر نياجرا رائع، خصوصا لحظة الغروب، ستحبينه يا هازل.

سألت هازل لو يمكنها أن تذهب لغرفة الطعام الخاصة بنادي اليخت، فقال جالغر:

- طبعا يا هازل أنت وابنك، فأنتما ضيوفي.
- حتئ لو كنت امرأة؟ ألن يعترض الأعضاء؟
- بالتأكيد النساء مسموح لهن كزوجات، أو قريبات، أو ضيفات للأعضاء، مثله مثل نادئ بافاللو الرياضي، لقد كنت هناك.
- لماذا؟
- لماذا ما؟
- لماذا مسموح للمرأة، وغير مسموح لليهود والزنوج؟

وضغطت علئ كلمة زنوج. فلاحظ جالغر أن هازل متضايقة، وغير مرتاحة فقال:



«انظري، أنا لست عضوا عاملا. لقد جئت هنا مرات قليلة فقط. واعتقدت أنه مكان لطيف لنتناول العشاء يوم الأحد، ولنحتفل بزاك»

توقف جالغر وأخذ يفرك أنفه بشدة:

- يمكننا أن نذهب لأي مكان آخر يا هازل لو فضلت ذلك.
- لا يا شيت، لست أنا من تفضل أي شيء.

أحيانا أشعر بالوحشة. آه يا ربىٰ أشعر بالوحشة جدا في هذه الحياة التي أنقذتني منها ولكن أخذ ينظر إليها مندهشا وغير مصدق.

«لست أنت يا هازل! أبدا»

ما بين عشية وضحاها أصبحت هازل مدام شيت جالغر، هازل جالغر.

لما كانت صغيرة كانت تعمل بلا كَلّ ولا شكوىٰ كعاملة غرف في فندق تاريخي، والآن كشابة في متوسط العمر صارت مسئولة عن منزل فيكتوري مرمم جزئيا، مكون من خمس غرف نوم، وثلاثة طوابق، وسطح إردوازي مائل.

احتفظت هازل بالتسجيلات غير المعيبة، وظل يُرسل لها بالبريد المسجل لحسابات جالغر في بافاللو بغرض الضرائب ربع السنوية. أخذ جالغر يصفر إعجابا بزوجته.

«هازل أنت رائعة، كم أنت ذكية!»

«من العمل في الأسرة»



«كيف ذلك»؟

«كان أبي مدرس رياضيات في مدرسة ثانوية»

فنظر إليها جالغر متسائلا:

«أبوك مدرس رياضيات في مدرسة ثانوي؟»

فضحكت هازل: «لا، مجرد مزحة»

مدام شيستر جالغر

كل مرة توقع باسمها الجديد كانت تشعر بأن خطها يتغير على نحو دقيق.

لقد سافروا لأماكن كثيرة، البعض بسبب الموسيقى، والبعض بسبب المجموعة الإعلامية. صارت هازل تُقدم للأصدقاء باسم هازل جالغر، الاسم بالنسبة لها مضحك، وسخيف. ومع ذلك لم يضحك أحد! ولا حتى في مدى مسمعها.

ولأن جالغر، أكثر الناس عاطفة وأكثرهم تهكما، أراد أن يكون الزفاف رسميا نوعا ما، ولكن رأى أنه من المعقول أن يتم زفاف سريع في إحدى قاعات محكمة مقاطعة إيري.

«آخر شيء نفكر فيه هو الكاميرات والأضواء، صح؟ وانتبهي، لو أن أبي اكتشف... »

تمت مراسيم الزفاف في عشرة دقائق، وسجل القاضي الزواج في صباح يوم السبت الممطر في نوفمبر ١٩٧٢: بالضبط في الذكرى العاشرة للقاء جالغر وهازل في بار البيانو في حانة ميلين هيد.



كـان زاك هـو الشـاهد الوحيـد، ابـن العـروس الشـاب ببذلتـه، والكرافتة. كان زاك يبدو مكسوفا ومسرورا في نفس الوقت.

أخيـرا آمـن جـالغر أنـه الوحيـد الـذي يمكنـه أن يكلـم هـازل في الزواج منه. مازحا بأن هازل جعلته رجلا أمينا. عشر سنوات!

- يوما ما يا عزيزتي ستخبرينني لماذا؟
- لماذا ما؟
- رفضت تتزوجينني لمدة عشرة أعوام.
- عشرة، مدة قصيرة.
- لكنهـا طويلـة بالنسـبة لـي! كـل يـوم يمـر أتوقـع أنـك اختفيت. انصرفت. أخذت زاك وتركتني محطم الفؤاد.

جفلت هازل لهذه الملاحظة. وكان جالغر يمزح بالطبع.

«ربما لـم أتزوجـك لأنـني شـعرت أنـني لسـت الزوجـة المناسـبة لك، ربما كان هذا هو السبب»

وضـحكت في داخلهـا، هـازل جـونز الغامضـة، قليلا. وتناغمـت لتصل لقمتها، مثلما يعزف زاك كادينزا. موسيقىٰ بسهولة.

«مناسبة لتتزوجني، هازل، أحقا»

كما رتب جالغر أن يتزوج هازل في محكمة مقاطعة إيري، رتـب كذلك أن يتبنىٰ زاك في محكمة مقاطعة إيري. إنه فخور! إنه سعيد! ها هي قمة الحياة لدىٰ جالغر.



تـم التبني بسرعة، لقـاء مع محـامي جـالغر، وترتيـب موعـد مع قاضي المقاطعة. إتمام مستندات رسمية وتوقيعها، وشهادة ميلاد زاك تستخرج وترسل لمقاطعة شيمونج ثم مقاطعة إيري لتوضع في السجل المدني.

رسميا صار زاك الآن زكريا جالغر، وإن احتفظ باسم زكريا جونز كاسم شهرة. وأخذ يمزح بأنه يعد أكبر طفل تبنىٰ في تاريخ مقاطعة إيري، خمسة عشر عاما. وإن شعر بالخجل أثناء التوقيع واستدار عن جالغر وهازل حتىٰ لا يريانه:

«أوه يا بني، هلا»

احتضـن جـالغر زاك بشـدة، وقبلـه علىٰ طـرف شـفته. ولفـرط عاطفـة جـالغر لـم يكـن يعبأ إذا رآه النـاس يبكـي. وكأنهـما متـآمران، فعندما صارت الأم وابنها لوحدهما أخذا يضحكان ضحكا هستيريا حتىٰ أنه كان يمكن أن يذهل جالغر.

مضحك جدا! أيا كان، ما هذا الذي جعلهما يضحكان هكذا.

زاك منبهر بشهادة ميلاده، لا يتذكر أنه رآهـا مـن قبـل. خبأتها مع أشياء كانت تحتفظ بها منذ أيام طريق المزرعة الفقيرة.

سألها زاك إذا كانت الشهادة شرعية، فردت عليه بحدة:

- نعم
- اسمي زكريا أوجست جونز، واسم أبي وليام جونز؟ من وليام جونز هذا؟
- كان.



- كان ماذا؟
- كان، وليس الآن، لأنه الآن ميت.

أسرار! لفة صغيرة تضعها في صدرها بجوار قلبها، أسرار كثيرة لدرجة أنها أحيانا لا تستطيع أن تتنفس.

علىٰ سبيل المثال، خطابات تاديوس جالغر مشبوبة العاطفة التي أرسلها ل. عزيزتي هازل جونز...

في خريف ١٩٧٠، بعد أن استلمت أولىٰ هذه الرسائل مباشرة، وكانت رغبة شخصية أن تحدد باسم فاعل خير مجهول أعطىٰ مبلغا محترما من المال لكونسرفتوار ديلوير للموسيقىٰ تخصص كمنحة دراسية وتكاليف سفر باسم زكريا جونز. الأموال مطلوبة للمسابقات الدولية العديدة التي سيؤدي فيها عازف البيانو الصغير لكي يكسب جوائز، وشهرة دولية، وكميات من تسجيلات وسجلات عن الكونشرتو. التبرع من فاعل الخير المجهول يتيح لزاك أن يسافر لأي مكان يرغبه. كان جالغر الذي نوىٰ أن يدير أعمال زاك واعيا بهذه الترتيبات.

أندريه واتس كان عمره سبعة عشر عاما عندما دعاه ليونارد بيرنستين لكونشرتو ليز فلات علىٰ التليفزيون الوطني. مفاجأة. وطبعا هناك مسابقة تشايكوفسكىٰ الأسطورة عام ١٩٥٨ والتي حصل فيها فان كليبيرن البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما علىٰ الجائزة الأولىٰ وعاد من الاتحاد السوفيتىٰ مشهورا عالميا. إن جالغر تواق ليعرف من



فاعل الخير، ولكن المسئول في إدارة الكونسرفتوار رفض أن يخبره، تشكك جالغر وارتاب وأصبح مستاء جدا. وراح يشكو لهازل:

«ماذا لو هو؟ يا للعنة!»

فسألت هازل بسذاجة: «من هذا؟»

«من غيره، أبي! إنها ثلاثمائة ألف دولار أعطاها فاعل الخير للكونسرفتوار، من المؤكد هو، من المؤكد سمع زاك يعزف في فيرمونت».

نظر جالغر بقوة وإن شعر بالإهانة، وانخفض صوته بلين:

«هازل، لا أستطيع أن أسمح أن يتدخل تاديوس جالغر في حياتي أكثر من ذلك»

سمعت هازل بتعاطف، فلم تستطع أن تقول. ليست حياتك بل حياة زاك.

بغريزة الأم رأت هازل مدى تغير جسم ابنها جنسيا، عيونه المذنبة التي كان تتفادى نظراتها، ساخنة، وشرهة.

لا يرتاح! يمضي ساعات طويلة أمام البيانو، محبوس أمام نوت موسيقية تبرق أمامه.

أصبح يخرج من المنزل ويعود متأخرا. في منتصف الليل أو بعد ذلك. في إحدى المرات لم يعد إلا في الساعة الرابعة صباحا. رقدت هازل متيقظة، تنتظر، ولكن في سكون كي لا تقلق جالغر.



مـرة ثانيـة قبـل مسـابقة سـان فرانسيسـكو بثلاثـة أسـابيع ظـل في الخارج لقرب الفجر، وعاد يتخبط، ورث الثياب، مجترئ، وتفوح منه رائحة البيرة.

«زاك، صباح الخير»

لـم تشـأ هـازل أن تـوبخ الصـبي ولكنهـا أرادت أن تـتكلم معـه في هـدوء، دون تأنيـب. فهـي تـدرك أنهـا لـو لمسته فسـوف يرجـع ويبتعـد عنها. أو يتشـاجر معهـا فجأة، أو يضـربها بقبضـته كـما فعـل قبـل ذلـك عندما كان صغيرا. أكرهك يا ماما، عليـك اللعنـة، أكرهـك أكرهـك... يجب ألا تنظـر بتـدقيق في وجهـه غـير الحليـق. ويجـب ألا تتهمـه بأنـه يرغب في تحطيم حياتهما ليس أكثر من أن تترجاه، تتوسـل لـه أو حتـىٰ تبكي لأنهـا ليسـت طريقـة هـازل تبتسـم وهـي تفـتح لـه البـاب الخلفـي ليدخل، وأتاحت له أن يمر من أمامها، وهـو يتـنفس بحـرارة مـن فمـه، كما لو أنه يجري، وعيونه التي كانت جميلة بالنسبة لهـا الآن محمـرة، وثقيلة الأجفان، وعليها غشاوة، بينما رائحـة العـرق، ورائحـة الجـنس اللاذعة تحت رائحة البيرة، ومع ذلك أتاحت له أن يعـرف. أنـا أحبـك وحبي لك أقوىٰ من كراهيتك لي.

إنــه سـينام لمــدة طويلــة في النهــار. يجــب ألا تزعجــه هــازل. فإنــه ســوف يعــود بعــد الظهــر وهــو منــتعش، ويتــدرب لســاعة متـأخرة في المسـاء. وسـيهز جـالغر وهـو يسـمعه في الصـالة رأسـه إعجابا به.

إنها تعرف ذلك!



عليه أن يتساءل ماذا قصدت بطريقتها المستفزة الساخرة. السيد جونز ميت الآن. إذا قصدت أن أباه مات، فإن أباه الذي من مدة طويلة زعق في وجهه ويهزه كدُمية قماش ويرطمه في الحائط ومع ذلك حضنه وقبله في شفتيه تاركا رائحة الدخان وراءه.

«هالو، أحبك»

بينما انزلقت أصابعه بسرعة علىٰ المفاتيح بالنغمات الثلاثية في نهاية سوناتا بيتهوفن، عليه أن يتساءل.

شيء غريب، لقد فقد جالغر حماسه في عمله. فقد الحماس بعد النهاية المخزية لحرب فيتنام أطول وأخزىٰ حرب لأمريكا في تاريخها. غريبة، كيف تحول بين يوم وليلة زاهدا في الحياة العامة، والسياسة. في الوقت الذي أصبح فيه عمله كشيت جالغر يحلق عاليا (عاموده في الصحف، افتخر جالغر بأنه يستطيع أن يكتب ٣٥٠ كلمة وهو نائم بيده اليسرىٰ، يعاد نشره دوليا من الإعجاب به. برنامجه في التليفزيون الذي بدأه ١٩٧٣ بدأت جماهيريته تزيد. أيضا في عام ١٩٧٣ جمع بعض قطع نثرية وجعلها في كتاب تحت عنوان. قطع من عقلي. وأصبحت من أحسن المبيعات)

بدأ يفقد حماسه لشيت جالغر بينما تزايد اهتمامه بزكريا جونز.

لأن هنا عازفا عبقريا، حقا عازف بيانو موهوب، اكتشفه جالغر شخصيا في خليج ميلين هيد في ليلة شتوية لا تنسىٰ.

«نعم، إنه ابني بالتبني، إنه ابني»



تحتم علىٰ جالغر أن يعترف أن هذه ظاهرة أنكرها أبوه. لأنه خذل أباه. لقد فشل كعازف بيانو كلاسيكي. ربما فشل لكي يغيظ أباه ولكنه علىٰ أية حال فقد فشل، كل ذلك انتهىٰ. صار يعزف الجاز حاليا فقط في المناسبات، حفلات خفيفة، حفل جمع تبرعات، حفلات خيرية، وأحيانا في التليفزيون. ولكن ليس هناك جاز بمعنىٰ الكلمة. لقد أصبح جالغر برجوازي قوقازي، زوج وأب متوسط العمر ممل، و سعيد، ليس هناك حدود ل. سعيد.

ليس هناك جاز ل. سعيد... لقد كرس حياته لأسرته الصغيرة حتىٰ إنه أقلع عن التدخين.

كم هي غريبة الحياة! سيدير حياة الصبي نظرا للمسئولية التي تقع علىٰ عاتق شيت جالغر. وليس لكي يضغط علىٰ الصبي فهو من البداية حذر أم الصبي:

«سنأخذ الأمر رويدا رويدا، كل خطوة في وقتها، يجب أن نكون واقعيين. حتىٰ أندريه واتس بعد نجاحه المبهر توقف من شدة الإجهاد، وكذلك فان كليبرن، إلىٰ حين».

لم يتوقع جالغر بجد فوز زاك في مسابقة سان فرانسيسكو، لأنه صغير جدا، وليس لديه الخبرة الكافية. إنه شرف كونه تأهل لهذا. إن القضاة كانوا من عرقيات مختلفة ولن ينحازوا لصبي أمريكي قوقازي.

«وهل يفعلون ذلك وزاك يعزف أباشونات لبتهوفن؟»

يمكن لزاك أن يتنافس مع فائزين من روسيا، الصين، اليابان، وألمانيا الذين تدربوا مع عازفين بيانو أكثر تميزا من مدرسه الذي في



ديلوير كونسرفتوار. ولكي يكون واقعيا كان جالغر يخطط لمسابقة طوكيو الدولية للبيانو في مايو ١٩٧٥.

كان اسمها فريدا بروجر، طالبة في الكونسرفتوار، عازفة تشيللو، جميلة بملامحها الواضحة، عيونها لوزية الشكل، شعرها غامق كثيف ومنفوش حول رأسها، جسمها صغير مجسم مفعم بالحيوية، صوتها سوبرانو حاد: «هاللو، مدام جالغر!»

جلست هازل مبتسمة ومتزنة ولكن راحت تنظر بلامبالاة للفتاة التي أحضرها زاك للمنزل. والتي قدمها علىٰ أنها صديقة يعد معها سوناتا من أجل الحفل القادم في الكونسرفتوار. كانت هازل معجبة بالتشيللو الجميل الذي في يد الفتاة، وودت أن تسأل عن بعض الأشياء تخص الآلة، ولكن هناك شيء ما خطأ، لماذا الشاب والشابة ينظران لها باستغراب؟ فجأة أدركت هازل أنها لم ترد، فتحركت شفاهها بلا إحساس: «أهلا فريدا»

فريدا! للاسم رنين غريب بالنسبة لها، كاد أن يغشىٰ عليها.

أدركت أنها رأت الفتاة من قبل، في مدرسة الموسيقىٰ. رأت الفتاة مع زاك رغم أنهما لم يكونا بمفردهما معا. بعد العزف، مع مجموعة من العازفين.

«إنها هي، هي التي ينام معها، نعم»

بدون إنذار أحضر زاك الفتاة للمنزل معه، لم تكن هازل مستعدة. وهكذا أحضر زاك تلك الفتاة ذات الجمال المبهرج، والعيون اللوزية، والحواجب غير المحففة والشعر الكثيف المنفوش: فريدا بروجر.



راح يخبر هازل أنهما يستعدان لعزف سوناتا لفوريه على التشللو والبيانو في حفل موسيقى للكونسرفتوار في منتصف ديسمبر. لأول مرة تسمع هازل عن هذا، فلم تدر بماذا ترد. (ماذا عن أباشونات، وعن سان فرانسيسكو، في خلال ثمانية أيام؟) ولكن رأى هازل لم يعد فعالا فقد حُسم الأمر.

«هذه أول حفلة لي يا مدام جالغر، أنا متوترة!»

إنها تريد هازل أن تشاركها في إثارتها، تراجيديا حياتها الشبابية. ولكن هازل تباعدت عنها، تقاوم هذا.

ومع ذلك ظلت هازل في غرفة الموسيقى أطول مما توقعت، تشغل نفسها بأعمال منزلية صغيرة: تنظم مساند الكراسي، تفتح الستائر الشيش.

كان الشاب والشابة يتكلمان بجدية عن السوناتا وهما يتفحصان النوت الموسيقية التي أمامهما. لاحظت هازل أن الفتاة تقف قريبة جدا من زاك. تبتسم بين الحين والآخر، أسنانها كبيرة وبيضاء جدا، هناك فلج جميل بين السنتين الأماميتين، بشرتها ناعمة، مع لمعة خفيفة، شفتها العلوية مغطاة بشعر زغب ناعم صغير جدا. لقد كانت مفعمة بالحيوية!

لقد نسيت هازل اسم الفتاة، إنها تحس برعدة خفيفة مرت سريعا.

كطالبة في الكونسرفتوار لبسها مستفز، سويتر أخضر ليموني محبوك على صدرها الضخم، وجينز مرصع بالمعدن محبوك على



أردافها الكبيرة. لها سلوك يبعث علىٰ التوتر وهي تبلل شفتيها، وهي تتنفس من فمها. ومع ذلك لا تبدو مربكة علىٰ أنها كانت تهوّل من نفسها، وتظهرها. إنها فتاة غنية، ألم تكن كذلك؟ إن سلوكها يوحىٰ بذلك. إنها متأكدة من كونها محبوبة. تلبس في يدها اليمنىٰ ساعة فخمة، يدها مناسبة لعازفة تشيللو، صغيرة وقصيرة. لكن ليست رقيقة مثل يد زاك. أظافرها بسيطة ومبرودة. أخذت هازل تنظر في أظافرها هي المطلية علىٰ نحو منمق تتماشىٰ مع لون روجها الأحمر المرجاني... غير أن الفتاة صغيرة ومفعمة بالحياة! وراحت هازل تحدق وتنظر وهي تائهة في التساؤلات. لقد سألت بنفسها لو أن الشبان يريدان أن يشربا شيئا ما، قهوة، كولا، أو أي مشروب، ولكنهما رفضا بأدب. بدأت تنتاب هازل الأفكار السيئة. إنهما ينتظراني أن أرحل لكي يصبحا لوحدهما... ثم تساءلت:

«ما هذه السوناتا، أهي مألوفة، أهي سمعتها من قبل؟»

فردت فريدا بحماس وحيوية طالبة: «إنها سوناتا جميلة، مدام جالغر، ولكن من المحتمل أنك لم تسمعيها من قبل، سوناتا فوريه. غير معروفة بشكل كاف، كان مريضا حين كتبها ١٩٢١، إنها واحدة من آخر مؤلفاته، ولعلمك! فوريه شاعر حقيقي، وموسيقار متمكن. وفي هذه السوناتا شيء مدهش، تغيير الحالة المزاجية. فالترنيمة الجنائزية. تصبح شيئا لا تتوقعينه، شيئا أثيريا، مبهجا. مثلما لو أنك رجل عجوز، مريضا، أوشك أن يموت، وفجأة وجدت نفسك تتركين جسدك وتتأرجحين...»



كانت الفتاة تتكلم بتلك الحدة المفاجئة، فشعرت هازل بعدم الارتياح.

«لماذا تتكلم معي بهذا الأسلوب، هل تعتقد أني عجوز؟ مريضة؟»

كما اعتادت هازل أن تضع الزهور على البيانو الستينواي الضخم في نافذة العرض في محلات إخوان زيمرمان، تعودت هازل أن تضع الزهور على البيانو في غرفة الموسيقى. ولكن بالطبع لم يلحظ زاك ذلك. يبدو أن زاك لا يلاحظ إلا أشياء قليلة جدا في منزل جالغر باستثناء الموسيقى التي استحوذت عليه. ولكن صديقته يمكن أن تلاحظ الزهور. وبالفعل لاحظتها. لاحظت الأرضية الخشبية اللامعة، السجاجيد المتناثرة، والمخدات زاهية الألوان المرتبة على مقعد الشباك، النوافذ الطويلة المطلة على الحديقة الخضراء في الخلف والتي تغمرها المياه في الطقس الممطر كأنها تحت البحر (إنها تمطر الآن، على هيئة رذاذ). أحضرها زاك للمنزل، وسار بها في الطابق السفلي، فمن المؤكد أنها لاحظت كيف أن الأثاث في منزل جالغر فخم. ستغادر المنزل وهي منبهرة أن أم زاك...

وقفت هازل حائرة مترددة. فهي توقن أنها يجب أن تتركهما لتدريبهما ولكن سمعت نفسها مرة أخرى تسأل لو أنهما يريدان أي شيء من المطبخ وأجابا مرة ثانية بالنفي بطريقة مهذبة. وبينما شرعت أن تتركهما سمعت فريدا تناديها:

«مدام جالغر، شكرا، سعيدة بمقابلتك»



«ولكن ستقابلينني مرة أخرىٰ، ألن تفعلي؟ سوف تفعلين»

راحت هازل تتلكأ خارج غرفة الموسيقىٰ، تنتظر التدريب أن يبدأ. سمعت دوزنة التشيللو، فبالتأكيد زاك جالس أمام البيانو. شعرت هازل بنغصة حسد، وهي تسمع موسيقىٰ الشباب قد بدأت. التشيللو مبهج ورائع، آلة هازل المفضلة بعد البيانو. كانت تفضل التشيللو علىٰ القيثارة بكثير. بعد عدة موازير موسيقية توقفت الموسيقىٰ. يعودان للبداية. يعزف زاك، وتستمع الفتاة. يتكلم زاك. يبدآن السوناتا مرة ثانية، ومرة ثانية تتوقف الموسيقىٰ... تستمع هازل، وهي منبهرة. فهنا جمال تستطيع أن تفهمه، ليس نغمات البيانو المتدفقة كالرعد والتي تترك المستمع يلهث، ولا الطرقات المتكررة بقوة، أو انفراد سوناتا بيتهوفن بل التوافق العجيب والرائع لآلتين موسيقيتين. كان التشيللو سائدا، والبيانو تقريبا صامتا، أو هكذا اختار زاك أن يعزفه. امتزاج بين التشيللو والبيانو. استمعت هازل لفترة، وتأثرت جدا. ثم غادرت، فلديها أعمال يجب أن تؤديها. ولكنها لم تستطع التركيز بعيدا عن غرفة الموسيقىٰ. تعود تتباطأ في الصالة. في الداخل يتحدث الموسيقيان الصغيران معا. ضحكة البنت عالية، وصوت الولد منخفض، هل انتهىٰ التدريب اليوم؟

تقترب الساعة من السادسة مساء. متىٰ سيتدربان مرة ثانية؟ الأصوات الشابة خلف الباب حيوية ومتناغمة. صوت زاك دافئ ومتداخل مع صوت الفتاة، لقد انسجما معا، كما لو أنهما يتحدثان معا كثيرا، ويضحكان معا. شيء غريب، صار زاك متحفظا مع هازل، وحذرا ومتكتما. إنها تخسره. بالفعل خسرته. فلم يزل في ذاكرتها،



حينما تغير صوت زاك: هذا الصوت الذي كان طفوليا رفيعا وحادا لفترة طويلة. حتىٰ في الوقت الحالي يصبح أحيانا أجش، ومرتعشا. أنه لم يصبح رجلا بعد كما أنه لم يعد طفلا. بالطبع صبي في السابعة عشرة سيكون ناضجا جنسيا، وفتاة من نوعية فريدا، فائرة الجسم، حسية، من المؤكد نضجت جنسيا في سن أصغر بكثير. لم تره هازل عاريا منذ وقت طويل ولا رغبت في أن تراه عاريا ولكن كانت تلمح أحيانا الشعر الغامق الذي نبت تحت إبطيه، ورأت ذراعيه وساقيه وقد تغطت بشعر غامق. لكن الفتاة ليس جسمها بغريب بالنسبة لهازل مثل زاك: فجسم المرأة معروف بالنسبة لها، مثل جسمها هي الذي خسرته كفتاة.

من المحتمل أن تجيب فريدا علىٰ سؤال لزاك، فهي تتكلم عن أسرتها. كان أبوها جراح عيون في بافاللو، وقد ولد في ذات المدينة. أما أمها ولدت في قرية ألمانية صغيرة بالقرب من حدود تشيكوسلوفاكيا. وكانت قد انتقلت وهي فتاة صغيرة إلىٰ داخاو. مع كل أسرتها وأقاربها وجيرانها ولكن بعد ذلك أعيدوا مجددا لمعسكر عمل في تشيكوسلوفاكيا، واستطاعت أن تهرب مع ثلاث بنات يهوديات أخريات اعتبرت نازحة بعد التحرير وهاجرت لفلسطين عام ١٩٥٣ ثم هاجرت للولايات المتحدة وعندها خمسة وعشرون عاما. لقد أباد النازيون كل أسرتها، لم يتبق منها أحد. لكنها كانت تؤمن بأن هناك سبب ما لنجاتها، إنها فعلا تعتقد في ذلك! وضحكت فريدا كيما تبين أن ما اعتقدت فيه أمها مجرد خرافة، كانت تتمنىٰ لو تفصل نفسها عنه. فقال لها زاك:



«ولكنه حدث يا فريدا، فها أنت تعزفين سوناتا فوريه الثانية، وها أنا في صحبتك».

ابتعدت هازل عن غرفة الموسيقىٰ وهي تشعر بأن روحها خرجت منها، أنها انتهت. يا له من شعور بالوحشة! لم تستطع أن تبكي، فلا جدوىٰ من البكاء. ولا أحد يرىٰ، تلك الدموع الضائعة.

«أعدىٰ سريرك الآن ونامي عليه، أعدىٰ سريرك، أعدىٰ سريرك، نامي عليه الآن، أنت!»

أصوات خشنة وقاسية تأتي من الطفولة، أصوات قديمة تنطق بالحكمة.

في الطابق الثالث من المنزل، في مساحة عليّة المنزل المفروشة بشكل مقتصد اتخذت هازل مخبأ لها حيث تتخبأ كالحيوان الجريح. من هذه المسافة لا تستطيع أن تعرف إذا كان الشاب والشابة استأنفا تدريبهما أم لا. ولا تسمع متىٰ غادرت الفتاة. وإذا رحل زاك معها. إنها لن تسمع حتىٰ إذا ناداها وهو خارج من المنزل، ولن تسمع صوت الفتاة الحاد المرتفع وهي تنادي. مع السلامة مدام جالغر.

لو لم يكن ما أخبرت به نفسك، لو لم تهربي منه، بابا كان ذكيا جدا، سريعا، قويا. صوب بندقية الصيد علىٰ صدرك الهزيل وشد الزناد. وكان الأمر. ابتعد عن هذا الشيء المتكوم والذي ينزف دما علىٰ الأرض كقطعة كبيرة من اللحم تم تقطيعها، مسرورا بأن عدوه لن يقمعه أو يهينه مرة أخرىٰ، عمّر البندقية بالذخيرة تلك التي تشبه الراديو الموتورولا الذي كان واحدا من المشتريات التي اقتناها



بخبرته الأمريكية، بحركة مرتبكة أدار ماسورة البندقية نحو نفسه وأطلق الرصاص. بعد هذا الانفجار الرهيب لم يتبق إلا الصمت الذي لم يشهده أحد. أضحك على الموت. ولم لا وهو لم يستطع أن يدفع نفسه للضحك.

تربة الأرض مغموسة في الدم. لقد عرف، قبل أن يقابل فريدا بروجر. عرف معسكرات الموت النازية، الحل النهائي. يبدو أنه يعرف الذي قضى سنوات طويلة يتعلمه.

أضحك على الموت، لم يكن هذا الجانب من الموت ممكنا، كم تبدو الموسيقى وهمية، وعابرة، وتافهة من كل ما يبذله الإنسان من جهد! فإنها تنتهي للصمت في الوقت الذي تُعزف فيه. مع أنك تعمل بكدح لكي تعزفها، ومع احتمال كبير أنك تفشل في أية حالة.

مدفوعا بغروره، وطموحه السخيف، سيعرض على مسرح تغمره الأضواء.

سيؤدي كالقرد المدرب. أمام مجموعة من الحكام الدوليين. سيدنس الموسيقى، في عرضه الغرير. كما لو أن العازفين أحصنة سباق يحرضونها ضد بعضها بعض، ويتراهنون عليها. من المؤكد أن هناك جائزة مالية.

قبل موعد السفر لسان فرانسيسكو بستة أيام أخبر الكبار المحيطين بزكريا جونز أنه لن يذهب.

يا له من ارتباك! أثناء النهار رن التليفون وراح جالغر ليرد. عازف البيانو الصغير رفض أن يستمع لمدرس البيانو، رفض أن



يستمع للموسيقيين الآخرين الذين في الكونسرفتوار، رفض أن يستمع حتىٰ لزوج أمه الذي يحبه والذي توسل إليه وترجاه وتحايل عليه: «قد تكون هذه آخر مسابقة لك يا زاك، لو أنك شعرت بذلك بقوة»

ورغم ذلك أم العازف الصغير لم تتوسل إليه. فهي تعرف كيف تحتفظ بالمسافة بينها وبينه. ربما لأنها متضايقة فآثرت ألا تتكلم مع أي شخص. آه، إن الصبي يعرف كيف يجرح أمه! لو أن هازل حاولت أن تترجاه مثلما فعل جالغر لضحك في وجودها:

«اللعنة، اذهبي والعبي بعيدا، هل تعتقدين أنني القرد المدرب، هيهات، لا»

مر علىٰ هذا الوضع ثلاثة أيام. وزاك مختبئ، وبدأ يشعر بالكسوف. وبدأ يرىٰ أنه اتخذ قراره من منطلق الجبن. إن الرفض المعنوي في داخله يبدو أنه مجرد قلق، خوف من المسرح. وجهه ملتهب. أمعاؤه تفرز سوائل ساخنة تتدفق كالشلالات. لم يعد يحتمل رؤية شكله في المرآة. لم يستطع الحديث مع فريدا التي تعاطفت معه في بادئ الأمر ولكنها الآن ترددت. لم يقصد أن يشد الانتباه له. بل أراد أن يبتعد عن بؤرة الانتباه. قرأ العهد القديم: (الكل باطل)، قرأ شوبنهاور: (ما الموت إلا نوم تُنسىٰ فيه النفس) أراد أن يسحب نفسه بعيدا عن احتمالات الاستحسان والنجاح وبعيدا عن احتمالات الفشل العام. والآن يراجع قراره. لقد رمىٰ بشيء ثمين في القاذورات، فعليه أن يلتقطه وينظفه. ربما من الأفضل أن يقتل نفسه علىٰ أية حال... أو يهرب بعيدا، يعبر الحدود لكندا.



لم يخطر الكونسرفتوار حتىٰ الآن الهيئة المنظمة للمسابقة أن زكريا جونز قرر عدم المشاركة. والآن يعيد التفكير في قراره. وهناك جالغر يتكلم معه بالعقل بأنه لا أحد يتوقع منه الفوز، وأن الشرف في المحاولة والتأهيل:

«اسمع، إنك تعزف سوناتا بيتهوفن من شهور هنا، فاعزفها مرة هناك. ما الفرق؟ حقيقة، لا فرق. إن بتهوفن ألف السوناتا لكي تُسمع، صح؟ واحتفظ بالسوناتا. أباشوناتا. من أن تظهر قبل الأوان لأنه لم يعتقد أن العالم مستعدا لسماعها، والآن نحن مستعدون يا بني. فهيا اعزفها من قلبك، واستحلفك بالرب أن تتوقف عن الكآبة»

وفجأة، ضحك زاك كالعادة، بابا علىٰ حق.



شوارع سان فرانسيسكو مبتلة. ومنحدرة، كما في طوفان قديم. يكاد يكون الهواء نقيا، يهب نحو الداخل من قبل المحيط المحجوب بالضباب.

الضباب! خارج نافذة الجناح الذي يقيمون فيه في الطابق العشرين في فندق. سان فرانسيسكو باسيفيك. يتهاوىٰ العالم لبضعة أقدام.

يتهاوىٰ العالم نحو مفتاح بيانو يبرق.

«أنفاس الرب»

الأمر كذلك، ليس هناك تفسير آخر. إنه في السابعة عشرة سيصبح عازف بيانو صغير اسمه زكريا جونز. تظهر صورته التي في حجم عقلة الأصبع في برنامج متألق في مسابقة سان فرانسيسكو الدولية للبيانو عام ١٩٧٤ . وأنها تصبح هازل جالغر.

في جناحهم الخاص بهم في الفندق، تلقتهم عشرات من باقات الورود. سلة طعام ملفوفة بالسيلوفان مكتظة بالطعام اللذيذ، زجاجات من النبيذ الأبيض والأحمر. كان يمكن أن يضحكا معا بشدة، كالمشتركين في مؤامرة لولا أنهما متحفظان من بعضهما بعض في الآونة الأخيرة. استقصد الابن أمه، يوجه لها ضربات مباغتة.

دون أن يدري أصبح جالغر هو الوسيط بينهما. لم يكن لديه أدنىٰ فكرة بالتوتر الذي بين الأم وابنها. راح يزغد هازل لما سمع زاك يصفر في غرفته الملحقة: «اسمعي! إنها إشارة جيدة»



لا تدرىٰ هازل إذا كانت هذه إشارة جيدة أم لا. فقد كانت هي أيضا سعيدة جدا بوجودها في سان فرانسيسكو، في الضباب. إنها مدينة الشوارع المنحدرة جدا الرأسية تقريبا المجلوة المبتلة، وبالترام القديم بضوضائه، إنها مدينة تبدو جديدة بالنسبة لها ولزاك. إن للمدينة شعورا متجددا، حسا من الهدوء. إن أنفاس الرب رمت بهما هنا، بشيء من النشوة كأي مكان آخر.

اشترت هازل من المقر التجاري في الفندق دستة كوتشينة. لوحدها في الجناح، نزعت السلوفان من باكو الكوتشينة، وفنطت ورق اللعب، وفردته علىٰ طاولة بسطح زجاجي بجوار النافذة، لتلعب السوليتير.

إنها سعيدة لكونها وحدها! فجالغر ألح عليها لتذهب معه وزاك لحضور مأدبة الغداء المقامة تكريما للعازفين. ولكن هازل اعتذرت عن الذهاب. في الطائرة رأت أختين تلعبان سوليتير معا.

يالسعادة ألا تكوني هازل جونز!

«هازل، لماذا ترتدين أسود؟»

إنه فستان جديد من قماش جرسيه ناعم لاصق علىٰ الجسم، جزء أنيق علىٰ نصف جسمها العلوي. له أكمام طويلة، وطويل يغطىٰ وسطها. وجونلة تصل لمنتصف ساقيها. كانت تلبس معه حذاء برقبة طويلة من الستان. فالليل في أكتوبر بارد، ستلف نفسها بشال صوف أسود.

«هل يجب عليّ، أعتقد...»



«لا يا هازل، إنه فستان رائع ولكن يناسب جنازة، أنت تعرفين كيف يفسر زاك الأشياء. خصوصا الصادرة منك. فمن فضلك يا هازل، ألوان»

تكلم جالغر بجد، فاقتنعت هازل بكلامه. سترتدي بدلة لونها كريمي من صوف خفيف، وإيشارب قرمزي، واحد من هدايا تاديوس جالغر، تلفه حول رقبتها. كله تجمُّل.

من خلال النافذة الطويلة وضح أن الضباب انقشع، وبدت سان فرانسيسكو ساعة الغروب مدينة الرواسب الكلسية التي تتألق بالأضواء في الأفق. يا للجمال! تساءلت هازل لو أمكن أن تعتذر عن الذهاب، وتظل في الغرفة. فقلبها منقبض ذعرا لما تتحسبه من نتائج

«بابا، تعال ساعدني»

هناك مشكلة مع الكرافتة السوداء. ظل يخرج ويدخل في غرفته، ويتلكأ أمام غرفة نومهما. لم يشعر بالراحة في ذلك اليوم، كما أخبر بذلك جالغر. أثناء الغداء، وفيما بعد. كان العازفون الآخرون أكبر سنا وأكثر خبرة. يبدون أقوياء الشخصية. بينما زاك يميل للانسحاب، ويبدو مكتئبا. لقد أخذ حماما للمرة الثانية اليوم، وراح يمشط شعره مجبرا على الأناقة. لقد توارت الحبوب التي أعلى جبينه بخصلات الشعر الملونة. كان وجهه النحيف مشرقا بمرح حذر.

مطلوب من الرجال أن يرتدوا كرافتات سوداء، وقمصانا بيضاء منشّاة الياقة، بأزرار صدف، وأساور فرنسية. ساعد جالغر زاك في ارتداء الكرافتة والأساور الفرنسية.



«ارفع رأسك، يا فتىٰ. نعم الجاكت. السكت. متعب ولكن له هيبة وجمال، يجعل السيدات يقعن في غرامنا»، وراح جالغر يضحك عاليا علىٰ نكتته الفاترة.

تفرجت هازل من خلال المرآة. لم تساعد ولكن كانت تشعر بأن الأسرة الصغيرة مقدمة علىٰ حكم إعدام. وإن كانت لا تدرىٰ من فيهم سيعدم؟

لم يفلح جالغر مع كرافتة زاك، ففكها تماما وأخذ يربطها من البداية. كما ترىٰ الاثنين تقريبا مرتبطين: أب متوسط العمر برأس أصلع، وابن مراهق تقريبا في طوله متذمر أثناء ضبط ربطة العنق له. تعتقد هازل أن جالغر منع نفسه من تقبيل أرنبة أنف زاك بطريقة مباركة المهرج. كلما أحس جالغر بتوتر صار أكثر مداعبة، وأكثر غرابة في السلوك. علىٰ الأقل لم ينحن علىٰ معدته من الألم وراح يتقيأ في الحمام كما فعل في منزل أبيه.

وفي السر (كانت هازل تعلم ذلك دون أن ترىٰ) ذهب للثلاجة في حجرة المعيشة وتناول جرعة أو جرعتين من ويسكي جوني واكر.

من المحتمل، وإن عكس الطبيعة البشرية، أن يحب رجل ابنا لرجل آخر وكأنه ابنه. هكذا صار جالغر مع زاك، وابتهج بذلك. من بين خمسة عازفين من المقرر أن يعزفوا هذه الليلة في قاعة الكونشرتو في مركز سان فرانسيسكو للفنون، زاك هو الثالث في الترتيب. وفي اليوم التالي سيعزف الثمانية المتبقون. والإعلان عن الفائز الأول والثاني والثلث سيتم بعد عزف آخر عازف في تلك الليلة.



شعر جالغر بالارتياح لأن زاك سيعزف في البدايات مما سيجعل العبء الذي علىٰ كاهله سيزول سريعا. وإن تخوف من أن المحكمين يميلون في تعاطفهم مع آخر عازف.

وراح جالغر يقول لهازل وهو يفرك في ذقنه بعصبية «ولو أن النتيجة لن تهمنا كما قلنا»

كان مقعداهما في الصف الثالث في الجناح الأمامي. وبذلك لا يعوقهما شيء عن رؤية مفاتيح البيانو ويد العازف المحلقة بوضوح.

بعد أن استمعا للعازفين الأول والثاني أمسك جالغر يد هازل وضغط عليها بشدة، ومال عليها بثقله. تنفس بسرعة، وفاحت أنفاسه بخليط قوىٰ من الويسكي وغسيل الفم. ليزيرين... بعد كل أداء صفق جالغر بحرارة، فهو نفسه عازف. شعرت هازل بثقل جسمها، وبأن فمها جف. بالكاد استمعت للعزف، إنها لم ترد أن تعرف كيف عزف الموهبون المنافسون لابنها.

فجأ تم الإعلان عن اسم زاك، فظهر علىٰ الخشبة ويبدو عليه الاستعداد، وقد استطاع أن يبتسم للجمهور. لم يستطع أن يرىٰ شيئا من الأضواء المبهرة، وهذه الأضواء جعلته يبدو أصغر، علىٰ عكس العازف السابق له والذي كان في بداية الثلاثينات.

جلس أمام البيانو مائلا للأمام وبدأ يعزف الافتتاحية المشهورة لسوناتا بيتهوفن دون تمهيد.



رغم أن هازل استمعت لعزف زاك عدة مرات ففي كل مرة كان ينتابها نوع من القلق، وتتساءل كيف بدأ العزف في كل مرة. ومتىٰ يبدأ العزف يجب أن تعزف كلها مرة واحدة كاملة. هناك ثلاث حركات موسيقية متنافرة تحتاج لمهارة عالية وسرعة، لقد تجاوزها زاك بمهارة، أسرع مما فعل في المنزل، فقد تدرب عليها شهور، استمر العزف لقرابة نصف ساعة! يا لها من متعة. يميل جالغر علىٰ هازل، تخشىٰ أن يثقل عليها أكثر من اللازم، ولكن لم تشأ أن تدفعه بعيدا.

هازل في حالة فزع مرتقب. لم تستطع أن تتنفس، وقلبها بدأ يدق بسرعة.

راحت تقول لنفسها باستمرار، زاك لا يمكن أن يفوز هذه المرة، الشرف في المحاولة والتأهيل. مع ذلك خافت أن يخطئ، أن يرتكب غلطة فظيعة بأي طريقة، تؤدي لإحراجه، ويفشل. إنها متأكدة أنه لن يفعل ذلك، لديها إيمان قوىٰ فيه، ولكن رغم ذلك تملكها الفزع أن تحدث مأساة.

تصل لمسامعها نغمات قوية عالية ثم تدريجيا تتلاشىٰ، ثم تعلو مرة أخرة فتنخفض وتتلاشىٰ ثانية. أحست أنها سيغشىٰ عليها، تحبس أنفاسها بلا وعي. يد جالغر ثقيلة عليها وأصابعه تضغط علىٰ أصابعها بقوة، خشيت أن يكسر عظامها. إن الموسيقىٰ المألوفة لها لمدة شهور أصبحت الآن غير مألوفة، ومثيرة للأعصاب. لا تستطيع أن تتذكر ما هي، ولا أين سمعتها. هناك شيء غامض ومحير حول السوناتا. السرعة التي كانت تستخدمها أصابع العازف علىٰ المفاتيح. اغرورقت عيون هازل، لم تستطع أن تقوىٰ نفسها علىٰ المشاهدة. لم



تدر لماذا هذا المشهد المعقد يُقصد به المتعة والتسلية. إنه أمر محير، لقد كرهت ذلك. لم تستطع هازل أن تتنفس الصعداء إلا في المقطوعة الهادئة، والتي كانت تعبر عن الجمال الفتان. فقط في هذه الفقرات الموسيقية الهادئة حيث تتلاشىٰ الحدة المقلقة.

حقيقة كان ذلك جميلا، ولكن مفجعا للقلب في آن واحد. ففي الأسابيع الأخيرة تغير أداء زاك لسوناتا بيتهوفن. أباشوناتا... فقد اتسم أداؤه الحالي بقلة دفئه، ومزيد من الدقة، والإيقاع، وشيء ما من عنف مكبوت. لقد كانت السرعة تمزق في أعصاب هازل. إن مدرس زاك للبيانو لم يعجبه اتجاه زاك الأخير في التغيير، وكذلك جالغر. إنها تسمعه الآن، العنف. تقريبا هناك ازدراء للسوناتا نفسها. هناك ازدراء للأداء المبهرج. رأت هازل أن زاك يطبق علىٰ أسنانه، وأن وجهه متجهم، وأن هناك بقعة مندية تلمع علىٰ جبينه.

أخذت هازل تنظر بعيدا، وهي تجفل. ورأت أن الآخرين الذين في الصالة يحدقون في العازف بإعجاب. صفوفا من المستمعين المنسجمين. قاعة المسرح تسع لخمسمائة مستمع في الصالة والبلكون، وكلها كانت ممتلئة. الجمهور من الموسيقيين ومحبي الموسيقىٰ، فالقطع الموسيقية التي يعزفها العازفون مألوفة بالنسبة لهم. فمن الجمهور من هم عازفون للموسيقىٰ، ومنهم مدرسون للموسيقىٰ. هناك ممثلون عن الكونسرفتوار ومشجعون، من بينهم فريدا بروجر. حاولت هازل ان تعثر علىٰ وجه الفتاة بين الوجوه ولكن لم تفلح. في صالة الكونشرتو بمقاعدها الوثيرة وحوائطها البراقة تجد هنا وهناك بعض الوجوه التي لا تتوقعها في مثل هذا الموضع. من



المحتمل أنهم أقارب للمتسابقين، منهم القلق، ومنهم الذي له دراية كافية بالموسيقىٰ. وكما لو أن ذاكرتها شُقت بشظية من زجاج. قال لها هارشيل أن أبويها كانا يتغنيان بأغنية أوبرالية، من زمن طويل في أوروبا. ميونيخ. والتي كانت آنا شوارت تسميها الوطن القديم. ارتسمت عليها غشاوة من الزمان والمكان، فرأت الوجوه تشرئب في المقاعد الخلفية في صالة الكونشرتو. أسرة شوارت! مندهشة، غير مصدقة. فخورة جدا.

- إننا دائما نعقد عليك الآمال يا ريبيكا.
- لا، لم تفعلوا.
- إننا نحبك يا ريبيكا.
- لا أعتقد ذلك.
- صعب علينا أن نتكلم. أنا لم أثق في هذه اللغة الجديدة. وأبوك، أنت تعرفين طباع أبيك.
- أنا؟
- إنه يحبك يا ريبيكا، إنه يقول دائما إنه يحبك، إنك تشبهينه جدا.

وجه هازل كوجه دمية من قماش، مغطىٰ بخرقة قماش. كانت تحاول باستماتة أن تغطيه لكي لا يراه أحد. الدموع تتدفق من عيونها. نجحت في أن تغطىٰ جزءا من وجهها، بيدها. وهي ترىٰ المقابر المهملة التي نمت فيها الأعشاب. فالمقابر دائما خلف جفنيها، ملتصقة بعينيها، ما أن ترخىٰ جفنيها حتىٰ تراها. شواهد القبور سقطت علىٰ العشب، تشققت، وتكسرت. بعض القبور تم تدميرها تماما.



تلاشت أسماء الموتىٰ. ابتسمت هازل وهي تراها، الأرض مليئة بالقبور مجهولة الأسماء، فكل قبر مجهول الاسم. فتحت عيونها الغارقة في الدموع. علىٰ خشبة المسرح كان العازف يعزف نهاية سوناتا بيتهوفن. حياته الصغيرة كلها تتركز في هذه المقطوعة.

عزف من قلبه، فأشرق وجه هازل الذي كان ممتقعا لفترة طويلة. ثم جاء التآلف الأخير، يدوس علىٰ البدال، يحرر البدال، في الحال ينطلق الجمهور بالتصفيق.

بحماس الأطفال يثب العازف من علىٰ المقعد لينحني امام الجمهور. وجهه الحساس يلمع بقطرات العرق. وعيونه تتوقد بالحماس. مع ذلك يبتسم ابتسامة يشوبها الإرهاق. ينحني بتواضع شديد كمن أصيب فجأة بألم.

في هذه اللحظات وقف جالغر علىٰ قدميه رافعا يديه مصفقا مع الآخرين.

«لقد فعلها يا هازل! ابننا»

من المؤكد هناك سبب لكي تنجو، لقد عرفت تلك الحقيقة، وإن لا تدرىٰ ما السبب لغاية هذه اللحظة؟

رغم أن الساعة كانت ٢:٤٦ صباحا لم تستطع أن تنام، رغم أنها منهكة من كثر الانفعال. عيونها ملتهبة جدا وكأنها فركتها برمل.

كان جالغر نائما بجوارها نوما عميقا، نائما كأنه طفل طيّع. كان ساندا جسمه النديّ الدافئ عليها، وهو يزغد فيها متعطشا للعاطفة. مع ذلك يتنفس بصوت عال وبصعوبة. الأصوات في حنجرته كأنها حصىٰ



مبلول يتم تجريفه، فيحدث صريرا. أنفاسه هذه تجعلها تتوقع موته، ثم تعرف كيف أنها كانت تحب ذلك الرجل بشدة، ذلك الحب الذي لم تنطق به في الوقت الحالي.

لقد كانت الإنسانة التي أخذت منها لغة الطفولة، وليس هناك لغة أخرىٰ تعبر عما في قلبها.

يجب أن تخرج! فانسلت من السرير، تركت غرفة النوم المظلمة والرجل النائم. يسيطر عليها الأرق كنمل أحمر راح يتكاثر علىٰ جسمها العاري.

في الحقيقة، لم تكن عارية؛ بل ترتدي قميص نوم، قميص نوم من الحرير، مثير، ولونه كلون الشامبانيا، هدية من جالغر.

أضاءت لمبة غرفة المعيشة، الساعة الآن ٢:٤٨. بهذا الإيقاع البطيء يمكن أن تُعاش الحياة. مرت خمس ساعات منذ أن عزف زاك سوناتا بيتهوفن. راحت، فيما بعد، في صالة الاستقبال، الفتاة ذات الوجه الجميل الجريء تحتضن هازل كما لو أنهما صديقتان منذ مدة، أو أقارب. ظلت هازل علىٰ المسافة بينهما فلم تجرؤ أن تحضنها في المقابل. ذهب زاك معها، ومع الآخرين، وأخبر جالغر وهازل ألا ينتظراه، فوعداه بذلك.

المطر يضرب في النوافذ. هناك في الصباح ضباب لمرة أخرىٰ. المدينة بالليل جميلة بالنسبة لهازل، ولكن ليست حقيقية تماما. لا شيء يبدو حقيقيا من هذا الارتفاع البالغ عشرين طابقا. من مسافة



قريبة تظهر بنايات طويلة رفيعة، تبدو أنها أبراج. أضواء حمراء غير واضحة من الأمطار تدور في قممها.

«عين الرب»

كان شيئا فضوليا أن تتكلم. فالكلمات تتدفق تلقائيا.

فهي لن تأخذ وقتا لتلبس، إذ كانت مستعجلة جدا. فيكفي معطفها الواقي من المطر. فلم يزل معطفا مناسبا، رغم أنه ملبد بالماء منذ آخر مرة. وجونلة زاهية بوشاح علىٰ وسطها. يمكنها أن تلبس المعطف كالروب فوق قميص النوم. أما الحذاء، فهي لم تستطع أن تخرج من الغرفة حافية القدمين.

بينما تبحث عن حذائها الذي بلا كعب وجدت فردة من حذاء جالغر الأسود التي ركلها علىٰ السجادة اللامعة فأخذتها ووضعتها مع الفردة الأخرىٰ في الدولاب.

عادا للجناح الخاص بهم في الفندق ليحتفلا معا. فنادىٰ جالغر خدمة الغرف ليطلب شامبانيا، فوق المنضدة الصغيرة ذات السطح الرخامي، لفافات، وزجاجات، وكاسات. بقايا من جبنة بيضة فرنساوي، رقائق من الخبز، فاكهة الكيوي، عنب أحمر لذيذ. لقد ـحس جالغر بعد هذه السهرة المجهدة أنه جائع جد، ولكن من الابتهاج لم يستطع أن يبقىٰ ساكنا، فكان يتجول في غرفة المعيشة أثناء تناوله الطعام، وهو يتكلم. فربما لم يتوقع أن يعزف زاك بهذه المهارة. وأيضا كان يتوقع أن تقع كارثة ما.



في مايو، خيم شبح طبىٰ علىٰ أسرة جالغر. فقد استمر المغص المعوي عند جالغر، ظهر شيء ما في أشعة إكس، ولكنه ليس خبيثا، فهي حالة من حالات القرحة القابلة للعلاج. لقد قررا ألا يخبرا زاك، وأن يظل ذلك سرا بينهما.

لقد ذهب زاك مع زملائه من الكونسرفتوار وآخرين من الموسيقيين الصغار الذين تعرف عليهم في سان فرانسيسكو. بعد عزفه المثير للجدل صار زاك بطلا إلىٰ حد ما، علىٰ الأقل بين العازفين من جيله.

لم ترد هازل أن تقترب من باب غرفة زاك. لم تشأ ان تدير المقبض بهدوء، فهي تعلم أن الباب مغلق. وفي نفس الوقت متأكدة أن الفتاة غير موجودة معه في الغرفة. ليس بقرب غرفة والديه. إن لديها غرفة خاصة بها في الفندق ولقد جاءت بمفردها لسان فرانسيسكو ولو أنها هي وزاك كانا معا في أي سرير، فهما حاليا مرهقان بعد ممارسة الجنس ومن المحتمل أنهما في غرفتها.

هي لا تفكر في شيء الآن. ليست في ذلك الوقت ابنة لأحد، ولن تكون أما لأحد. فكل هذا انتهىٰ الآن. فيمكنها أن تقول يمكنك أن تعيش حياتك الآن، فحياتك ملكك أنت، عشها كيف شئت. لقد أحضرت معها لسان فرانسيسكو معظم الخطابات الأخيرة التي وصلتها من تاديوس، إنها خطابات غرامية، مشبوبة العاطفة، أو صادرة عن خبل. فتحت أكثر الأوراق صلابة لكي تقرأ ما فيها تحت ضوء اللمبة، حيث ينام زوجها لامباليا في الغرفة المجاورة.



عزيزتي هازل جونز

من الممكن أن ترضىٰ غرور رجل مسن لو أنك رددت علىٰ توسلاتي، ولكني أراك الآن هازل جونز، زوجة صالحة وأم جديرة بابنك. إذاً لن تردي، وأنا أحترمك لهذا. وأعتقد أني لن أرسل لك بعد ذلك، إلىٰ أن أموت. ستتلقين أنت وابنك مكافأة محترمة نتيجة إخلاصك وأخلاقك الحسنة. إن زوجك قليل المعرفة، لسان حال الوعىٰ الليبرالي، ليس لديه أي فكرة. إنه مغفل لا يستحقك لا أنت ولا الولد، إنه سرنا يا هازل جونز، أليس كذلك؟ سوف ترون جميعكم وصيتي. فقد يغفل الإنسان عن أشياء في وقت ما. يباركك الرب يا هازل جونز أنت وابنك صاحب الموسيقىٰ التي ستعيش أطول مما نعيش.

ابتسمت هازل وطوت الخطاب ووضعته في شنطة يدها. تردد صوت ضعيف كرذاذ المطر علىٰ زجاج نافذة. أنت ولدت هنا، فلن يضروك. وراحت تدس ذراعيها في أكمام معطف المطر، وربطت الوشاح حول وسطها، ليس هناك حاجة لتنظر في المرآة، فهي تعرف أن شعرها غير ممشط وأن عيونها متسعة. جلدها ينضح بحرارة جنسية. مثارة، ومبتهجة. ستأخذ معها بعضا من المال، بعض العشرينات من كيس نقودها. وستأخذ بعض الأشياء من الثلاجة: زجاجات صغيرة من الويسكي، والجن، والفودكا، وستأخذ الكوتشينة وتضع كل هذا في جيب معطفها.

يجب ألا تنسىٰ أن تأخذ مفتاح الغرفة ٢٠٠٦. وراحت تخطو في الممر الخالي، وأغلقت خلفها الباب. الممر المؤدي للمصعد أطول



مما تتذكر. السجاجيد تنبسط تحت قدميها، وكان علىٰ الجدران ورق حائط بيج حريري الملمس برسومات شرقية. نزلت بالمصعد. بسرعة نزلت من الطابق العشرين للطابق الأرضي. ابتسمت لما تذكرت كيف أن المصاعد أبطأ من ذلك بكثير. كنت تفكرين مليا قبل أن تستقلىٰ منها واحدا.

في مثل هذه الساعة يبدو الفندق كالمهجور. الطابق الأرضي هادئ تماما. موسيقىٰ الخلفية التي في النهار مثل زقزقة العصافير كما يسميها جالغر، صامتة. رغم أن هازل لم تكن في ذلك الفندق من قبل إلا أنها اتجهت مباشرة لباب بلا نافذة مكتوب عليه ممنوع الدخول، خاص بالعاملين. في نهاية الممر فاحت رائحة الطعام، إنه المطبخ، للعاملين فقط. وكذلك غرفة الخدمات: للعاملين فقط. إن غرفة الخدمات التي تعمل علىٰ مدىٰ أربعة وعشرين ساعة لهىٰ من سمات فندق سان فرانسيسكو باسيفيك. سمعت هازل أصواتا من خلف الباب، أصوات رص أطباق. راديو يبث موسيقىٰ ذات إيقاع لاتيني. دفعت الباب، ودخلت. تعلقت كل العيون بها في اندهاش! ولكنها مبتسمة. هناك عمال المطبخ في زي أبيض متسخ، وهناك رجل في زي غامق مكوي يدخل المطبخ في الحال وهو يدفع بعربة الخدمة مكتظة بصواني وأطباق متسخة وكاسات وزجاجات. ضوء المطبخ ساطع، والهواء أكثر دفئا من الممر. من بين روائح المطبخ القوية المشبعة بالدهون والمنظفات هناك رائحة القمامة القوية، ورائحة البيرة أيضا، حيث بعض عمال المطبخ يشربون بيرة. ما إن بدأ الرجل الذي يرتدي الزي الغامق يتكلم بنظرة فزعة:



«عذرا مدام»

حتىٰ بادرته هازل بسرعة: «عذرا، أنا جائعة جدا، ويمكن أن أدفع، أنا معي مشروباتي الخاصة بي، ولكن لا أريد أن آكل بمفردي، ولم أشأ أن أطلب من الغرفة، سوف تأخذ وقتا طويلا»

وراحت تضحك، لقد رأوا أنها بشوشة فلم يخرجوها من المطبخ.

لم تتذكر هازل ما بعد ذلك من أحداث، فهي لا تتذكر كم رجلا هناك، فعلىٰ الأقل اثنان يعملان باستمرار علىٰ أحواض الغسيل، وآخر جاء من باب خلفي، يتثاءب ويتمطىٰ، كثير صادقوها، ونظفوا لها مكان علىٰ طاولتهم بعد أن رفعوا الجرائد، وكتب الكلمات المتقاطعة، وعلب الكولا والسفن أب والبيرة الفارغة. كانوا ممتنين بالزجاجات الصغيرة التي أحضرتها معها من الغرفة. لم يقبلوا منها ورقة العشرين دولار التي حاولت أن تعطيها لهم. والذين في المطبخ هم: سيزر، شاب لاتينىٰ أسباني، تبدو عليه بعض الندوب، وعيونه تدمع دائما؛ ومارفيل، رجل أسود بلون الباذنجان، ووجه مكتنز رقيق؛ ودراك، وهو قوقازي في الأربعين تقريبا، بوجه مفلطح كنوع من أنواع السمك وبكأس لها حافة من سلك تعطىٰ له مظهر محاسب لا تعتقد أنه طباخ ليلي؛ وهناك ماكلينتر، الذي تشكك في هازل في بداية الأمر، وبسرعة صار صديقها، وهو في الخمسينات، في زي الفندق، وهو الذي يقوم بخدمات الغرف ليلا. كلهم معجبون بهازل! ولم تقل لهم إلا اسمها الأول الذي بدا غريبا في مسامعهم: هاازل، وكأنها كلمة



أجنبية، سألوها من أين هي، وأجابتهم، وهل متزوجة، وهل زوجها نائم في جناحهم، وماذا لو استيقظ ولم يجدها، فقالت لهم:

«لن يستيقظ. وعندما يستيقظ سأكون هناك، كل ما في الأمر أني لم أستطع النوم. في هذا التوقيت من الليل يقولون أن من ينزل الفندق يكون مخططا للانتحار، لماذا هذا؟ أهو معتاد في فنادق أخرىٰ. لقد عملت في فندق عندما كنت فتاة صغيرة، في خدمة الغرف، حدث ذلك في شمال نيويورك شرقا، ليس في فخامة هذا الفندق. كنت سعيدة في ذلك الوقت، لقد أحببت العمال، وطاقم المطبخ في ذلك الفندق. ماعدا... »

كان الرجال يستمعون لها بتلهف وعيونهم مثبتة عليها. هناك الموسيقىٰ اللاتينية، والمطبخ واسع وضخم، أوسع من أي مطبخ رأته قبل ذلك، فالجدار البعيد غير مرئي في الظلام. البوتاجازات ضخمة جدا وعليها عيون كثيرة للاشتعال، وهناك ثلاجات ضخمة مصممة في الحوائط... الفريزرات. وغسالات الأطباق. المكان مقسم لعدة مساحات للعمل، والتي تعمل في ذلك الوقت هي مساحة واحدة. الأرضية مغسولة وما زالت مبتلة. تم رفع الأطباق من عربة اليد، وتم وضع القمامة في أكياس بلاستيك ثم وضعها في علب ألمونيوم كبيرة. كانت الحالة المزاجية للعمال مرتفعة، وتتسم بالمزاح. ربما اعتقدت هازل أن وجودها كان له علاقة بذلك. أخرجت الكوتشينة من جيبها وراحت تفنط أوراقها ورتبتها. وهل يعرفون الجني الريمية؟ وهل يريدون أن يلعبوا الجن ريمية، نعم نعم. حسنا. راحت هازل تفنط الأوراق مرة أخرىٰ بأصابعها الماهرة



المطلية أظافرها باللون القرمزي الغامق. ووزعت هازل الأوراق للرجال ولنفسها، والرجال يضحكون، روحهم المعنوية مرتفعة، وشعروا بأن هازل واحدة منها فأحسوا بالارتياح. وبدأوا يلعبون الجني ريمية كأنهم أصدقاء قدامىٰ، وهم يشربون البيرة، ومن الزجاجات الصغيرة التي أحضرتها معها هازل. كانوا يأكلون البطاطس الشيبسي، والبندق المملح، والبندق البرازيلي كالذي التهمه جالغر في الغرفة. رن التليفون، إحدىٰ الغرف تطلب شيئا، فارتدىٰ ماكلينتر الجاكت، وجهز الطلب، وخرج، وعاد في غضون دقائق قليلة. ورأت هازل أنه شعر بالارتياح لأنها لم ترحل. كان ورق اللعب موضوعا علىٰ الطاولة، فالدور انتهىٰ، من فاز؟ هل فازت هازل؟ لم يشأ الرجال أن يتركوها ترحل، فالساعة لم تزل ٣٥: ٣ صباحا، وهم في الخدمة حتىٰ الساعة ٦ صباحا. راحت هازل ترتب الورق وتفنطه وترتبه مرة أخرىٰ وتوزعه. فجأة انفك معطفها من الأمام، فرأىٰ الرجال أعلىٰ صدرها: ثديين شاحبين ومحررين في قميص النوم البمبي الغامق. كانت تعرف أن شعرها غير مهذب، وفمها ملطخ بالروج القديم. حتىٰ أن واحدا من أظافرها كان مقصوفا، وإن كان جسمها يبث رائحة الفزع، إلا أنها تعتقد أنها جميلة، وأن أصدقاءها الجدد لن يحكموا عليها بقسوة. «هل تعرفون لعبة الجن ريمية الغجرية؟ سأعلمها لكم ما استطعت»

خاتمة

١٩٩٨ -١٩٩٩

لاك ورث، فلوريدا



١٤ سبتمبر، ١٩٩٨

عزيزتي الأستاذة مورجنستيرن

كم كنت أتمنىٰ أن أخاطبك باسم. فرايدا. ولكن ليس لي حق في رفع الكلفة. لقد قرأت مذكراتك، وأعتقد لدي الأسباب التي تجعلني أقول إننا بنات خالة، فاسمي قبل الزواج. شوارت. (وهو ليس اسم أبي الفعلي، لقد تغير في إليس أيلاند عام ١٩٣٦) ولكن اسم أمي قبل الزواج مورجنستيرن، وعائلتها من كوفبيرن مثلكم. كان من المفترض أننا نلتقي عام ١٩٤١ عندما كنا أطفالا، أنت والداك وأختك، وأخوك كان من المفترض أن تأتوا لتعيشوا معنا في. ميلبرن، نيويورك، ولكن السفينة، ماريا، التي كانت تقلكم واللاجئين الآخرين، أعادتها هيئة الهجرة الأمريكية في ميناء نيويورك. (ذكرت في المذكرات أن الاسم كان اسما آخر غير ماريا. ولكني متأكدة أنه كان ماريا. لأنه كان موسيقيا في أذني، وأعتقد نظرا للأحداث الكثيرة التي جرت بعد ذلك جعلتك تنسىٰ الاسم، بحساباتي أنت كنت حينئذ ٦ سنوات، وأنا كنت ٥ أعوام) لم أظن طوال هذه المدة أنك علىٰ قيد الحياة! لم أعتقد أن هناك ناجين من أسرتك، لقد أخبرنا أبي أن ليس هناك أحد نجا من أسرتك. إنني في منتهىٰ السعادة لك ولنجاحك. إنها مفاجأة بالنسبة لي أنك تعيشين في الولايات المتحدة منذ ١٩٥٦، وأنك كنت طالبة جامعة في نيويورك، حيث كنت أعيش في زواجي الأول (لم يكن زواجا سعيدا) في شمال نيويورك! سامحيني، لم أقرأ كتابك الأول، رغم أني أحب. الأنثروبولوجي البيولوجي... (أنا أعتقد أنني لم أحصل علىٰ شيء مثلك من التعليم، إنني مكسوفة من نفسي، ليس



التعليم الجامعي فحسب، ولكني لم أحصل حتىٰ علىٰ الثانوية)، علىٰ أية حال أكتب لك آملة أن نلتقي، قريبا جدا، يا فرايدا، قبل فوات الأوان. لم أعد بنت الخالة ذات الخمس سنوات، التي كانت تحلم بأخت جديدة (كما وعدتني أمي) التي ستنام معي علىٰ السرير وتظل معي دائما

بنت خالتك البائسة

لاك ورث، فلوريدا

١٤ سبتمبر، ١٩٩٨

عزيزتي الأستاذة مورجنستيرن

لقد كتبت لك منذ يومين، وأعتقد نظرا لشعوري بالحرج أني قد أكون أرسلت الخطاب لعنوان خطأ. إذا كنت في إجازة تفرغ من جامعة شيكاغو كما هو مكتوب علىٰ غلاف مذكراتك الخارجي. سوف أحاول مرة أخرىٰ، سأهتم بإصداراتك. سوف أضع نفس الخطاب في المظروف مع أني أعرف أنه غير كاف للتعبير عما في قلبي.

بنت خالتك البائسة

لاك ورث، فلوريدا

٢ أكتوبر، ١٩٩٨

عزيزتي الأستاذة مورجنستيرن

لقد كتبت لك في الشهر الماضي، وأخشىٰ أن يكون العنوان خطأ. وسوف أضع هذه الخطابات في المظروف، أعلم الآن أنك في



معهد البحث المتقدم في جامعة ستانفورد، بالو ألتو، كاليفورنيا. من المحتمل أن تكوني قد قرأت خطاباتي وقد أساءك ما فيها. فأنا أعلم أني لست بكاتبة جيدة، لم يكن من المفروض أن أذكر ما حدث عام ١٩٤١ إذ أنك لا تعرفين هذه الحقائق. لم أكن أقصد أن أصحح لك، يا أستاذة مورجنستيرن، بخصوص اسم السفينة التي كنت فيها أنت وأسرتك في ذلك الوقت الكئيب.

في لقاء معك نشر في مجلة ميامي شعرت بالحرج لما قرأت أنك تلقيت رسائل كثيرة من أقاربك منذ نشر المذكرات. ابتسمت عند قراءتي. أين كان كل هؤلاء الأقارب الذين في أمريكا حينما كنت أحتاج لهم؟

نعم كنا هنا يا فرايدا، هنا في ميلبرن، نيويورك، علىٰ قناة إيري

بنت خالتك

بالو ألتو سي أيه

أول نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي ريبيكا شوارد

شكرا لك علىٰ خطابك، وشكرا علىٰ استجابتك مع مذكراتي. إنني فعلا تأثرت بكم الخطابات التي تلقيتها منذ أن نشرت مذكراتي، العودة من الموت، طفولة. سواء من الولايات المتحدة أو الخارج وتمنيت بالفعل لو أن لدي الوقت الكافي لأرد عليها جميعها، وبالتفصيل.

المخلصة



فرايدا مورجنستيرن.

جوليـوس كيـه، ٤٨. أسـتاذ متميـز في الأنثروبولـوجي، جامعـة شيكاغو.

لاك ورث، فلوريدا

٥ نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي أستاذة مورجنستيرن

إنني أشعر بمنتهىٰ الراحة الآن، فقد كان العنوان صحيحا! أتمنىٰ أن تقرأي هذا الخطاب. أعرف أن لـديك سكرتيرة تفتح الخطابات، وتقرأها وترد عليها، أعلم أنك مندهشة (ومتضايقة؟) مـن كثرة الـذين يزعمون أنهم أقارب فرايدا مورجنستيرن، وعلىٰ الأخص منذ لقاءاتك التليفزيونية. ولكني أحس وبقوة أني بنت خالتك، لأني البنت الوحيدة لآنا مورجنستيرن، وأؤمن أن آنا مورجنستيرن هي الأخت الوحيدة لأمك دورا أختها الصغرىٰ، لقد ظلت أمي تتكلم لمدة أسابيع عن أختها دورا بأنها ستأتي لتعيش معنا، ووالدك وأليزابيتا التي تكبرك بثلاث أو أربع سنوات، وأخوك جولي والذي كان أكبر منك أيضا. كان لدينا صور لكم، إنني أتذكر بوضوح كيف كان شعرك مضفرا بأناقة، وكم كنت جميلة، البنت المبوزة. كما كانت أمي تقول عنك، وعني. لقد كنا نشبه بعضنا البعض، وإن كنت أنت أجمل طبعا. كانت إليزابيتا شقراء وجهها مكتنزا، كان جولي يبدو سعيدا في الصورة، كان ولد حلوا في الثامنة تقريبا. لقد حزنت جدا عندما علمت أن أختك وأخاك ماتا في. تريزنشتات... لم تفق أمي من الصدمة في ذلك الحين.



لقد كانت تأمل أن ترىٰ أختها مرة أخرىٰ. عندما عادت ماريا من الميناء فقدت الأمل. منعها أبي من الحديث بالألمانية، وأجبرها علىٰ الانجليزية، ولكنها لم تعرف تتكلم انجليزي، فكانت تتخبأ إذا جاء أي نفر للبيت. لم تتكلم مع أي منا بعد ذلك كثيرا، ورقدت مريضة. لقد ماتت في مايو ١٩٤٩.

بقراءتي هذا الخطاب أرىٰ أنني أعطىٰ تأكيدا خاطئا، بالفعل! أنا لا أفكر إطلاقا في هذه الأشياء القديمة. كان الأمر مجرد رؤية صورتك في الصحيفة يا فرايدا! فبينما كان زوجي يقرأ في جريدة نيويورك تايمز ناداني، إنه لأمر غريب، هذه المرأة تشبه زوجته تماما كأنها أختها، رغم أننا، أنت وأنا، لا نشبه بعضنا البعض تماما من وجهة نظري، لم نعد كذلك، ولكن لشدة دهشتي أني رأيت وجها يشبه وجه أمي كلية كما أتذكره، ثم هناك اسمك، فرايدا مورجنستيرن. ذهبت في الحال واشتريت، الرجوع من الموت، طفولة. لم أقرأ أي مذكرات عن الهولوكوست خوفا من معرفة أي شيء. إنما مذكراتك قرأتها بينما كنت جالسة في السيارة في جراج مكتبة بيع الكتب، لم أدر كم مضىٰ من الوقت، حتىٰ شعرت بأن عيوني لا ترىٰ الصفحات. رحت أتذكر. إنها فرايدا! أختي التي وعدوني بها. الآن أنا عمري اثنان وستون عاما، وحيدة في هذا المكان الخاص بالناس الأغنياء المتقاعدين، الذين ينظرون لي كأني واحدة منهم. إنني لست بالتي تبكي، ولكني بكيت تكرارا عند صفحات من مذكراتك، رغم أني أعرف (من خلال مقابلاتك) أنك لا تريدين أن تعرفي أي تعليقات من القراء، وأنك تزدرين الشفقة الأمريكية الرخيصة... أعرف ذلك، وأشعر بنفس



الإحساس، لك الحق أن تشعري بهذا الإحساس. فأنا في ميلبرن كرهت هؤلاء الناس الذين يشعرون بالأسف من أجلي، كابنة حفار القبور (مهنة أبي) أكثر من هؤلاء الذين لم يهتموا إذا عاشت أسرة شوارت أو ماتت. مرسل لك صورتي التي أخذت لي عندما كنت في السادسة عشرة. إنها كل ما أمتلكه من هذه السنين. (أخشىٰ أن أكون مختلفة تماما الآن!). لكم أتمنىٰ لو أرسلت لك صورة لأمي آنا، ولكن كل شيء تدمر عام ١٩٤٩

بنت خالتك

بالو ألتو

١٦ نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي ريبيكا شوارت

آسفة لأني لم أرد عليك من قبل. نعم، أعتقد أننا فعلا بنات خالة، ولكن لغاية هذه الخطوة فهو مجرد فكرة، أليس كذلك؟

إنني لن أسافر كثيرا هذه السنة، فعليّ أن أنتهي من كتاب جديد قبل نهاية الإجازة. سأعطي بعض الأحاديث القليلة، فجولتي عن الكتاب قد انتهت، أشكر الرب لهذا. (محاولتي لكتابة المذكرات كانت الأولىٰ، وستكون الأخيرة، بالنسبة للكتابة غير الأكاديمية، لقد كانت في غاية السهولة، كانفتاح شريان) لذلك لا أدري كيف سنلتقي في هذه الأيام. أشكرك لإرسالك لي صورتك، إني أعيدها لك.

مع تحياتي.

لاك ورث، فلوريدا



٢٠ نوفمبر، ١٩٩٨

نعـم، أنـا متأكـدة أننـا بنـات خالـة! رغـم أني مثلـك لا أدري مـاذا تعني. بنات خالة... أعتقـد أنـه ليـس لـي أي أقـارب علىٰ قيـد الحيـاة. ووالداي ماتا منذ ١٩٤٩، ولا أعرف شيئا عـن أخـويّ، لـم أرهمـا منـذ سنين.

أعتقد أنك تمقتينني كبنـت خالـة أمريكيـة، أرجـو أن تغفـري لـي هذا. لست متأكدة كيف أنا أمريكية رغم أني لم أولد في كوفبيرن مثلك، بل في ميناء نيويـورك في مـايو ١٩٣٩. (التـاريخ بالضـبط غيـر معـروف، فلم تكـن هنـاك شـهادة مـيلاد، أو أنهـا ضـاعت) أعنـي أني ولـدت علىٰ سفينة اللاجئين! في مكان في منتهىٰ القذارة كما أخبروني. كـان الوضـع مختلفا في ذلـك الوقـت ١٩٣٦. فـالحرب لـم تكـن بـدأت بعـد، وكـان مسموحا لأمثالنا أن يهاجروا إذا كان معهم ملف.

لقد ولـد أخـوايَ في كـوفبيرن وكـذلك والـدايَ بـالطبع، كـان أبـي يسمىٰ نفسه جاكوب شوارت. في هذه البلاد (لم أذكر هذا الاسـم لأي شخص هنا، ولا حتىٰ زوجي بالطبع) لا أعرف عن أبي شيئا سوىٰ أنـه كان يعمل في دار نشر في العالم القديم (كما يسميه أبـي بـتهكم) وكـان مدرس رياضيات في وقت ما في مدرسة بنين حتىٰ منع النازيون أولئـك النـاس مـن التـدريس. أمـي آنـا تزوجـت صـغيرة، وكانـت تعـزف بيـانو عندما كانت فتاة صغيرة. كنا نستمع للموسيقىٰ في الراديو لما لا يكـون أبي في المنزل (فالراديو يخصه)



سامحيني، أعلم أنك لست مهتمة بهذه الأشياء. لقد تكلمت في مذكراتك عن أمك ككاتبة سجلات للنازيين، واحدة من هؤلاء الإداريين اليهود الذين يساعدون في نقل اليهود. أعلم أنك غير متعاطفة مع العائلة. هناك شيء ما مقلق بالنسبة لها، أليس كذلك؟ إنني أحترم كاتبة العودة من الموت. والذي هو عبارة عن نقد للأقارب، واليهود، والتاريخ اليهودي، والمعتقدات كذاكرة مفقودة بعد الحرب، أنا لا أريد أن أثنيك عن شعورك الحقيقي يا فرايدا!

أنا شخصيا ليس لدي أي مشاعر حقيقية، أعني يعرفها الآخرون.

أخبرنا أبي بأنكم جميعا هلكتم، أبي قال أعادوهم كما القطيع الذي أعادوه لهتلر، أتذكر صوته عندما ارتفع: تسعمائة لاجئ. لم أزل أتضايق عندما أتذكر ذلك الصوت. قال لي أبي ألا أفكر في أقاربي مرة أخرىٰ فهم لن يأتوا، إنهم هلكوا. إنني أسمع صوتك من كلماتك. إني أحب هذا الصوت الذي يشبه صوتي. أقصد صوتي السري الذي لا يعرفه أحد.

سأسافر لكاليفورنيا، يا فرايدا! هل تسمحين لي... فقط لكي أقول كلمتي، فروحي سوف تشفىٰ.

بنت خالتك

لاك ورث، فلوريدا

٢١ نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا



إني أشعر بالخجل. لقد أرسلت لك بالأمس خطابا فيه كلمة فيها خطأ في الإملاء: أثنىٰ، وأنه ليس لي أقارب علىٰ قيد الحياة، قصدت لا أحد من أسرة شوارت (معي ابن من زواجي الأول، متزوج ومعه طفلان)

لقد اشتريت كتب أخرىٰ من كتبك. بيولوجي: تاريخيا، الأصل والعرقية: تاريخيا.

كم كان سيتأثر جاكوب شوارت، فالبنت الصغيرة التي في الصورة لم تمت، بل تفوقت عليه إلىٰ حد بعيد.

هل ستسمحين لي أن آتىٰ لأراك في بالو ألتو، يا فرايدا؟ سآتىٰ ليوم واحد، يمكننا أن نتناول وجبة معا، سأغادر في صباح اليوم التالي، أوعدك بذلك.

بنت خالتك البائسة.

لاك ورث، فلوريدا

٢٤ نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا

أعتقد أن ليلة من وقتك ستكون طويلة، فهل يمكن ساعة؟ إنها لن تكون كثيرة من وقتك علىٰ ما أعتقد. يمكنك أن تحدثيني عن عملك، أي شيء بصوتك سوف يكون ثمينا بالنسبة لي. أنا لا أريد أن أجرجرك لمتاهة الماضي كما تتحدثين عن ذلك بقوة. أنا أتفق معك علىٰ أن امرأة مثلك في هذا العمل الفكري، ولها هذه القيمة في مجالها لا وقت لديها للعاطفة الجياشة.



إني أقرأ كتبك، وأخطط تحت بعض العبارات، وأكشف عن بعض الكلمات في المعجم (أحب المعجم جدا، فهو صديقي) كم هو مثير للإعجاب أن نتأمل. كيف العلم يبين الجينات الأساسية للسلوك؟ مرسل لك كارت للرد. معذرة لم أفكر في ذلك من قبل ذلك.

بنت خالتك

بالو ألتو سي أيه

٢٤ نوفمبر ١٩٩٨

عزيزتي ريبيكا شوارت

إن خطابيك بتاريخ ٢٠، ٢١ نوفمبر رائعان، ولكن اسم جاكوب شوارت أخشىٰ ألا يعني لي شيئا.

هناك الكثير مورنجستيرن علىٰ قيد الحياة، فربما بعضهم بنات خالتك أيضا، فابحثي عنهم إذا كنت وحيدة. وأعتقد أني شرحت لك أن وقتي مشغول جدا، فأنا أعمل معظم النهار، ولست ممن يحبون الخروج ليلا. إن الوحدة مشكلة تنشأ من الارتباط بالجوار أكثر من اللازم، وحلها في العمل.

مع تحياتي

لاك ورث، فلوريدا

٢٧ نوفمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا



لقد تقابلت رسائلنا! حيث كلانا كتبناها يوم ٢٤ نوفمبر، وربما تكون هذه علامة!

لقد اتصلت بالتليفون تلقائيا، فقد راودتني فكرة، ربما أسمع صوتها... إنك قسيت قلبك علىٰ بنت خالتك الأمريكية. إنك كنت شجاعة في مذكراتك عندما ذكرت أنك قسّيت قلبك جدا لكي تعيشي، الأمريكان يعتقدون أن المعاناة تجعل منا قديسات، فيا لها من نكتة. لا زلت أدرك أنه ليس لديك في حياتك وقت لي، ليس هناك غرض لي، حتىٰ إذا لم يكن لديك وقت لي، فهل تسمحين لي أن أراسلك؟ أنا أتقبل هذا حتىٰ لو لم تردي. سأتمنىٰ أنك تقرأي ما أكتب، فهذا سيجعلني سعيدة (نعم سيقلل من وحدتي) لأنني ساعتها سأكلمك بيني وبين نفسي كما كنت أفعل حينما كنت طفلة صغيرة.

ملحوظة، في كتاباتك الأكاديمية تشيرين دائما إلىٰ تكيف الإنسان مع البيئة... لو رأيتني، بنت خالتك، في لاك ورث، فلوريدا، علىٰ المحيط جنوب بالم بيتش، بعيدة جدا عن ميلبرن، وعن العالم القديم، لضحكت.

بالو ألتو سي ايه

١ ديسمبر ١٩٩٨

عزيزتي ريبيكا شوارت

بنت خالتي الملحة! أخشىٰ ألا يكون هذا علامة علىٰ أي شيء، ولا حتىٰ مصادفة أن رسائلنا كتبت في نفس اليوم، وأنها تقابلت.



هذا الكارت، أعترف أني كنت مستغربة من هذا الاختيار. لقد تصادف أن هذا الكارت في قاعة الدراسة (هل تكلمت عنه في المذكرات، لا أعتقد هذا) كيف تأتَّىٰ لك أن تكوني من سلالة كاسبار ديفيد فريدريتش. إنك لم تكوني في متحف هامبورج، هل كنت من قبل؟ إنه من النادر أن يعرف أي أمريكي هذا الفنان العظيم جدا في ألمانيا.

مع تحياتي

لاك ورث، فلوريدا

٤ ديسمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا

شخص ما أعطاني هذا الكارت لكاسبار ديفيد فريدرتش، ضمن كروت أخرىٰ من متحف هامبورج، شخص ما سافر هناك (في الحقيقة إنه ابني عازف البيانو، والذي من المؤكد اسمه معروف لك، والذي مختلف تماما عن اسمي)

لقد اخترت كارت يؤثر علىٰ مشاعرك. كما أدركت ذلك من كلماتك. فربما يؤثر علىٰ مشاعري أيضا. ماذا تظنين عن الكارت الجديد الذي هو للألماني ولكن أقبح.

بنت خالك

بالو ألتو سي أيه

١٠ ديسمبر، ١٩٩٨



نعم، أحب هذا القبيح، نودل. الدخان الأسود كالقطران، ونهر إلب كالحمم البركانية. أنت ترين ما بداخلي، أليس كذلك! ليس أني تمنيت أن أتنكر.

لذلك أعيد قارب السحب في نهر إلب لبنت خالتي الملحة. أشكرك، ولكن أرجوك لا ترسلي خطابات أبدا، ولا تتصلي بالتليفون، كفاية

بالو ألتو

١١ ديسمبر، ١٩٩٨ الثانية صباحا

عزيزتي بنت خالتي!

إن صورتك في السادسة عشر عاما لقد نسختها، إني أحب ذلك الشعر الخشن، والفك الصلب. ربما كانت العيون خائفة، ولكنا نعرف كيف نخفي هذا، أليس كذلك يا بنت خالتي؟ لقد تعلمت في المعسكر أن أنصب قامتي، تعلمت أن أكون كبيرة، كالحيوانات التي تكبر نفسها، قد يكون الأمر خدعة للعين ولكن يصير حقيقة، أعتقد أنك كنت فتاة كبيرة أيضا، كنت دائما أقول الحقيقة، لا أرىٰ سببا للخديعة، إني أكره التخيلات، لقد خلقت لي أعداء في وسطي. حينما تعودين من الموت لا تلقين بالا لآراء الآخرين، صدقيني. لقد كلفني هذا الكثير في ما يسمىٰ بالمهنة حيث التقدم فيها يعتمد علىٰ التملق وملحقاته الجنسية التي لا تختلف علىٰ الحيوانات الرئيسية من العشيرة.

كان من عواقب فشلي أن أسلك كالمرأة المتسولة في مهنتي. في مذكراتي تكلمت وأنا أضحك عن الطلاب الخريجين في كولومبيا في



أواخر خمسينات القرن العشرين. لم أضحك بما فيه الكفاية حينئذ. عندما قابلت أعدائي الذين أرادوا أن يسحقوا فتاة عاقة في بداية مهنتها، ليس فقط فتاة، بل يهودية، ولاجئة من المعسكرات، نظرت لهم بتحد، فلم أجفل بل هم الذين جفلوا، هؤلاء الأوغاد، كنت أنتقم حيثما وأينما استطعت، الآن هذه الأجيال انقرضت، لا أتظاهر بالثناء في تذكرهم. في المؤتمرات التي تعقد لتكريمهم، تكون فرايدا مورجنستيرن متحدثة لبقة في قولها الحقيقة.

في ألمانيا حيث التاريخ غير حقيقي من مدة، كانت العودة من الموت أكثر المبيعات لمدة خمسة أشهر، بالفعل تم ترشيحها لجائزتين كبيرتين. إنها نكتة، نعم. أنها في هذا البلد لم تلق مثل هذا الاستقبال. ربما رأيت المراجعات الجيدة. ربما رأيت إعلان الصفحة الكاملة التي نشره أخيرا الناشر البخيل في نيويورك ريفيو للكتب. كان هناك هجوم فظيع. أسوأ من ذاك الهجوم الذي اعتدت عليه خلال عملي.

في الإصدارات اليهودية، والإصدارات شبه اليهودية، مزيد من المقت، والأسىٰ والاشمئزاز. تلك المرأة اليهودية التي تتحدث بلا عاطفة عن الأم والأقارب الذين ماتوا في تريزنشتات. المرأة اليهودية التي تتكلم ببرود، وبشكل علمي عن ميراثها. كما لو أن ما يسمىٰ هولوكوست، ميراث. كما لو أني لم أكتسب حقي في أن أتكلم بالحقيقة كما أراها وسوف أتحدث بالحقيقة لأنه ليس لدي خطة للتراجع عن بحثي، كتاباتي، وتدريسي وتوجيهي لطلاب الدكتوراه



لمدة طويلة (سوف أتقاعد في شيكاغو مبكرا، إنه مربح، وسوف أفتح لي مشروعا في مكان آخر)

إن الحديث بوقار عن الهولوكوست! يضحكني، لقد استخدمت هذه الكلمة باحترام في أحد خطاباتك. أنا لا أستخدم تلك الكلمة التي تنزلق على ألسنة الأمريكان كالزبدة. واحدة من النقاد العنيفين تدعى مورجنستيرن خائنة تطيب خاطر الأعداء (أي أعداء، فهم كثيرون) بقولها، وسوف أعيد قولي دائما، ما سألت عن هذا، بأن الهولوكوست ما إلا حادثة في التاريخ، كأي حادثة أخرى. ليس هناك غرض تاريخي كما للتطور، ليس هناك غرض أو تطور. إن التطور مصطلح يطلق على ما هو. الحالم الورع يريد أن يدعى أن حملة الإبادة النازية حدث فريد في التاريخ، يرفعنا فوق التاريخ... لقد قلت إن هذا هراء، وسأظل أقول هذا. فهناك عديد من جرائم الإبادة طالما هناك بشر. وما التاريخ إلا وليد الكتب. إننا نرى في الأنثروبولوجيا البيولوجية أن إدراك المعنى هو سمة من سمات عديدة. ورغم ذلك لم يطرح هذا المعنى على مستوى العالم، لو أن التاريخ موجود بالفعل فهو نهر أو بالوعة ضخمة تنصب فيها عديد من الروافد في اتجاه واحد، عكس المجاري فهو لا يدعمها، لا يمكن اختبارها أو عرضها. هي ببساطة هكذا، لو أن الروافد جفت لاختفى النهر، ليس هناك قدر للنهر، ولكن هناك حدث، ملاحظات علمية بلا عواطف أو ندم.

ربما أرسل لك هذا الهذيان، يا بنت خالتي الملحة، إني مخمورة نوعا ما، في حالة انتشاء!

بنت خالتك الخائنة



لاك ورث، فلوريدا

١٥ ديسمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا

لكم أحببت خطابك، الذي جعل يدي ترتعش، لم أضحك من زمن، أقصد ضحكنا بطريقتنا الخاصة، طريقة الكره، لكم أحبها. رغم أنها تأكلك في الداخل.

الليل برد هنا، رياح الأطلنطي. فلوريدا باردة ورطبة، لاك ورث وبالم بيتش جميلة جدا ولكن مملة. أتمنىٰ لو أنك جئت هنا للزيارة، يمكنك أن تقضىٰ باقي الشتاء هنا فالجو تقريبا مشمس.

لقد أخذت خطاباتك القيمة معي في الصباح وأنا أتمشىٰ علىٰ الشاطئ، رغم أني حفظت كل كلماتك. لغاية سنة مضت كنت أجري، وأجري لعدة أميال! علىٰ الضفاف التي ضربها الإعصار.

لو رأيتني، ساقيي قويتي العضلات، وظهري الممشوق، لا يمكن يخطر علىٰ بالك أني لم أكن امرأة شابة.

الغريب أننا في الستينات يا فرايدا! والدُمىٰ التي كنا نلعب بها لم تكبر قط. (هل تكرهين أنك تتقدمين في السن؟ صورك تقول أنك امرأة حيوية، دائما تقولين لنفسك كل يوم أعيشه لم يكن موجودا، إن هذا يبعث السعادة)

إن منزلنا يا فرايدا معظمه زجاج مواجه للمحيط، سيكون لك جناحك الخاص، لدينا سيارات كثيرة، ستكون لك سيارة خاص



تتنقلين بها أينما شئت، لست مضطرة أن تقابلي زوجي، ستكونين سرا بيننا.

قول يا فرايدا إنك ستحضرين! الوقت بعد رأس السنة لطيف. بعد أن تنتهىٰ من عملك كل يوم سنتمشىٰ معا علىٰ الشاطئ. أوعدك أننا لن نضطر للحديث.

بنت خالتك المحبة

لاك ورث، فلوريدا

١٧ ديسمبر، ١٩٩٨

عزيزتي فرايدا

اعذريني لخطابي السابق، كان انتهازيا، ورافعا للتكلفة. فطبعا لن تزوري شخصا غريبا، يجب عليّ أن أتذكر أننا غرباء رغم أننا بنات خالة.

إنني أقرأ كتابك، العودة من الموت... الجزء الأخير في أمريكا، زيجاتك الثلاثة: تجارب طائشة تمت بجنون... إنك قاسية جدا وظريفة جدا يا فرايدا! قاسية مع الآخرين مثلما أنت قاسية مع نفسك.

زواجي الأول كان أيضا غلطة، حب أعمىٰ، أعتقد أنه نوع من الجنون، ومع ذلك لولاه ما كان ابني الوحيد. إنك في مذكراتك لم تشعري بالندم علىٰ أجنتك اللقيطة، رغم ألم وعار الإجهاض في ذلك الوقت، فرايدا المسكينة! في عام ١٩٥٧ في غرفة سيئة في ماناهاتن كنت تنزفين لدرجة الموت، في ذلك الوقت كنت أما وأعيش حياة سعيدة. ومع ذلك كان يمكنني أن آتي لك لو كنت أعرف. رغم أني أعرف أنك



لـن تزوريـني، مـع ذلـك عنـدي أمـل أنـك فجـأة سـتزورينني! وأنـك ستظلين أطول فترة ممكنة. ستكون أسرارك في أمان.

لا أزال بنت خالتك الملحة

لاك ورث، فلوريدا

أول أيام ١٩٩٩

عزيزتي فرايدا

لم أسمع عنك أي أخبار، هل أنت سافرت؟ ولكـن ربما سـترين ذلك... لو أن فرايدا ترىٰ هذا حتىٰ لوترمي...

إني أشعر بالسعادة، والأمـل لأنـك عالمـة، بـالطبع تمقتين هـذه المشـاعر كالسـحر والبدائيـة. ولكـن أعتقـد أن هنـاك جديـد في السـنة الجديدة. آمل ذلك.

كـان أبـي جـاكوب شـوارت يـؤمن بأنـه في عـالم الحيـوان يـتم التخلص من الضعيفة بسرعة، فعلينا أن نخفي نقاط ضعفنا. كنا نعـرف ذلك لما كنا أطفال أنا وأنت. ولكن هناك أمامنا الكثير أكثر مـن كوننـا حيوانات.

بنت خالتك المحبة

بالو ألتو

١٩ يناير ١٩٩٩

ريبيكا

فعلا كنت مسافرة، وسأسافر مرة أخرىٰ، ما علاقتك بهذا؟



إنني أوشكت أن أقول أنك من بنات خيالي، أسوأ نقطة ضعف فيّ. ولكني هنا على حافة الشباك استندت لأحدق في ريبيكا ١٩٥٢. الشعر الذي يشبه شعر الحصان، والعيون الجائعة.

بنت خالتي، أنت إنسانة مخلصة، وهذا ما أتعبني. من المفروض أن أشعر بالغبطة، إن قلة آخرين يلاحقون الأستاذة مورجنستيرن، أنا الآن امرأة مسنة. لقد رميت خطاباتك في الدرج، ولكن من ضعفي فتحتها. في يوم من الأيام قلبت في برميل القمامة لكي أسترجع خطابا من خطاباتك. ومن ضعفي فتحته، تعلمين كم أكره الضعف!

بنت خالتك، لا أكثر

لاك ورث، فلوريدا

٢٣ يناير، ١٩٩٩

أعلم، أنا آسفة!

يجب ألا أكون طماعة هكذا. فهذا ليس من حقي. عندما اكتشفت أول مرة في سبتمبر الماضي أنك على قيد الحياة كان كل تفكيري. ينت خالتي فراايدا! مورجنستيرن، أختي الضائعة، إنها حية! لا يهم أن تحبني، ولا يهم أن تعرفني أو حتى تفكر فيّ، كل ما يهمني أنها لم تمت وأنها تتمتع بحياتها.

بنت خالتك المحبة

بالو ألتو سي أيه

٣٠ يناير، ١٩٩٩



عزيزتي ريبيكا

لكم ارتكبنا من حماقات بعواطفنا في سننا هذه، كأننا نكشف عن صدرنا. وفري علينا هذا من فضلك! لم يعد عندي الرغبة في أن أقابلك بقدر ما أرغب في أن أقابل نفسي. لماذا تتصورين أني أريد بنت خالة أو أخت في هذا العمر؟ إني أحب ألا يكون لي أي أقارب أحياء لأنه ليس هناك أي التزام أن يكون أحد منهم لا زال يعيش.

علىٰ أية حال سأسافر، سوف أكون مسافرة طوال الربيع. فأنا أكرهه هنا. فضواحي كاليفورنيا مملة ولا روح فيها. إن زملائي انتهازيون سطحيون، ولذلك أجعل من نفسي فريسة لهم.

إني أكره الكلمات مثل هلك، هل الذبابة تهلك، هل الأشياء النتنة تهلك، هل عدوك يهلك؟

إن مثل هذا الحديث المفخم يتعبني.

لم يهلك أحد في المعسكرات. العديد ماتوا، قتلوا، هذا كل ما في الأمر. لكم أتمنىٰ أن أمنعك من أن تبجليني من أجل مصلحتك، يا بنت خالتي العزيزة. فأنا أرىٰ أني نقطة ضعفك أيضا. فربما أريد أن أجنبك المتاعب.

ومع ذلك لو أنك طالبة عندي! لرميت بك للخلف.

فجأة كانت هناك جوائز وتكريم لفرايدا مورجنستيرن، ليس لأنها كاتبة مذكرات ولكن لأنها عالمة أنثروبولوجي مميزة أيضا، لذلك سأسافر لكي أنالها. طبعا كل هذا يجيء متأخرا، فمع ذلك أما مثلك



شرهة يا ريبيكا. أحيانا أحس أن روحي في بطني! أني أحشو نفسي بلا استمتاع إلا لكي آخذ الطعام من الآخرين.

وفري علىٰ نفسك! لا عواطف، لا خطابات!

شيكاغو

٢٩ مارس، ١٩٩٩

عزيزتي ريبيكا شوارت

لقد كنت أفكر فيك في الفترة الأخيرة. فأنا لم أسمع عنك شيئا من فترة. بينما كنت أفرغ حقائبي صادفت خطاباتك وصورك. لكم كنا كلنا واضحين في صور الأبيض والأسود، كأنها أشعة إكس لنفوسنا. لم يكن شعري كثيفا، وجميلا مثل شعرك يا بنت خالتي الأمريكية.

أعتقد أنني من المؤكد أضعفت معنوياتك. بصراحة، أنا أفتقدك الآن. أظن أنه مر شهران منذ أن أرسلت لي. هذه الجوائز والتكريمات لا قيمة لها إن لم يهتم بها أحد. إن لم يحتضنك أحد مهنئا. مسألة التواضع لا تهم، فلدي من الفخر ما أستطيع أن أتباهىٰ به أمام الآخرين.

بالطبع، يجب أن أكون راضية عن نفسي، لقد نهرتك، أعلم أني امرأة صعبة. إني أكره نفسي أحيانا. ولا أسامح نفسي. يبدو أني فقدت خطابا أو اثنين من خطاباتك. لست متأكدة كم خطاب. بالكاد أستطيع أن أتذكر أنك قلت إنك والأسرة كنتم تعيشون في شمال نيويورك، وإن والدي كانا مرتبين أن نأتي لنعيش معكم؟ كان هذا عام ١٩٤١؟ إنك قلت حقائق ليست في مذكراتي. ولكن أتذكر أن أمي كانت تتكلم بحب



عن أختها الصغرىٰ آنا. قلت إن أباك غير اسمه إلىٰ شوارت. ولكن من ماذا؟ لقد كان مدرس رياضيات في كوفبيرن. لقد كان أبي دكتورا محترما. كان لديه كثير من المرضىٰ غير اليهود الذين كانوا يحترمونه. حينما كان صغيرا خدم في الجيش الألماني في الحرب الأولىٰ، لقد حصل علىٰ الميدالية الذهبية للشجاعة كمكافأة. لقد وعدوه أن هذا التميز سيحميه بينما كان اليهود الآخرون يُرحلون. لقد اختفي أبي فجأة من حياتنا، وانتقلنا في الحال لذلك المكان، حسبت لعدة سنوات أنه هرب منا، وأنه يعيش في مكان ما، وأنه سيتصل بنا. فكرت أن أمي لديها معلومات تخفيها مني، لم تكن أمي أمازونية بالشكل الكافي لتكون من العودة من الموت... حسنا، كفانا من هذا!

رغم أن الأنثروبولوجيا التطورية يجب أن تنظف التاريخ بلا رحمة إلا أن الكائن البشري غير ملزم أن يفعل ذلك.

إنه يوم ساطع هنا في شيكاغو، من مكاني هنا في الطابق الثاني والخمسين من المبنىٰ الضخم الذي أقيم فيه أرىٰ أمامي بحيرة ميتشيجان. إن عائد مذكراتي ساعدتني أن أدفع التكاليف، لو أن الكتاب كان أقل إثارة للجدل ما كان ربح ذلك. لا أحتاج شيئا أكثر من ذلك، نعم.

بنت خالتك

لاك ورث، فلوريدا

١٣ أبريل، ١٩٩٩

عزيزتي فرايدا



لقد كان لخطابك أثر كبير في نفسي. آسفة لأني لـم أرد في الحـال. لا عـذر لـي، هـذا الكـارت لفرايـدا، سـأكتب لـك المـرة القـادم بشـكل مسهب، في التو واللحظة.

بنت خالتك

شيكاغو

٢٢ أبريل، ١٩٩٩

عزيزتي ريبيكا

وصــلني كارتــك، لا أدري مــاذا أقــول. الأمريكــان مفتونــون بجوزيـف كورنيـل، وإدوارد هـوبر. مـاذا يعنـي لانـر والـتس؟ بنتـان صغيرتان دميتان في منتهىٰ البهجة، وفي الخلفيـة سـفينة شـراعية قديمـة والأشرعة مفرودة؟ فن ملصقات؟ أنا لا أحب فن الأحاجي. الفن هـو أن تري لا أن تفكري.

هل هناك شيء خطأ يا ريبيكا؟ أعتقد أن أسلوبك في الكتابة تغير. أرجو ألا تكوني تلعبين معي دور الكسوف، لكي تنتقمي مـن خطابـاتي التي أنّبتك فيها في يناير. عندي طالبـة دكتـوراه، امـرأة شـابة ذكيـة، هـي ليست ذكية إلا بقدر ما تتخيل نفسها. تلعب معي مثل هذه الألعـاب في الآونة الأخيرة، رغم علمها بمخاطرهـا! إني أكـره تلـك الألعـاب أيضـا (ما لمتكن مني)

بنت خالتك

شيكاغو



٦ مايو، ١٩٩٩

بنت خالتي، أعتقد أنك فعلا غضبانة مني، أو أنك لست علىٰ ما يرام، أفضل اعتقادي بأنك غضبانة مني، لأنني أهنتك حتىٰ في قلبك الأمريكي الطيب. إن كان الأمر كذلك فأنا آسفة. ليس معي نسخ من خطاباتي لك، ولا أتذكر ما قلت. ربما أكون مخطئة. عندما أكون متبلدة المشاعر، أكون أحيانا مخطئة. وعندما أكون شاربة أكون أقل خطأ. مرسل كارت عليه الطابع والعنوان. كل المطلوب منك أن تضعي علامة علىٰ أحد المربعين: غضبانة أو لست علىٰ ما يرام.

بنت خالتك

لاك ورث، فلوريدا

١٩ سبتمبر، ١٩٩٩

عزيزتي فرايدا

كم كنت قوية، وجميلة، أثناء التكريم، في واشنطن! لقد كنت هناك مع الجمهور في مكتبة فولجر. لقد قمت بالرحلة من أجلك أنت. كل الكتاب المكرمين تحدثوا بلباقة، ولكن لم يكن هناك من هو أذكىٰ وأروع من فرايدا مورجنستيرن التي أثرت الجو. مكسوفة أن أقول لك إنني لم أمتلك الشجاعة لكي أكلمك. لقد وقفت في الطابور مع الكثيرين في انتظارك لكي توقعي علىٰ العودة من الموت. ما إن جاء دوري حتىٰ بدأت تشعرين بالتعب، بالكاد نظرت لي، كنت متضايقة من المساعدة التي كانت تبحث عن الكتاب. لم أفعل شيئا أكثر من أن غمغمت... شكرا. وأسرعت بعيدا.



لقد مكثت ليلة واحدة في واشنطن وبعدها رجعت. إنني أتعب بسهولة هذه الأيام، لقد كان الأمر صعبا. لو أن زوجي علم أين سأذهب لمنعني.

لقد كنت أثناء الكلمات متعبة علىٰ خشبة المسرح، عيناك زائغتان، كانت عيونك علىّ. كنت جالسة في الصف الثالث في المسرح. هذا المسرح الصغير القديم الجميل في مكتبة فولجر. أعتقد أن هناك أشياء كثيرة جميلة في العالم لم نرها. لقد فات الأوان أن نشتاق لهذه الأشياء. لقد كنت تلك المرأة ذات الرأس الضئيل وقصة الشعر القصيرة جدا، والنظارة الغامقة التي كانت تغطىٰ نصف وجهي. كانت الأخريات اللاتي في مثل حالتي يرتدين أغطية رأس مزوقة بسخافة، أو باروكات مبهرجة، وكانت وجوههن عليها ماكياج جريء.

هناك العديد في لاك ورث / بالم بيتش من أمثالنا. فلا أهتم برأسي الأصلع في الجو الدافئ وبين الغرباء الذين ينظرون وهم يمضون في طريقهم وكأني غير موجودة. لقد نظرت لي في البداية، ثم حولت نظرك عني بسرعة، ولم أستطع بعد ذلك أن أخاطبك. لم يكن الوقت مناسبا، لم أنوه لك عن حضوري. إني أتجنب الشفقة، حتىٰ التعاطف أحيانا يكون عبئا. لم أعرف أني سأقوم بهذه الرحلة حتىٰ الصباح الذي سافرت فيه لأن الأمر يعتمد علىٰ حالتي المزاجية في كل صباح، لا شيء يمكن التنبؤ به. كانت معي هدية لك، ولكن من غبائي تراجعت. ومع ذلك كانت الرحلة روعة بالنسبة لي، فقد رأيت بنت خالتي عن قرب! وإن كنت ندمت علىٰ جبني الآن، ولكن فات الأوان.



لقد سألتني عن أبي، لن أقول لك أكثر من أني لا أعرف اسمه الحقيقي، كان يسمىٰ نفسه جاكوب شوارت، وهكذا كنا ندعوه، واسمي كان ريبيكا شوارت، ولكن هذا الاسم انتهىٰ من زمن. لدي اسم آخر ملائم، اسم أمريكي، ولدي أيضا اسم عائلة زوجي. أنا ريبيكا شوارت فقط لك أنت يا بنت خالتي. حسنا، سأخبرك بشيء آخر: في مايو ١٩٤٩، أبي الذي كان حفار القبور قتل خالتك آنا، وأراد أن يقتلني، ولكن فشل، فأدار بندقية الصيد نحوه، لقد قتل نفسه عندما كنت في الثالثة عشرة وأنا أقاومه بصعوبة، لازلت أذكر جيدا وجهه في الثواني الأخيرة، كيف كان وجهه، جمجمته، مخه، ودمه الفائر الذي تطرطش عليّ.

لم أقل هذا لأي شخص يا فرايدا، أرجوك لا تكلميني عنه مرة أخرىٰ حينما تكتبين لي.

بنت خالتك

(لم يكن في نيتي أن أكتب هذه الأشياء السخيفة عندما بدأت الرسالة)

شيكاغو

٢٣ سبتمبر، ١٩٩٩

عزيزتي ريبيكا

أنا مندهشة، كيف كنت قريبة مني ولم تكلميني؟ لا أدري ماذا أقول عما حدث لك وأنت في الثالثة عشرة. غير أني مذهولة، وغضبانة، ومتألمة. ليس منك، لست غضبانة منك بل من نفسي.



حاولت أن أتصل بك، ولكن ليس هناك اسم ريبيكا شوارت في دليل تليفونات لاك ورث. بالطبع قلت لي ليس هناك ريبيكا شوارت. لماذا لم تخبريني باسم زوجك؟ لماذا أنت غامضة؟ أنا لا أحب هذه الألعاب، ليس عندي وقت لها (لم ترجعي لي الكارت، انتظرت كثيرا، ولم ترسليه)

هل أقدر أن أصدقك عن جاكوب شوارت؟ إننا نستنتج أن أقبح الأشياء يمكن أن تكون حقيقة.

لم يكن الوضع كذلك في مذكراتي. عندما كتبتها، وبعد خمسة وأربعين سنة من كتابتها ما كانت إلا نصا اخترته ليكون مؤثرا، أي نعم هناك وقائع حقيقية في العودة من الموت، ولكن الوقائع لا تكون حقيقية حتىٰ تُفسر.

كان علىٰ مذكراتي أن تنافس المذكرات الأخرىٰ التي من نفس نوعها، فكان يجب أن تكون بديعة، لقد اعتدت علىٰ المجادلة، وأعرف كيف أقرص الأذن. فالمذكرات تخفف من ألم الراوي وهوانه.

حقيقي، لم أشعر بأني واحدة من هؤلاء الذين سيموتون؛ لقد كنت صغيرة، جاهلة، وأسلم صحة بالمقارنة للآخرين. أختي الكبرىٰ إليزابيتا الشقراء، والتي كان يعجب بها جميع الأقارب، فهي كانت تبدو كدمية ألمانية، فورا فقدت كل شعرها، وتحولت أحشاؤها لما يشبه شحوم الحيوانات المدمومة، وجولي مات، سُحق حتىٰ الموت، هكذا أخبروني فيما بعد. ما قلته عن أمي دورا مورجنستيرن فهو



حقيقي في البداية. فلم تكن من الكابو، ولكن كانت تأمل أن تساعد النازيين من أجل أسرتها (بالطبع) واليهود الآخرين. لقد كانت منظمة جيدة، وموثوق فيها، ولكنها لم تكن قوية كما ذكرت في المذكرات. ولم تقل هذه الأشياء الوحشية، لا أتذكر أي شيء مما قاله أي واحد لي ماعدا الأوامر التي كانت تصدرها السلطات، لقد ضاعت كل الكلمات الهادئة التي كانت بيننا، وأنفاسنا الخافتة. ولكن المذكرات يجب أن يكون فيها كلمات منطوقة، وأنفاس قوية.

إنني مشهورة الآن، سيئة السمعة! فكتبي في فرنسا هذا الشهر من أكثر المبيعات، وفي المملكة المتحدة (حيث معاداة السامية واضحة هناك) حيث كلماتي مشكوك فيها، إلا أنها تباع بكثرة.

ريبيكا، يجب أن أتحدث معك. سأرسل لك رقمي، في انتظار أن تتصلي بي. أنسب موعد بعد الساعة العاشرة مساء في أي ليلة. لن أكون تلك المتيقظة الفاترة، ولا النذلة.

بنت خالتك

ملحوظة؛ هل لا زلت تأخذين العلاج الكيماوي؟ وكيف حالتك الآن؟ أرجوك ردي علي.

لاك ورث، فلوريدا

٨ أكتوبر

عزيزتي فرايدا

لا تغضبي مني، لقد أردت أن أتصل بك. لكن هناك ظروف منعتني، سوف أتعافى وأكلمك، أوعدك، سوف أتصل بك.



كان من الضروري لي أن أراك وأسمعك، أنا فخورة بك، يصعب عليّ عندما تقولين أشياء قاسية عن نفسك، أرجو أن تتوقفي عن هذا، هوني عليك!

نصف الوقت أقضيه وأنا أحلم، سعيدة جدا، في التو كنت أشم رائحة نبات جذر الثعبان. قد لا تعرفين ما هو نبات جذر الثعبان، فأنت تعيشين دائما في المدن، هناك وراء بيت حفار القبور الحجري، في ميلبرن، كان هناك مستنقع حيث ينمو ذلك النبات الطويل. طول النباتات البرية يصل لخمسة أقدام تقريبا، لها زهور بيضاء تشبه الثلج، تتفتت كالبودرة، ولها رائحة قوية. تبدو الزهور والنحل حولها يطن وكأنها كائنات حية. أتذكر لكم انتظرتك حتىٰ تأتي من وراء البحار، كان معي دميتان: ماجي وهي الأجمل لك، ودميتي مينىٰ التي كانت بسيطة، وقديمة ومهترئة ولكني أحببتها جدا (أخي هارشيل وجد الدميتين في مقلب قمامة ميلبرن، لقد وجدنا أشياء كثيرة جميلة في مقلب القمامة!) لقد لعبت لمدة ساعات مع ماجي ومينىٰ ومعك أنت يا فرايدا! كلنا كنا ندردش. وكان أخواي يضحكان علىٰ، لقد حلمت في الليلة الماضية بالدميتين اللتين كانتا مصدر بهجة بالنسبة لي، واللتين لم أرهما منذ سبع وخمسين سنة. ولكن الغريب يا فرايدا أنك لم تكوني في الحلم، ولا أنا أيضا.

سأكتب لك فيما بعد، مع حبي

بنت خالتك

شيكاغو



١٢ أكتوبر

عزيزتي ريبيكا

الآن أنا غضبانة فعلا! فأنت لم تتصلي بي، ولم تعطيني رقم تليفونك، كيف أصل لك؟ معي اسم شارعك، واسم ريبيكا شوارت. إني مشغولة، إنه وقت صعب. إني أحس وكأن رأسي مشقوق بمطرقة. أوه! أنا غضبانة منك يا بنت خالتي!

ومع ذلك أشعر أنه يجب علي أن آتي للاك ورث، لكي أراك. أيجب علي؟

ترجمة / شرقاوي حافظ